

الكتاب

طارق علي المرأة الحجرية

ترجمة محمد عبد النبي



رواية

المرأة الحجرية

خماسية الإسلام (٣)



The Stone Woman
© Tariq Ali 2000

المرأة الحجرية
خماسية الإسلام (٣)

رواية

الطبعة الأولى : ٢٠١٦

رقم الإيداع : ٢٧٧٦٩ / ٢٠١٥

التقييم الدولي : ٣ - ٠١٤ - ٨٠٣ - ٩٧٧ - ٩٧٨

الفلاف : حاتم سليمان

جميع الحقوق محفوظة

الكتب خان للنشر والتوزيع ®

١٣ شارع ٢٥٤ - دجلة - المعادي - القاهرة .

تليفون : +٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨ - +٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩

بريد إلكتروني : info@kotobkhan.com

موقع إلكتروني : www.kotobkhan.com

يُمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب، بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية، ويشمل ذلك التصوير الفوتوغرافي، والتسجيل على أشرطة أو أقراص مضغوطة، أو استخدام أي وسيلة نشر أخرى، بما في ذلك حفظ المعلومات واسترجاعها، دون إذن خطي من الناشر.

Arabic Language Translation Copy Right ® 2016 Al Kotob Khan for Publishing & Distribution The Moral Rights of the author have been asserted. All rights reserved.



طارق علي

المرأة الحجرية

حماسية الإسلام (٣)

رواية

ترجمة محمد عبد النبي



فهرسه أثناء النشر

الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية المصرية

علي، طارق

المرأة الحجرية : رواية / طارق علي، ترجمة محمد عبد النبي . - القاهرة :
الكتب خان للنشر والتوزيع، ٢٠١٦

٣٦٨ ص ، ٢٠ سم

تدمك : ٣ - ٠١٤ - ٨٠٣ - ٩٧٧ - ٩٧٨

١ - القصص

أ - محمد عبد النبي

ب - العنوان

رقم الإيداع : ٢٧٧٦٩

الطبعة الأولى ٢٠١٦

إلى

سوزان واتكينز

التي طالما ساندتني بالمحبة والرفقة
عبر الأوقات الحلوة والمرّة
خلال العشرين عاماً الماضية

(١)

صيف ١٨٩٩؛ نيلوفر ترجع إلى البيت بعد الغياب المفروض
عليها؛ منى يوسف باشا؛ وإسكندر باشا يُصاب بحلطة

الأساطير تهزمُ الحقائقَ دائماً في تاريخ كل عائلة. سألتُ أبي منذ
عشرة أيامَ عما حداً بسُلطان إسطنبول لأن يجردَ سلفنا العظيم، يوسف
باشا، من منصبه وأن ينفيه، قبل نحو مائتي عام. كان ابني أوردغان، الذي
طرحْتُ هذا السؤالَ بناءً على طلبه، جالساً بجانبني في خجل، يختلسُ نظرة
عابرة نحو جده، الذي لم يكن قد رآه قبل ذلك قط.

ما إن يصلُ المرءُ إلى هنا بعد غياب طويل، عبر الطرق المتعرجة والتلال
الخضراء، فإن مزيج الروائح سرعان ما يهيمنُ عليه ويصيرُ من العسير ألا
يُفكرَ في يوسف باشا. هذا هو قصر منقاه، الذي استحوذ عليّ دائماً بجماله
الهش الخالد. حين كنا أطفالاً، غالباً ما كنا نساغر من إسطنبول في الحرارة
المغبرة الخائقة لشمس الصيف، غير أن مرأى البحر كان يرطبُ أرواحنا،
قبل وقت طويل من إحساسنا بنسيمه اللطيف على جلودنا. كنا نعلم عندئذٍ
أن رحلتنا أو شكت أن تنتهي.

كان يوسف باشا هو من طلب إلى المهندس المعماري أن يعثر على بقعة قصية، ليست شديدة النأي عن إسطنبول مع هذا. أراد للمنزل أن يُبنى على حافة العزلة، لكن دون أن يتعدّر بلوغه على أصدقائه. لقد عكسَ موقع المبنى صورة العقاب الذي نزل به مثل مرآة، كان شديد القرب من مضمار انتصاراته في المدينة القديمة وبعيداً عنه في الحين ذاته. كان ذلك امتيازاً الوحيد بين الشروط التي فرضها عليه السلطان.

كان هيكل المنزل فخماً كالقصور. عُقدت بعض المقارنات، غير أن المنزل في جوهره كان إشارة تحذّر، رسالة من يوسف باشا إلى السلطان: ربما يكون قد تم إبعادي عن عاصمة الإمبراطورية، لكن أسلوب معيشتي لن يتبدّل أبداً. وحين كان أصدقاؤه يأتون للإقامة هنا، كانت أصدقاء ضحيجهم وضحكهم تتردد في القصر الكبير بإسطنبول.

زُرِعَ جيشٌ من أشجار المشمش والجوز واللوز لحماية منفاه وحفظ المنزل من العواصف المرافقة لحدوث الشتاء. وقد لعبنا في ظلالها كل صيف، بقدر ما يمكنني استعادة أبعاد الذكريات؛ لعبنا وضحكنا وتبادلنا الشتائم ودفعنا بعضنا بعضاً للصياح، على نحو ما يفعل الأطفال غالباً كلما أمنوا الرقيب. كان البستان الممتد وراء المنزل لنا ملجأً وملاذاً، تتأكد سكينته كلما اشتدّ هياج البحر في البعيد. كنا نأتي إلى هنا لنسترخي ونتنفس في أول الصباح هواءه المسكر بعد ليلتنا الأولى في المنزل. وقد استبدلنا بسام إسطنبول سحرَ منزل يوسف باشا. المرّة الأولى التي أتيتُ فيها إلى هنا لم أكن قد بلغتُ ثلاثة سنوات بعد، ومع ذلك أتذكر ذلك اليوم بوضوح تام. كانت السماء تمطر واستأثرتُ للغاية لأن الأمطار كانت تُبلل البحر.

ثم هناك ذكريات أخرى . ذكرياتُ الشغف . ذكريات الكرب . لوعة اللحظات المختلطة ومتعتها في مواعيد آخر الليل . رحيق العشب في بستان البرتقال ليلاً، ذلك الذي طمأن الفؤاد . هنا تبادلتُ قُبلي الأولى مع والد أورهان ، "مفتش المدرسة اليوناني ، ذلك القبيح النحيل ديميتري الآتي من قونية " ، كما كانت أمي تشيرُ إليه ، بينما يجمدُ عينيها تعبيرُ قسوة وصرامة . أن يكون يونانياً فذلك سيءٌ بما فيه الكفاية بالنسبة لها ، لكن ما زاد الأمر سوءاً عمله كمفتش في مدارس الريف . تلك التركيبة هي ما أقلقته . ما كانت لتهم بالمرّة لو أن ديميتري ينتمي إلى الفنريين⁽¹⁾ ، سليل إحدى العائلات اليونانية الراقية التي تسكن حي الفنار في القسطنطينية القديمة . كيف لابنتها الوحيد أن تجلب ذلك العار على منزل إسكندر باشا؟

لم يكن موقفها هذا أصيلاً في طبيعتها ، فما اكرثت يوماً بأشجار نسب العائلات . الأمر ببساطة أنها عقدت عزمها على خطيب آخر لي . كانت ترغب في تزويجي للابن الأكبر لعمها سفره . كنتُ موعودةً له ما إن تفتحتُ عيناى على الدنيا . وهكذا انفجرتُ أمي ، أعذب وألطف امرأة بين النساء ، في نوبة سخط وإحباط ، أمام رغبتى في الزواج من نكرة .

كانت زينب ، أختي لأبي والمتزوجة ، هي من أخبرتها بأن ابن عمها ، ذلك الذي اختارته لي ، غير منجذب إلى النساء بالمرّة ، ولا حتى كوسائل للتناسل . وراحت زينب تزرکش لها حكايات ، وقد تلوثت لغتها بما كانت تصفه من فجور وأحسّت أمي بأن الوصف المفصّل لم يكن لائقاً بأذنيّ عذراء مثلي . كانت قد رسمتُ ذلك القريب المسكين بتلك الألوان الشهوانية الكامدة فأمرتُ أن أغادر الغرفة .

في وقت تال من ذلك اليوم ذاته تفجعت أُمي بمرارة وهي تقبلني وتضمنني إليها. نجحت زينب في إقناعها بأن ابن عمها المسكين ليس إلا وحشاً ضارياً وكانت أُمي تبكي مؤنبةً لنفسها وهي تتخيل كيف كان من الممكن أن ترغم بنتها الوحيدة على الزواج من حيوان منحرف، فتصير سبياً مباشراً لتعاستي طول عمري. ساحتها طبعاً وأخذنا نتحدث ضاحكات على ما كان يمكن أن يقع. لستُ متأكدة إن كانت أُمي قد اكتشفت على الإطلاق أن زينب قد لفقت الحكاية كلها. عندما مرض ابن عمها المفترى عليه في أثناء موجة تيفود وسرعان ما قضى نحبه عقب ذلك، ارتأت زينب أنه من الأفضل إخفاء الحقيقة عن أُمي. كان لذلك عاقبة واحدة سيئة. ففي جنازة ابن عمها في مدينة سميرنا تعذرت أُمي إبداء أي أمارات حزن، ما أثار قلق العم سفره، وحين أرغمت نفسي على اعتصار دمعات معدودات نظرت إليّ في دهشة ذاهلة.

ذلك كله ينتمي إلى الماضي، فالحقيقة الأهم بالنسبة لي هي أنني عدتُ من جديد بعد تسع سنوات من المنفى. صفح أبي عن هروبي. أراد أن يرى ابني. وأردتُ أن أرى المرأة الحجرية. خلال طفولتي عثرتُ أنا وأختي على أماكن اختباء وسط الكهوف بالقرب من صخرة عتيقة لا بدّ أنها كانت ذات يوم تمثالاً لإلهة وثنية، أطلت على بساتين اللوز خلف منزلنا، وحين كنا ننظر إليها من بعيد، كانت تبدو أقرب ما يكون إلى امرأة. كانت تشرفُ على التلة الصغيرة التي تنتصب فوقها، محاطة بالأطلال والصخور. لم تكن أفرودايت ولا أثينا، فقد كنا نعرف هاتين. أمّا هذه فقد حملت آثار شرٍ غامض، شرٍ لا يصيرُ مرئياً إلا عند غروب الشمس. كان وجهها خفياً.

ربما، كما قالت زينب، كانت إلهة محلية، نُسبت منذ أمد بعيد. وربما كان النحات على عجلة من أمره. ربما كان المسيحيون يتقدمون فأجبرته الظروف على تغيير رأيه. وربما لم تكن إلهة بالمرّة، بل أول صورة منقوشة لمريم، أم يسوع. لم نستطع قط الاتفاق على هوية لها، وهكذا صارت المرأة الحجرية. ونحن أطفال، اعتدنا على أن نوليها ثقتنا، وأن نطرح عليها أسئلتنا الحميمة، ثم نتخيل إجاباتها.

اكتشفنا ذات يوم أن أمهاتنا وخالاتنا والخادמות يفعلن كما نفعل. صرنا نختبي وراء الصخور لنسترق السمع إلى حكاياتهن الرهيبة. كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لنطلع على خفايا الأمور في المنزل الكبير. صارت المرأة الحجرية مستودع كل ألم مخفي. الأسرار أشياء فظيعة، حتى حينما يكون لا بدّ منها، تبدأ في أكل الروح كالعثة. ومن الأفضل دائماً الإفضاء بها، وأتاحت المرأة الحجرية لكل نساء هذا المنزل أن يضعن عنهن ثقل أسرارهن فيعيشن حياةً داخلية مُعافاة.

"أمي"، همس لي أورهان وهو يقبض ذراعي بشدة، "ألن يحكي لي جدي أبداً عن سبب بناء هذا القصر؟"

لحكاية يوسف باشا نسخٌ عديدة في عائلتنا، يتسم بعضها بالعدوانية نحو جدنا الكبير، غير أن تلك النسخ المعادية لم تكن في الغالب سوى ذخيرة أعمام وعمات أبي الذين حرمهم فرغُ عائلتنا من ميراثهم. كنا جميعاً نعلم أن يوسف باشا كتب قصائد في الغزل الفاحش، أحرقت جميعاً خلا بضعة أبيات انتقلت شفويّاً من جيلٍ إلى التالي. لماذا أحرقت ذلك الشعر؟ ومن فعلَ هذا؟

كنتُ أطرح هذا السؤال على أبي، مرةً كل عام على الأقل، قبل منفاي. كان يتسم ويتجاهل سُؤالي تمامًا. ظننتُ أن أبي ربما يستحي من خوض هذا الأمر مع أحد أطفاله، وخصوصاً ابنة. لكن ليس في هذه المرة. قد يكون السبب هو وجود أورهان. كانت هذه هي أول مرة يرى فيها أورهان. ربما أراد أبي أن يمرر الحكاية لذكر من الجيل الأصغر. وربما كل ما هنالك أنه يشعر باسترخاء. فيما بعد فقط سأدرك أنه لا بدّ قد أحس بنذيرٍ مسبق ينبئه بالكارثة التي توشك أن تحل به.

كان وقت العصر قد تقدّم وما زال الجو دافئاً. الشمس في طريقها نحو الغرب. تلونت أشعتها بذهبي قرمزي، وغمرت كل جوانب الحديقة بالسحر. لم يبدّل الصيف أيّاً من عاداته في هذا المنزل العتيق. أشجار الماجنوليا تلمع أوراقها الكبيرة في الأشعة المحتضرة للشمس. وقد استيقظ أبي لتوه من قيلولته المنعشة، مسترخي الوجه. كلما تقدم به العمر صار مفعول النوم عليه مثل ترياق شاف. بدا وكأن الخطوط المرتمسة على جبهته قد تبخرت. وإذ رنوتُ إليه أدركتُ إلى أي حد قد افتقدته خلال تلك الأعوام التسعة الماضية. قبلتُ يده وكررتُ سُؤالي. تبسّم، لكنه لم يجب في الحال.

انتظر.

أنا أيضاً انتظرت، مستعيدةً طقوس ساعة الأصيل من شهور الصيف. ودون أن ينطق بكلمة، تناول أبي يد أورهان وقرب الصبي إليه. أخذ يمسد رأس الولد. كان أورهان يعرف جده من صورة فوتوغرافية باهتة أخذتها معي واحتفظتُ بها بجانب فراشي. وبينما كان يكبر كنتُ أحكي له حكاياتٍ عن طفولتي والبيت القديم المطل على البحر.

وعندئذ ظهر العجوز بتروشيان، القهرمان الأعلى لمنزلنا، والذي كان في خدمة أسرّتنا منذ يوم ميلاده. يتبعه صبيٌ صغيرٌ حاملاً صينية، لا يكبرُ أورهان إلا قليلاً. قدّم العجوز بتروشيان القهوة لأبي بالطقوس ذاتها تماماً التي اتبعها على مدى ثلاثين عاماً مضت أو أكثر، والتي اتبعها على الأغلب والد بتروشيان مع جدي لأبي لسنوات أكثر وأبعد. لا تتبدل طقوسه. تجاهلني تماماً في حضرة أبي، كما اعتاد أن يفعل. حين كنتُ فتاة صغيرة كان هذا يزعجني كثيراً. فكنتُ أخرج له لساني أو أبدي إيماءة وقحة، دون أن يستطيع أي شيء أفعله الإخلال بأسلوب ما يؤديه. حين كبرتُ تعلمتُ ألا أكثرث بوجوده. ما عاد مرثياً بالنسبة لي. هل ابتسم اليوم أم أنني تخيلتُ هذا؟ بل ابتسم، ولكن تقديراً لوجود أورهان. ذكر جديد دخل حياة الأسرة ولذلك كان بتروشيان سعيداً. بعد أن تساءل بإيماءة احترام من رأسه إن كان أبي بحاجة إلى أي شيء آخر، تلقى الجواب بالنفي، غادرنا بتروشيان وحفيده الذي يدربه لكي يحل محله في منزل أسرّتنا. لم يقل أحدنا شيئاً لوهلة. كنتُ قد نسيتُ سكينة هذا المكان وبأي سرعة يُهدى حواسي.

"تسألين لماذا تم إرسال يوسف باشا إلى هنا قبل مائتي عام؟"

أومأتُ في لهفة، عاجزة عن التحكم في انفعالي. الآن وقد صرتُ أمّاً لطفلين، أعتبر ناضجة بما يكفي لتلقي النسخة المعتمدة من الحكاية.

شرح أبي يتكلم بنبرة تتسم بالألفة والسلطة معاً، كما لو أن الحوادث التي يصفها لم تجر إلا منذ أسبوع واحد في وجوده هنا، وليس قبل مائتي عام، في قصر على ضفاف البوسفور في إسطنبول. لكنه تجنب نظرتي المحدقة تماماً وهو يتحدث. ظلت عيناه ثابتتين على وجه الصغير أورهان،

مراقباً استجابة الطفل . ربما كان أبي يستعيد طفولته هو نفسه ، وكيف سمع القصة للمرة الأولى . كان أورهان مفتوناً بجده ، لمعت عيناه بالتسلية والترقب بينما يتلون صوت أبي بالنبرات العريضة والمبالغ فيها كأنه حكاء قروي .

(كما جرت عادته ، أرسل السلطان في طلب يوسف باشا في المساء . وصل جدنا الكبير وقدّم المنهات . كان قد نشأ وكبر مع السلطان ، يعرف كلُّ منهما الآخر خير معرفة . وضعت خادمة كأس نبيذ أمامه . طلب السلطان من صديقه أن يتلو قصيدة جديدة . كان يوسف باشا في مزاج غريب ذلك اليوم . لا أحد يعلم السبب . كان من بين خاصّة السلطان المحنكين ، وفي المعتاد كان يعتبر أي مطلب من سلطانه أمراً مُنزلاً من السماء . وإذا شاء فإن سرعة بديهته تتيح له أن يبدع رباعيةً ويتلوها في لحظة . ولكن ليس في ذلك المساء . لا أحد يعلم السبب . ربما أُستدعي من فراش حبيبة فذهبَ ساخطاً . وربما أنه سئم بكل بساطة كونه أحد بطانة السلطان . وربما كان يعاني عسر هضمٍ شديد . لا أحد يعلم السبب .

حين لاحظ السلطان أن صاحبه ظلَّ صامتاً ، ساوره قلقٌ صادقٌ نحوه ، فسأل عن صحته ، وعرضَ استدعاء طبيبه الخاص . شكره يوسف باشا ، لكنه رفض العرض . جال يبصره فلم يرَ إلا الجوارى والخصيان . لم يكن هذا بالشيء الجديد ، لكن في ذلك اليوم خصوصاً أزعج هذا جدنا . لا أحد يعلم السبب . بعد صمتٍ طويل ، طلب من السلطان الإذن بأن يتكلم فسمح له .

"أيها الحاكم العظيم ، منبع كل حكمة ، يا سلطان العالم المتحضر وخليفة المسلمين ، خادمك هذا يرجو غفرانك . لقد هجرني شيطانُ الشعر

متقلّب الأحوال ، فلم يدخل إلى هذا الرأس بيتٌ واحد اليوم . وإذا أذنتَ لي ، فسأكون الليلة حكّاءً ، لكنني أرجو من جلالتكُم أن تصغي بانتباه ، لأن ما سأقوله هو الحق ولا شيء إلا الحق . "

الآن ثار بداخل السلطان فضولٌ حقيقي ومال البلاط الملكي بكامله إلى الأمام للإنصات إلى كلمات يوسف باشا .

" قبل ميلاد نبي المسيحيين عيسى بمئتين وثمان وثلاثين سنة ، كانت هناك امبراطورية شديدة البأس في بلاد فارس . استوى على عرشها ملكٌ عظيم كان يدعى قورُش . في ذلك العام الميمون تم تنصيب قورُش ملك الملوك في بابل ، المنطقة ذاتها التي يحكمها الآن سلطاننا ذو العظمة والحكمة ، كانت الإمبراطورية الفارسية في ذلك الحين تبدو منيعاً لا تُقهر . هيمنت على العالم كله ، وكان تساعها موضع الإعجاب ، فقد تقبل الفارسيون كل مؤمن بكل ملّة ، احترموا كل التقاليد ، وتكيفوا مع أنظمة الحكم المختلفة في أقاليمهم الجديدة . بدا كل شيء على خير ما يرام . ازدهرت الإمبراطورية ، وتعاملت مع أعدائها مثل شخصٍ يسحق برغوثاً .

" بعد مرور مائتي عام صار ورثة قورُش رهائن بين أيدي الخصبان والنساء . حكّام ولايات الإمبراطورية أسقطوا الولاء ، وغرق رجال الدولة في الفساد والغلظة والوهن . ثروات بلاد ما بين النهرين الهائلة هي ما أنقذت الإمبراطورية من الانهيار ، ولكن كلما تأخر ذلك الانهيار زادت وطأته الساحقة حين حلّ في نهاية الأمر . وهكذا ظهر اليونانيون ليسيطوا نفوذهم . انتشرت لغتهم . وهكذا وقبل أن يُولد الإسكندر بزمان طويل كان مسار فتوحاته ممهداً بالفعل .

"ثم في أحد الأعوام، ودون أي إنذار، أقدم عشرة آلاف جندي يوناني على ذبح قائدهم الفارسي، وسجنوا ضباطهم وزحفوا من المدينة التي تعرف الآن باسم بغداد إلى الأناضول. لم يعترض طريقهم شيء. وسرعان ما أدرك الناس أنه إذا كان بوسع عشرة آلاف جندي فقط فعل هذا، فلا ضرورة إذن للحكام والقادة...".

لم يكن يوسف باشا قد أتم حكايته بعد، غير أن رؤيته وجه السلطان قطعت عليه استرساله. نزل عليه الصمت ولم يجرؤ على النظر في عيني مولاه. استولت على السلطان نوبة غضب، فنهض واقفاً وغادر القاعة مثل عاصفة. خشي يوسف باشا وقوع أسوأ الاحتمالات. كل ما كان في نيته أن يحذر صديق شبابه من الخمول ومُتَع الحواس ومن نفوذ الخُضَيان الخائق. تمنى لو أحاط مولاه علماً بالقانون الأبدي، الذي يعلمنا أنه ما من شيء يدوم إلى الأبد. بدلاً من هذا فقد اعتبر السلطان القصة إشارة شؤم إلى السلالة العثمانية، إشارة إلى ذاته. لو صدر هذا عن أي إنسان آخر لكان مصيره الموت، ولكن لعلّ ذكريات الطفولة المشتركة رجّحت كفة الرحمة. عوقب يوسف باشا بأهون عقاب ممكن، وتم نفيه عن إسطنبول، إلى الأبد. لم يرغب السلطان أن تجمعهما مدينة واحدة. وهكذا أتى هنا مع أسرته، إلى هذا القفر المهجور المحاط بصخور عتيقة وقرر أن يبني فيه قصر منقاه. اشتاق طويلاً إلى المدينة القديمة، لكن لم يرَ البوسفور مرةً أخرى قط.

يقولون إن السلطان، هو أيضاً، افتقد صحبته وكثيراً ما حنّ إلى وجوده، غير أن حاشيته، ممن كانوا يغارون دائماً من تأثير يوسف باشا،

حرصوا على ألا يرى الصديقان بعضهما بعضاً من جديد بالمرة. تلك هي كل الحكاية. هل رضيت يا يمامتي الصغيرة؟ وأنت، يا أورهان، هل ستذكر ما قلته وتعيده على أطفالك ذات يوم، بعد أن أكون قد مت ورحلت؟

ابتسم أورهان وأوماً برأسه. حرصتُ ألا يرتسم أي تعبير على وجهي. أعرف أن أبي لم يقل إلا أنصاف حقائق. سمعتُ قصصاً أخرى عن يوسف باشا من عمات وأعمام ينتمون إلى فرع آخر من أسرتنا، أبناء أحد الأعمام الكبار الذي كان أبي ينفرُ منه، ولم يجد أبناؤه تشجيعاً منه على زيارتنا هنا أو في إسطنبول بالمرة.

كانوا يروون حكايات أكثر إثارة بمراحل، وأشد واقعية وأقدر على الإقناع إلى أبعد حد. تحدثوا كيف وقع يوسف باشا في غرام العبد الأبيض المفضل لدى السلطان، وكيف ضُبطا يتضاجعان. أعدم العبد على الفور وألقوا بعضوه التناسلي لتأكله الكلاب خارج المطبخ الملكي. ووفقاً لهذه النسخة، فقد جُلدَ يوسف باشا وأُرسل بعيداً ليعيش منبوذاً بقية حياته مُجلاًلاً بالعار. ربما كانت نسخة أبي صحيحة أيضاً، وربما لا توجد رواية واحدة يمكنها تفسير سر سقوط سلفنا من النعماء. أو ربما لا أحد يعلم السبب الحقيقي وكل النسخ الموجودة كانت تلفيقاً.

ربما.

لم تكن بي رغبة في الإساءة إلى أبي بعد مثل هذا الغياب الطويل، فامتنعتُ عن طرح أية أسئلة أخرى عليه. لقد تسببتُ له في قدر كبير من العناء قبل كل تلك السنين بوقوعي في حب مفتش مدرسة زائر، وهربي معه ثم زواجي منه، والحمل بأطفاله، وتقدير شعره الذي أدركُ الآن أنه كان

رديتاً للغاية، لكنّه بدأ حينذاك من أبدع ما يمكن. لطالما كان الشعر، ويا للأسف، هو صنعة ديمتري الحقيقية، لكن كان عليه أن يكسب عيشه. لذلك بدأ التدريس. بهذه الطريقة استطاع أن يكسب بعض المال وأن يعول أمه. مات والده في البوسنة، وهو يقاتل لصالح امبراطوريتنا. كان صوته اللين الذي يردد به قصائده أول ما مسّ قلبي.

جرى ذلك كله في قونية، حيث كنتُ أقيم لدى أسرة أعز صديقاتي. أخذتني لتفرجني على مباحج قونية. شاهدنا أضرحة الملوك السلاجقة القدامى واختلسنا النظر بداخل التكايا الصوفية. هنا التقيتُ بديمتري أول مرة. كنتُ في السابعة عشرة حينها وكان هو في الثلاثين تقريباً.

أردتُ أن أهرب من الهواء الخانق في منزلنا. وبدا كأن ديمتري وشعره سبيلي إلى السعادة. وأصبحتُ سعيدةً لفترة، دون أن يكون ذلك كافياً أبداً ليخفي ما شعرتُ به من ألم لإقصائي عن بيت أسرتي. لم أفتقد أي شيء أكثر من افتقادي فصول الصيف هنا، في هذا المنزل المطل على البحر.

لقد أردتُ أن أغادر المنزل، لكن بإرادتي الحرة. كان قرار أبي بإعلانني عاصية طريفة مثل عاصفة حقيقية. كرهته في ذلك الحين، كرهتُ ضيق أفقه، وأسلوب معاملته لشقيقي وخصوصاً خليل، الذي رفض الخضوع والإذعان لأنه كان جواداً حروناً. كان أبي يجلدّه أحياناً أمام الأسرة بكاملها. عند ذلك كنتُ أكره أبي إلى أقصى حد. غير أن روح خليل لم تنكسر. رأى أبي خليل شاباً خاملاً وفوضوياً لا يعرف الاحترام، ونتيجةً لذلك انتابه الذهول حين تطوَّع خليل في الجيش، ونظراً لتاريخ عائلته سرعان ما ترقى وكلف بواجبات في القصر.

ارتاب إسكندر باشا في حقيقة دوافع ابنه، ولم يكن بجانب الصواب كثيراً في هذه النقطة. كان يمكن لأبي علي الدوام أن يكون غاية في الكياسة والأناقة بداخل الصالونات الباريسية حيث خدم سفيراً للباب العالي في الجمهورية الفرنسية على مدى سنوات عديدة. ذلك ما أخبرنا به أخي الأكبر، سلمان، الذي كان مسموحاً له أن يرافقه، وتلقى تعليمه العالي في الأكاديمية في باريس، ما جعل منه عاشقاً لكل شيء ينتمي إلى فرنسا، عدا رجالها.

كانت معنوياتنا تحلق كلما عاد والدي إلى إسطنبول بقطع جديدة من الأثاث والأقمشة ولوحات نسوة عاريات لزينة جناح من المنزل على الطراز الغربي، وعطور من أجل زوجاته. كان خليل يهمس: "ربما صار متمدناً هذه المرة." وكنا نضحك جميعاً في تشوّف هائل. ربما نقيم حفلاً راقصاً عشية رأس السنة في منزلنا. فنرتدي ثياب السهرة ونرقص ونشرب الشمبانيا، تماماً كما كان أبي وأخي سلمان يفعلان في باريس وبرلين. أحلام عقيمة. الحياة لم تتغير قط. فقد كان أبي، لدى رجوعه إلى الوسط المألوف لمدينته وبلده، يرتد إلى مسلك وتكلف كل أرستقراطي تركي أصيل.

كانت هذه هي المرة الأولى منذ هروبي وزواجي التي أدعى فيها للرجوع إلى المنزل الصيفي القديم، ولكن فقط بصحبة أورهان. بقي ديمتري وصغيرتي المعشوقة أمينة في البيت. ربما في العام التالي يأتيان، هكذا قالت أمي مستبشرة. وربما لن يأتيا أبداً، صحت في غضب. زارتني أمي ثلاث مرات، ولكن سرّاً على الدوام، جالبة معها ثياباً للصغيرين ونقوداً لي. لعبت دور وسيط الخير، وببطء، تم إصلاح العلاقات مع أبي. بدأنا

نتواصل . بعد عامين من تبادل الرسائل المهذبة والرسمية إلى حد لا يُطاق ، طلب مني أن أحضر أورهان إلى المنزل الصيفي . أنا سعيدة لأنني وافقت . أوشكتُ أن أرفض مطلبه . أردتُ أن أصرّ على أنني لن أراه إلا إذا أحضرت معي ابنتي أيضاً ، غير أن زوجي ديمتري أقنعني بأن تلك حماقة وعناد فارغ . والآن أنا سعيدة لأنني لم أدع الكبرياء تقطع عليّ الطريق . لو أنني كنتُ اعتذرتُ عما أبدتُ من تحدّ وعرضتُ ندمي تحت قدميه لنتُ غفرانه منذ وقت طويل . فعلى عكس الانطباع الذي قد أكون خلقتة عنه ، لم يكن إسكندر باشا رجلاً قاسياً أو محبباً للعقاب . لم يكن إلاّ صنيعه زمانه ، صارماً وتقليدياً في تربيته لنا .

في تلك الليلة الأولى ، وحين كان أورهان نائماً ، غادرتُ المنزل وسرتُ عبر البساتين ، الرائحة الأليفة للزعر وشجرة الفلفل أحييت ذكريات قديمة كثيرة . كانت المرأة الحجرية لا تزال هناك ووجدتُ نفسي أ همس لها .

"أنا عدتُ ، يا امرأة يا حجرية . عدتُ ومعني ولد صغير . أوحشتني ، يا امرأة يا حجرية . كان هناك أمور كثيرة لا يمكنني أن أطلع زوجي عليها . تسع سنوات فترة طويلة لتمر دون أن تبوح الواحدة بأشواق قلبها ."

بعد أن حكى أبي لأورهان حكاية يوسف باشا بثلاثة أيام أصابته جلطة . كان باب غرفة نومه موارباً . النافذة المؤدية إلى الشرفة مشرعة تماماً ونسمة عذبة حملت معها رائحة الليمون الحلوة . دائماً تذهب أُمي إلى غرفته في الصباح لتفتح نوافذها ليستنشق هواء البحر . دخلتُ إلى الغرفة في ذلك الصباح فوجدته يتنفس بطريقة غريبة ، راقداً على جنبه . أدارت جسمه . كان وجهه أبكم وشاحباً ، وعيناه شاخصتين إلى البعيد فعرفتُ بغريزتها

أنهما تفتشان عن شيء ما خارج هذه الحياة. انتابته قشعريرة الموت، ولم يرغب في أن يمتد به الأجل أكثر من هذا.

كان مشلولاً، عاجزاً عن تحريك ساقيه، وغير قادر على التكلم، وإذا ما أنبأت عيناه بشيء، فقد كان يدعو الله في كل دقيقة وعي تمر به أن ينهي وجوده في هذا الدنيا. لم يستجب الله لتضرعه، وبدأ إسكندر باشا يتعافى ببطء، ببطء بالغ. استردت ساقاه الحياة. وبمعاونة بتروشيان بدأ يسير من جديد، لكن قدرته على الحديث غادرتَه إلى الأبد. لن نسمع صوته مرة أخرى أبداً. وصارت مطالبه وأوامره تُكتب من الآن فصاعداً على قُصاصات ورقية وتُجلب إلينا على صينية فضية صغيرة.

وهكذا صار من المعتاد كل يوم، وبعد تناول وجبة المساء، أن يجتمع بعضٌ منا في الغرفة القديمة ذات الشُرْفَة المطلّة على البحر. وما إن يتخذ الجميع مجلسهم حتى يرتشف أبي بعض الشاي من ركن فمه - تركت الجلطة أثراً قاسياً على وجهه - وبينما كان حفيد بتروشيان، أكين، يمسّد قدميه تمسيداً ليناً، كان يضطجع في مجلسه ويصر على أن يُحكى له حكايات.

لم يكن من اليسير قط الاسترخاء في حضرة أبي. كان على الدوام رجلاً صعب الإرضاء. لا يتسامح بالمرّة مع أهون انتقاد قد يوجّه ضدّ تديره للأمور، في الماضي أو الحاضر، كان دائماً يجد العيب في الآخرين.

كان أخوأي، وأختي، والذين تم استدعاؤهم إلى جانبه من أركان مختلفة للامبراطورية، مقتنعين أن محتته ستجعله أكثر تسامحاً. كنتُ واثقة أنهم مخطئون.

(٢)

العائلة بدأ يلتم شملها؛ البارون يصل في مشهد فخم؛
كآبة سلمان.

كنتُ راقدةً في الفراش بغرفة مظلمة، تغطي وجهي وجبيني كمادة باردة. أستريح لأخفف وطأة صداع بليد يأبى أن يفارقني. كان ذلك هو اليوم الذي وصل فيه سلمان وخلييل لرؤية أئبنا فاقد النطق. لم أكن على الشرفة الكبيرة مع بقية الأسرة وجميع الخدم لكي أراهما يترجلان عن عربتنا القديمة التي أقلتهم من إسطنبول، وقد أحاط بكل جانب لها ستة فرسان على متون خيولهم. أخبرتني أمي فيما بعد كيف صدم كلاً الرجلين لدى رؤية أبي جالساً بلا حراك على مقعد كبير. ركعا على جانبيه وقبلاً يديه. كان خليل، في زيه الرسمي برتبة ميرلوا^(١)، هو من أدرك أولاً أن ذلك الصمت يمكنه بسهولة أن يجثم مستبدًا.

"يسرني أنك ما زلت حياً ترزق يا أبتى. لن أجد لي عوناً إلا الله لو قدر أن يجعلنا يتامى، فأخي المتوحش هذا سوف يأمر بتروشيان أن يشنقني بجبلٍ من حرير."

كانت الفكرة ساحرة للغاية بحيث بدت ابتسامة على وجه العجوز، وهي إشارة لينطلق الجمع بكامله في ضحك عالي الصوت، انتزعني من رقادي فجأة. تبخر الصداق ووثبت خارج الفراش، بللتُ وجهي سريعاً وهرعتُ أنزل الدرج لأسلم عليهما. لدى وصولي رأيتُ خليل يأخذ أورهان بين ذراعيه. دغدغ عنق الولد بشاربه وطوّحه عاليًا في الهواء، وإذا يهبط عائداً إليه من جديد يحتضنه في حنان. ثم قدّم أورهان لخاله الذي لم يسبق له أن رآه. تطلّع أورهان نحو الخال الجديد بابتسامة خجول ومسّد سلمان في حرج على رأس الصبي.

لم أكن قد رأيتُ سلمان لما يقارب الخمسة عشرة عاماً. غادر المنزل حين كنتُ في الثالثة عشر من عمري. أتذكره طويلًا ونحيلًا، ذا شعر ثقيل أسود وصوت عميق شجي. جفلتُ عندما لمحتُه أول الأمر ظلاً معتماً على الشرفة. وللحظة حسبته والدي. لقد شاخ سلمان. لم يبلغ الخمسين بعد، ولكن شعره صار رمادياً وخفيفاً. بدا كأنه أقصر مما كان حين رأيتُه آخر مرة. صار جسده ضخماً، واكتسى وجهه لحمًا زائداً، وفي مشيته انحناءة خفيفة، وعيناه كلهما حزن. يا لمصر القاسية، لماذا دفعته إلى الشيخوخة هكذا؟ تعانقنا وتبادلنا القبلات. كان صوته نائياً.

"والآن صرتُ أمًّا يا نيلوفر."

كانت تلك الكلمات هي كل ما قاله لي في ذلك اليوم. أوحى نبرته بالاندهاش، كما لو أن جلبَ أطفال إلى هذا العالم أصبح بطريقة ما بدعة غير مسبوقه. لسبب ما أغاظتني ملاحظة سلمان ونبرته. لستُ واثقةٌ لمَ كان ذلك، ولكنني أذكر شعوري بغضبٍ حين. ربما لأنه أوحى برفضه لأن يراني

أمًا ناضجة ومعاملتي على هذا الأساس . كنتُ ما أزال طفلة في عينيه . وقبل أن أستطيع التوصل إلى ردٍ باتر ملائم ، قاده بتروشيان بعيداً إلى لقاء خاص مع أبينا .

ثم أتى دور خليل . لم يقطع صلته بنا قط واهتمَّ بأن يتواصل بانتظام مع والد أورهان . كان عوناً عظيماً لنا في أوقات الشدة ، حريصاً علينا بحيث لا يعوزنا ما يليق من غذاء وكساء بعد أن تم حرمان ديمتري وأغلب اليونانيين في قونية من أسباب رزقهم عقاباً لهم . آخر مرة رأيتُ خليل حين جاءنا دون إخطار ذات أصيل جميل من الربيع في قونية . كان أورهان ابن ثلاثة أعوام حينذاك ، ولكنه لم ينسَ خاله قط ، أو بالأحرى شاربته ، الذي ضايقه دائماً . نظرتُ إلى خليل . كان وسيماً كحاله طوال الوقت والزي الرسمي سيأكل من جسمه قطعة . كثيراً ما تساءلتُ كيف استطاع أكثرُ فردٍ في أسرتنا عفرته أن يتقبل حالة الضبط والربط في الجيش . بينما يعانقني همس لي :

" أنا سعيد لأنك أتيت . هل حكى لأورهان حكاية؟ "

أومأتُ .

" يوسف باشا؟ "

" ومن سواه؟ "

" أي نسخة؟ "

ضحكت .

بينما نوشك أن نتبع بقية العائلة إلى داخل المنزل ، لاحظ خليل غباراً متصاعداً على الطريق البعيد المؤدي إلى منزلنا . لا بدَّ أنها عربية أخرى ،

ولكن مَنْ تُقل؟ عُرِف إسكندر باشا بين فروع عائلته بعادته غير الاجتماعية ومزاجه السيء. نتيجةً لذلك، لم يكن يجرؤ إلا القليلون على الحضور إلى منزلنا في إسطنبول بغير دعوة ولا أستطيع أن أذكر أي شخص قد جاء إلى هنا على الإطلاق. كان الكرم التقليدي غريباً على أبي حين يتعلق بالفروع الممتدة لعائلتنا. كان عدوانياً على وجه الخصوص تجاه أبناء أعمامه المباشرين وذريتهم، ولكنه كان قادراً على أن ينأى بنفسه حتى عن أشقائه. بسبب هذا كله فإن أي زوّار غير منتظرين طالما كانوا مفاجأة سارة لنا ونحن أطفال، وخصوصاً عمنا كمال، الذي لم يأت قط من دون عربة محمّلة بالهدايا.

"هل تنتظرون أي شخصٍ آخر اليوم؟"

"لا."

بقيتُ أنا وخلييل على الشرفة في انتظار وصول العربة. نظرَ كلُّ منا إلى الآخر وأخذنا نقهقه. من جرؤ على المجيء إلى منزل أينا في هذه الأبهة؟ حين كنا صغاراً للغاية، كان المنزل ملك جدنا وفي ذلك الحين كان حافلاً بالضيوف على الدوام. ودائماً ما حُفظتُ ثلاث غرف نوم في حالة استعداد لاستقبال أصدقاء جدنا المقربين، الذين كانوا يدخلون ويخرجون كما يطيب لهم. كان طاقم الخدم كله يدركُ أنهم قد يصلون في أي ساعة من أي يوم، مصحوبين بخدمهم الرجال. كان ذلك قبل زمن طويل. وبعد أن مُنح أبي هذا المنزل بفترة قصيرة، أوضح للجميع أن أصدقاء جدي القدامى ما عادوا موضعَ ترحيب. أدى هذا إلى فضيحة في محيط العائلة. أبدت جدي اعتراضها بنفس لهجتها الشديدة المعهودة عنها، ولكن أبي ظلَّ على عناده.

كان له أسلوبه المختلف ولم يشعر بالرضا قط عن أولئك الماجنين الذين عاثوا في الدار على عهد أبيه، محولين حياة أجمل الخادمت جحيماً.

اقتربت العربة، فتعرفنا على سائقها والخادم الجاثم إلى جانبه. ضحك خليل ونحن ننزل الدرج لنستقبل بالتحية الشقيق الكبير لأبينا، محمد باشا، وصديقه البارون جاكوب سليل هاسبيرج. كلا الرجلين الآن في أوائل السبعينات، لكنّ أمارات الصحة والعافية تزيئهما. وقد مست الشمس بشرتيهما، شديدة الشحوب عادةً. كانا يرتديان بدلتين صيفيتين لونهما كريمي وقبعتين من القش، مع اختلاف تفصيلة كل بدلة عن الأخرى. كل منهما آمن بشدة بأفضلية خيَّاطه الخاص. لم يستطع أبي قط إخفاء غيظه حين يشرع هذان الرجلان في مناقشة مسائل ثيابهما. قدّم خليل تحية ودودة للشيخ البروسي ثم قبل يد عمه بكل احترام.

"مرحباً بك في دارنا يا عماء، وبك أيضاً يا جناب البارون. هذه سعادة غير متوقعة. لم نكن نعلم بأنكما بداخل البلاد."

أجابه محمد باشا: "ونحنُ أيضاً لم نعلم حتى وصلنا، تأخر القطار الآتي من برلين كالمعتاد."

تدخل البارون سريعاً: "لم يتأخر إلا بعد أن عبر الحدود العثمانية يا محمد، لا بد أن تكون منصفاً. لقد بلغ الحدود في الوقت المحدد تماماً. نحن فخورون للغاية بقطاراتنا."

تجاهل محمد باشا الملاحظة والتفت نحو خليل. "هل صحيح أن سهم الموت جرح أخي، لكنه رفض السقوط؟ ماذا بعد؟"

"لستُ واثقاً أنني فهمت سؤالك يا عماء ."

نظر نحوي .

غمغمتُ قائلة: "فقد أبونا قدرته على الحديث يا عمي، وعدا ذلك فقد تجاوز المحنة، رغم أنه سوف يحتاج دائماً إلى مساعدة لكي يمشي ."

"لا أعتبر ذلك مأساة تامة، فطالما كان كثير الكلام. أتعرفين ماذا أعدت أمك للعشاء؟ وهل عندكم أي شمبانيا في منزلكم؟ لا أظن! أحضرنا معنا بضعة صناديق من عذبة البارون. لقد قضيتُ أمسيات كثيرة تغم النفس في هذا المنزل الرث الرهيب حين كنتُ في سنك. لكن ذلك لن يتكرر. هل لديكم أي ثلج في القبو؟"

أومأت .

"جيد. مُريهم أن يبرّدوا بضع زجاجات لهذا المساء يا طفلتي، وأخبري بتروشيان أن يجهز غرفنا. أنا متأكد أن الهواء لم يدخلها من ثلاثين سنة. وأنت أيها الشاب خذني لأرى أخي ."

لم يكن أبي يبدي اكتراثاً كبيراً لأخيه محمد باشا، لكنه لم يسيء إليه قط، وكان لهذا أسبابه الوجيهة للغاية. حين توفي جدي، وبما أن محمد باشا هو الابن الأكبر فقد ورث منزل العائلة في إسطنبول جنباً إلى جنب هذا المنزل، والذي كرهه دائماً. لم نفهم قط نفوره هذا. كيف لأي شخص ألا يسعد في تلك الأجواء؟ لم تناقش هذه المسألة بالتفصيل لأن نفور العم محمد عاد علينا بفائدة كبرى. غلبتُ البهجة فضولنا، فقد أحببنا هذا المنزل، وأحببنا المرأة الحجرية. أتذكر الحماسة والإثارة حين أخبرنا والدي بأن العم

محمد قد منحنا هذا المنزل هدية. اندفعنا أنا و خليل وزينب نصفق و نحتضن بعضنا بعضاً. ظل سلمان محتفظاً برصانته و طرح سؤالاً حرجاً. " وهل سيعود المنزل إلى أبنائه بعد وفاتك؟ "

حملق أبي فيه صامتاً كما لو كان يقول، أيها المعتوه، لم نكد نحصل على المنزل وها أنت تفكر من الآن في وفاتي. حاولت أمي أن تكبح ابتسامتها. لم يفهم أحدنا سبب حبورها المفاجئ هذا، وما كان لنا أن نفهم لو لم تتسلل زينب، المطلعة على عادات أمي، و تختبئ وراء صخرة بعد غروب الشمس في اليوم ذاته وتستمتع إلى مناجاة أمي للمرأة الحجرية.

(ماذا عسانا أن نقول للأطفال في هذه الأيام، يا امرأة يا حجرية؟ إلى أي حد يمكننا أن نذهب بهم؟)

مسكين سلمان. كل ما أراد أن يعرفه ما إذا كان سيرث هذا المنزل ذات يوم. فنظر إليه زوجي كما لو كان الولد أقدم على محاولة اغتيال. حتى ولو لم أكن أمه بالولادة، فأنا مولعة بهذا الصبي. أتمنى لو أن أباه يتكلم معه، وأن يقول له كم يحبه. لم يكن ذنب سلمان أن أمه توفيت وهي تلده. إنه يشعر بعدم اهتمام أبيه. أغلب الوقت يرى إسكندر باشا زوجته الأولى في عيني الصبي ولذا يحبه، لكن هناك لحظات ينظر فيها نحو سلمان بعين الكراهية كما لو كان الصبي قد قتل أمه عمداً. ذات مرة سألتُ إسكندر باشا عن زوجته الأولى. احتاج غاضباً مني وأصر على ألا أسأله عن هذا الشأن بعد ذلك أبداً. وما سألتُ إلا لأستطيع مواساته، لكنه كان غريباً للغاية. جعلني هذا أساءل في نفسي ترى إن كان يُخفي شيئاً. ما مشكلة الصبيان في هذه العائلة، يا امرأة يا حجرية؟ ما إن يناهزوا الحُلُم حتى يبدو

أنهم قد اكتسبوا جفوةً ونأوا بأنفسهم عنا، ينظرون إلى أمهاتهم وأخواتهم كمخلوقات أقل شأنًا. أتمنى ألا يصير خليل كذلك أبدًا. حتى ولو لم أكن أمه الحقيقية، فسوف أبذل ما وسعني لأمنعه من ذلك.

أمّا عن محمد باشا، فماذا عساي أن أقول؟ ما كان لشخص أن يعترض لو أنه، إلى جانب ذلك، قد تزوج وأنجب أطفالاً، لكنه رفض وأمام عصيانه أنزل به والده عقاباً شديداً. وُضِعَ تحت رقابة دائمة، وتم توظيف معلمين خصوصيين لتعليمه. ومن كان له أن يعلم أن هذا البارون الشاب الذي وصل إلى هنا منذ خمسين سنة لتعليم محمد وأشقائه اللغة الألمانية سوف يرتبط بمحمد إلى هذا الحد؟ حتى الخدم لم يشكّوا في شيء. حين انكشفت المسألة برمتها طُرحت على والد بتروشيان أسئلة تفصيلية، غير أنه أقسم بالله أنه لم يكن يعلم.

لو أنك فقط قادرة على الكلام، يا امرأة يا حجرية. لأمكنك أن تخبري سلّمان بأن عمه محمد لن يحظى بأطفال أبدًا وأن سلّمان يوماً ما سوف يرث هذا المنزل.

أخبرتني زينب، وأنا أخبرت خليل، الذي نقل الأنباء إلى سلّمان، فاندفع سلّمان يضحك. كان يكفّ قليلاً، ينظر إلينا بتعبير جاد، وسرعان ما يعجز عن الاحتفاظ برزائنه لأكثر من ثوان معدودة، فينهار. خرج ضحكه عن السيطرة، وازدهمت الغرفة، بحضور بتروشيان وحتى الجوّاري - اللاتي كن في العادة هادئات للغاية، لكنهن الآن أصابتهن عدوى المرح العجيب الذي اكتسح المنزل كعاصفة صيف. أراد الجميع الاطلاع على المزحة، لكن سلّمان لم يستطع النطق.

سكتنا أنا و خليل وزينب، ومسنا شيء من الرهبة، خصوصاً حين رأينا إسكندر باشا يهبط الدرج. في البداية ابتسم، ولكن سلمان، لدى رؤيته أبيه، تكاثرت ضحكاته زيادة، توتر الجو. بتروشيان، غير الغافل أبداً عن أمزجة سيده، ساقَ قطيع الجوارى خارج الغرفة. عندما غادروا فقط سأل إسكندر باشا بصوت خادع الرقة: "ما سر ضحكك يا سلمان؟"

توقف سلمان فجأة عن الضحك. مسح عن وجهه الدمعات الطافرة من الضحك ونظر مباشرة في عيني أبيه.

"إنني أضحك يا أبتى من فرط عمائي و حماقتي. كيف لي أن أكون غيبياً لدرجة أن أسألك عمّن سيرث عمنا محمد؟ أعني أنه من غير المعروف حتى الآن أنه يمكن لبارون، حتى ولو كان بروسيًا، أن يجبلَ ويولد أطفالاً."

أخذت أُمي نفساً عميقاً. لم يتمكن إسكندر باشا من كبح غضبه. كل ما أتذكره هو جانب وجهه الشبيه بالطيور الكواسر حين ضمّ قبضته ونزل بها على وجه سلمان. ترنح أخي للوراء، مذعوراً.

"إذا تحدثت بقلة احترام مرة ثانية عن عمك في حضوري أو في حضور والدتك، سوف أحرمك من إرثي. مفهوم؟"

أوما سلمان صامتاً، بعينين ممتلئتين بدموع الغضب والإساءة والمرارة. غادر إسكندر باشا الغرفة. لم أكن قد بلغت التاسعة بعد، ولكنني كرهتُ أبي كراهية حقيقية في تلك اللحظة. كانت المرة الأولى على الإطلاق التي أراه يضرب فيها أي شخص.

تناولتُ يدَ سلمان في يدي، بينما أحضرت له زينب بعض الماء قبل أن تمسّد به خده الذي تحمّل اللكمة. شحب وجه خليل. كان مثلي في حالة من

الدهول، ولكن بالنسبة له ترك الأمر أثراً أعمق بداخله. لا أعتقد أنه استعاد احترامه لأبينا مرة أخرى بعد ذلك مُطلقاً. كنتُ صغيرةً للغاية، ولكنني لن أنسى ذلك المساء أبداً.

لم يكن ما أزعجنا إلى هذا الحد هو العنف الموجه نحو سلمان وحسب، بل تَفَجَّرُ تلك المرارة المثبطة التي كانت خفية وكامنة تحت السطح. تمزق القناع فسقط جانباً ليكشف عن وجه شائه ذي ملامح ثقيلة وفجّة. كان سلمان في الثانية والعشرين في ذلك العام. غادرنا المنزل معاً، جميعاً، جميع أبناء إسكندر باشا، كما لو كنا في حالة هيمان جماعي. سرنا إلى صخرة مسطّحة، لا تبعد كثيراً عن الموضع الذي تنتصبُ فيه المرأة الحجرية، لا يوارىها عنا إلا بستان أشجار الصنوبر.

كان لكل منا موضعه المفضّل على هذه الصخرة، غير أنها كانت المرة الأولى التي نأتي إليها كلنا معاً. كان سطح الصخرة مثلاً، ولكنه تام الاستواء. لم تلعب الطبيعة دوراً كبيراً في هذه العملية، فقد ألحّ بتروشيان على أن هذا هو المكان الذي كان يوسف باشا يجلس فيه لينظم أبياته الأكثر غنائية جالساً قبالة البحر الممتد أمامه. كدحَ عمالٌ عديدون من أجل تسوية سطح الصخرة وتنعيمه هكذا.

جلسنا في صمت ورحنا مُحدّق في البحر، حتى نجح المنظر في تهدئة الأمواج المضطربة التي تعذب أفئدتنا. بقينا هناك لوقت طويل، في انتظار غروب الشمس. كان خليل أول من تحدث. كرر بالحرف الواحد تلك الكلمات بشأن العم محمد والتي كانت سببَ الإساءة. ثم كررتها زينب من بعده، ولكن حين حان دوري، وضع سلمان يده على فمي ليقفني.

"أميرتي الصغيرة، يجب ألا تتفوّهي بما لا تفهمين بعد."

وشرعنا نضحك جميعاً من جديد، لكي نطرد الذكرى الشريفة لما جرى ذلك اليوم. وإذ مسّ تجاوبنا هذا نفس سلمان، اعترف بأنه يريد الرحيل عن المنزل إلى الأبد. وأنه لن يزور هذا المنزل مرة أخرى أبداً أو يعود إلى إسطنبول. سوف يسافر إلى حلب أو القاهرة أو ربما مكان أبعد منهما، إلى بلاد خالية من العثمانيين. عندئذ فقط سوف يشعر بحرية حقيقية.

انفطرت قلوبنا لكلامه. رجّته زينب، على الأقل تزوج أولاً. واقترح عليه خليل، لم لا تلتحق بالجيش. تحدثوا عما يأملون لأنفسهم ولأطفالهم، الذين لم يولدوا بعد. استغرقوا تماماً في حياتهم المقبلة. كان هذا كله جديداً عليّ. كنت لا أزال أصغر من الانخراط في حديثهم أو حتى فهم كثير منه، غير أن فورتهم العاطفية كانت قوية بحيث بقي ذلك اليوم في ذاكرتي واضحاً حياً. لم يسبق لي أن رأيتهم هكذا من قبل. اكتست وجوههم بتعبيرات متوثبة وبدت عليهم السعادة، وأذكر كيف جعلني هذا سعيدة. بدا الأمر كما لو أن مأساة أصيل ذلك النهار قد أصبحت نقطة تحوّل في حياتهم وملأتهم بالأمل في المستقبل. حتى زينب، التي كان مزاجها الرائق نكتة في عائلتنا، كانت غاضبة ومستتارة في ذلك اليوم. لم يرغب أحد منا في الرجوع إلى المنزل ذلك المساء. كنا في حالة ثورة شاملة ضد إسكندر باشا وعالمه كله. عندما أتى بتروشيان، الذي كان يعرف دائماً أين يجدها، وأخبرنا بأن موعد العشاء قد حان، تجاهلناه تماماً. فجلس بجوارنا عندئذ وأخذ يسترضينا بكلام معسول، حتى أفلح في مدهانتنا وإقناعنا بالرجوع. قدّم سلمان المبادرة، فتبعناه مترددين.

لست متأكدة من الوقت المحدد لرحيل سكرمان عن المنزل . أعتقد أنه لم تكن قد مضت فترة طويلة على ضرب إسكندر باشا له . كل ما أذكره هو الذعر الذي استولى على العائلة كلها حين أعلن سلمان ، على الإفطار ذات يوم ، أنه قد قرّر أن يترك وظيفته ويذهب ليرى العالم لوضع سنين تالية . وبما أنه كان يعمل في شركة الشحن الخاصة بعلمي كمال فلن توجد مشكلة حقيقية في الرجوع لعمله متى شاء .

كانت والدة زينب و خليل هي من رعت سلمان بعيد مولده ، لوفاة أمه وهي تله . كانت من أقارب أبي البعيدين وطالما أهدقت علي من حنانها . تم ترتيب زواجها من إسكندر باشا على عجل . كان محزوناً حينذاك ، لكنه أذعن لضغوط العائلة وتزوجها ليوفر أمّاً لسلمان . سهرت عليه ولبت جميع احتياجاته وصارت أمّاً له بالفعل . أحبته كما لو كان لحمها ودمها ، وطالما دافعت عنه بشراسة ، حتى بعد أن أنجبت طفليها ، خليل وزينب .

نادراً ما أقامت في المنزل الصيفي ولم تكن حاضرة لتشهد ما لحق بسلمان من مهانة ، ولكن الأخبار قد بلغت في إسطنبول وحرصت أمي على أن يتذوق إسكندر باشا لسعة سوط لسانها . لعلها حاولت إقناع سلمان بعدم الرحيل ، وإن هي فعلت فقد أخفق سعيها . كان قد حزم أمره وما كان لشيء أن يثنيه عنه . أخبرنا بأنه سوف ينتقل لبعض الوقت وبأنه سيبلغنا حين يستقر في مدينة ما .

عرض الأب الندام عليه مالاً من أجل سفره ، غير أن سلمان رفض . كان قد ادّخر من راتبه على مدى الأربع سنوات الأخيرة . عانقتنا جميعاً ثم غادر . ولم نسمع عنه شيئاً لعدة شهور . ثم بدأت الرسائل تصل ، لكن دون

وتيرة منتظمة . بعد سفره بعام تلقينا رسالة من العم كمال ، الذي كان قد عاد لتوه من الإسكندرية . أخطرنا فيها بأنه قد أقام هناك لدى سلمان ، الذي وفقه الله في تجارة الماس وتزوج من امرأة من أهل البلد . وقد أرسل خطاباً إلى أم زينب . لم يطلع أيّ منا على مضمونه بالمرّة . ذات يوم ، ونحن في قنوط تام ، سألنا بتروشيان إن كان بلغه شيءٌ مما وردَ في الخطاب . فهزّ رأسه في حزنٍ .

" إذا رُمي شخصٌ بأحجار كثيرة للغاية ، فإنه لا يعود يخشاها أو يبالي بها . "

وحتى يومنا هذا لا أدري ما الذي كان يقصده بتروشيان بقوله ذلك . أو ماناً برأسينا أنا وزينب في حكمة العارفين ، وما إن غادر الغرفة حتى انفجرت ضحكاتنا .

كان من الغريب أنهم قد أتوا إلى هنا جميعاً في اليوم ذاته . أي ذكريات سوف تطفو في نفس إسكندر باشا ، حين يرى سلمان ، والعم محمد والبارون ، يخطون إلى غرفته معاً؟ أبلغني خليل فيما بعد أن أبي قد بكى لدى رؤيته سلمان ، عانقه في حنان وقبّل وجنتيه . مسّ هذا سلمان ، لكنّ عينيه بقيتا جافتين . تأخرت هذه البادرة الطيبة حتى فات أوانها . كنتُ قد لاحظتُ منذ فترة طويلة تلك الكبرياء التي يُبديها الرجال الناضجون ، لكنني لم أفهمها حق الفهم بالمرّة . لم تكن غائبة تماماً عن زوجي دميتري ، لكنه عرف كيف يقمعها بشدة .

بمرور الأيام أتاحت لي فرصة لتأمل سلمان . أخي الذي كان في شبابه أشدنا حيوية وطموحاً ، ابتلي الآن بكآبة جعلته ممروراً . أظن أن عدم قدرته على تحقيق المزيد في حياته هو ما سبب له ذلك الجزع العظيم . كأنّ نجاحه في

تجارة الماس هو جذر بؤسه . لم يعرف طعم الرضا قط . تزوج من امرأة
مصرية في الإسكندرية ، " قبطية مليحة " ، بتعبير العم كمال ، لكنه منعها من
لقاء عائلته . حتى في الوقت الراهن إذ يرقدُ والده عاجزاً بفعل الجلطة . كان
خليل فقط هو من دُعي إلى مصر ونال حظوة لقاء زوجة سلمان وأطفاله .
في مناسبة ما عندما ألححتُ على خليل في السؤال حول لامبالاة سلمان
تلقيتُ منه جواباً مفاجئاً وقاطعاً .

" سلمان كلّه حُزن وإحباط بسبب حقيقة أن الإمبراطورية العثمانية
تشهد تدهوراً لا سبيل لإصلاحه منذ ثلاثمائة عاماً . أنا أيضاً مدركٌ لهذه
الحقيقة ، ولكن سلمان يعتبرها مسألة شخصية . "

رفضتُ بفطرتي مثل هذا التبرير . أقررتُ بضيق سلمان من مراسم
حياة إسطنبول . كان إحباطه عميقاً منها وأراد التغيير ، ولكنّ هذا على
أفضل الأحوال قد يكون سبباً جزئياً . لا يمكنني أن أصدق أن أخي ، الذي
كان عفريتاً شقيماً يفيض بالمرح ذات يوم ، تضطرب الآن أعماقه بإحساس
العجز حيال التاريخ . لطالما صنعت عائلتنا التاريخ . كيف يمكننا أن نتركه
يحطمنا الآن؟ لا بدّ أن هناك سبب آخر لحُزن سلمان وقد عقدتُ العزم على
اكتشاف جذوره .

(٣)

البارون يقرأ مقتطفًا عن الغرام من قابوس نامتة؛ حكاية
"إنفر" الألباني غير المكتملة؛ صبيحة والجارية الشركسية
التي ظنت أن السبيل الوحيد للهرب هو أن تطير

"إن إمبراطوريتكم العثمانية أشبه بعاهرة مخمورة، راقدة وساقاها
منفرجتان على وسعهما، لا هي تعرف ولا تكثرث لمن سينالها لاحقًا. فهل
أبالغ يا محمد؟"

كان البارون والعم محمد قد وصلا إلى زجاجتهما الثانية من الشمبانيا.
أجابه محمد: "كالعادة أيها البارون، أنت تعبر عن أفكار سامقة بوضوح
عظيم، لكنني أتساءلُ أحيانًا ما إذا كان المعلم الكبير "هيجيل" قد خابُ
أمله فيك قليلًا. فحسبَ شهادةٍ معاصريك، كنتَ طالبًا مبشرًا بالكثير في
برلين . . ."

اتخذت مقاطعة البارون له شكل الضحك، ضحك هو أشبه برشقات
متقطعة من سلاح ناري: هاهاهاها، هاهاهاها، هاها، ثم (ها) أخيرة.
لم يكن هذا من نوع الضحك الذي يبدأ كابتسامة ثم يتطور بإيقاع بطيء. لم

يكن ضحكه إلا جزءاً من مستودع أسلحته اللفظية، التي يعرف كيف ينشرها من أجل إهانة أي خصم، أو تحطيمه، أو مقاطعته، أو تشتيت انتباهه.

"كلما زرتُ هذه العائلة أشعر بأنني فقدتُ الصلة بالعالم الحقيقي يا محمد. فالعالم الحقيقي، كما أخبرتك كثيراً، هو عالم من النمل. إن سبيل البشر الوحيد ليتمكنوا من الاستمرار في هذا العالم هو أن يصيروا مثل النمل. إنه مستقبلنا. يلوح لنا داعياً، لكنكم تقاومون. تتظاهرون بأن المنزل هو العالم الحقيقي وبهذه الحيلة تُبقون الوحوش بعيداً عنكم، ولكن حتى متى، يا محمد؟ حتى متى؟ لقد بلغت إمبراطوريتكم من الإفلاس حد أنكم سوف تعجزون عن شراء مزيدٍ من الوقت كما كان دأبكم لما يقارب الثلاثمائة عام."

بقى عمي صامتاً لوهلة. أجاب بصوت لئین. "الشيء الذي يسميه فلاسفتكم التقدم، يا عزيزي البارون، قد أورث نفوس الناس جذباً. إنهم يُظهرون لامبالاة الأغرار نحو بعضهم البعض. انظر إلى فرنسا، بلد يحبه كلانا، فضلاً عن إنجلترا. ما من تآزر بين الناس. لا إيمان بشيء مشترك عدا الاستمرار في الحياة وتحقيق الثراء، بصرف النظر عن كلفة ذلك. ربما هذا هو حال الدنيا، وهذا هو الموضع الذي سوف ننتهي إليه ذات يوم. ليس أنا وأنت، بالطبع، فسوف نكون متنا قبل ذلك اليوم بزمان طويل، ومن يزعم أننا لن نموت سعيدين؟ فلماذا لا نلتمس البهجة في رفقة أحدنا الآخر. لماذا لا أتمتع بحياتي، بوجودي في هذا المنزل، بعائلتي..."

فهقه البارون ضاحكاً، كان ضحكاً حقيقياً هذه المرة.

"لماذا تضحك؟"

"تذكرتُ حالاً قابوس نامة^(١). حينما كنتُ أترجمه إلى اللغة الألمانية وجدته غيباً ومبتذلاً إلى درجة تفوق العقل، غير جدير حتى بأهون اهتمام. أتذكر أنني فكرت: إذا كان هذا هو الميثاق الأخلاقي للسلطان وأمرائه، فلا داعي للدهشة من انهيارهم المتسارع. حتى أشد الرؤوس حماقة وامتلاءً بضباب السلطنة يمكنها أن تتجاهل هذا الهراء وهي آمنة مطمئنة. ومع ذلك، فقد كانت هناك فقرة لافتة. كان عنوانها الفرعي 'الغرام' وقد رددتها مرات عديدة على جامعي الهوى من أعمامي وأبنائهم بحيث أنني لم أنسَ كلماتها قط. وقد ذكّرني بها حين تحدثتَ عن أولئك الذين لا يهتمون إلا بتحقيق الشراء. استمع الآن، أيها العجوز محمد، إلى حكمة قابوس نامة: (ومن جانبك، فلتقاوم الوقوع في الحب ولتحذر أن تكون عاشقاً، فحياة العاشق محفوفة باليؤس، وخصوصاً إذا أعوزته الوسيلة. ليس بوسع المحب المعدم أن ينال مبتغاه أبداً، وخصوصاً إذا تقدمت به السن؛ لا سبيل إلى ذلك الأمل المنشود إلا بمعونة المال، والعاشق خالي الوفاض لن يفلح إلا في تعذيب روحه.)"

حان دور محمد ليبتسم. "كون المرء مفلساً وعجوزاً سيء بما يكفي، فلا حاجة به لتعذيب نفسه بعواطف طائشة. أحسبُ أن هناك قدرًا كبيراً من الحقيقة في ذلك. من الصحيح أننا نتقدم في السن، يا عزيزي البارون، لكنني لا أظن أن تلك الفقرة التي حفظتها باقتدار قد يكون له أي أثر يذكر علينا. وأعتقد أننا حتى إن أفلسنا، يمكننا أن نجد بهجتنا ومتعتنا في صحبة أحدنا الآخر. ربما ينبغي علينا أن نفتح زجاجةً أخرى توكيداً لخبية قابوس نامة."

كانت غرفة جلوس أبي، المصممة والمزينة على طراز الصالون الفرنسي، ممتلئةً عن آخرها اليوم. قبل مرضه، كان محظوراً على النساء

العثمانيات دخول هذا المحراب . لكننا لاحظنا أن الفرنسيات كان مسموحاً لهنّ بدخولها، فقط في صحبة أزواجهن أو آبائهن . وكانت هذه الغرفة، الأجل والأوسع بين كل غرف المنزل، مقصورةً عموماً على الذكور من الأصدقاء والزوّار .

ذات مرة حين كان أبي في باريس ، دخلنا أنا وزينب مع أم كل منا هذه الغرفة ، وأمرنا بالشاي المنعنع وماء الورد ثم اتخذنا مجلسنا وبدأنا نلعب الورق . كم أحببتُ مشاهدة تقلبات مزاج البحر من النوافذ الثلاث الكبيرة المؤدية للشرفة والتي تضيء الغرفة خلال النهار . استخدمنا المكان كل يوم، ما كان تسلية كبيرة للجوّاري ، فهنّ أيضاً استمتعن بوجودهن هناك في غياب بتروشيان .

كل شيء مختلف الآن . هذا هو المكان الذي صرنا نجتمع فيه بعد تناول العشاء كل مساء لتبادل الأخبار والاستماع إلى الحكايات ، قبل أن نأوي إلى غرفنا . عبس وجه أبي لدى سماع الحوار المتبادل بين العم محمد والبارون . لا بدّ أن الإشارة إلى العاهرات في حضور زوجته وبناته قد ضايقته . كان أورهان غارقاً في نومه على أريكة وثيرة قريبة من النافذة ولم يسمع ذلك القول .

رفع إسكندر باشا عصاه التي لا تفارق جانبه أبداً ودقّ بها على الأرض . كان معنى هذه الإشارة إنهاء كل الأحاديث الهامسة التي تتردد في الأركان المختلفة من الغرفة وأن يبدأ الحكاء . تنحنح العم محمد ، فابتسم سلكمان ، وداعب خليل شاربته في تشوّف . أحكمت أمي ، سارة ، ضمّ شالها عليها . تبادلتُ النظر مع زينب ، ونحن مجاهد بشدة لكبح أمارات السرور . فما دام العم محمد سوف يتحدث فكل شيءٍ جائز .

أبي، الذي بدا متوتراً بدرجة طفيفة، استدعى بتروشيان وأشار في اتجاه أورهان. كانت إيماءة مفهومة. حُمل صغيري النائم برقة إلى حيث يبيت ليلته. تمتيتُ الآن لو كنتُ قد أحضرتُ معي صغيرتي أمينة إلى هنا هي أيضاً. أردتُ لها أن تكون جزءاً من عائلتنا. وضع العم محمد على وجهه قناعاً من الخضوع الزائف وشرع يحكي.

(سوف أحكي لكم الآن قصة سلكنا الألباني إنفر، كما نُسختُ بإملاء من ابنة مباشرة. جرت العادة على قراءة تلك الوثيقة ذاتها مرة كل خمس سنوات في مناسبة مولد رسولنا الكريم، عندما تجتمع العائلة كلها للاحتفال. كانت شعيرة ضرورية حتى لا ننسى أبداً أصولنا المتواضعة. وللأسف، فُقدتُ تلك الوثيقة قبل نحو خمسين أو ستين سنة. يقول البعض إن جدنا محمود باشا قد أتلف الكتاب النحيل المجلد لأنه كان قد شرع في إعادة ابتكار تاريخ عائلتنا، وكانت الحقيقة تصيبه بالحرع، حتى بعد مرور أربعة قرون عليها. تدبّر محمود باشا أمر إنتاج كتاب بديل ما زال محفوظاً في المكتبة غير مقروء وغير محبوب، رغم أن خط اليد المكتوب به تحفة بلا نظير.

هؤلاء الذين حاولوا قراءته منا توقفوا بعد الحفنة الثانية من الأكاذيب، التي تقول إن مؤسس عائلتنا كانت دماؤه عربية نقية وأن أصوله تمتد إلى قبيلة الرسول، وليس مجرد ألباني كانت أولى وظائفه تنظيف أكوام روث الخيل المتراكمة على حافة معسكر للجيش العثماني في تلك المنطقة. لكنه كان يتخلص من الروث بدرجة عالية من الكفاءة بحيث أن مهارته لوحظت وقُدّرت. فقام الأغا المستول عن المعسكر بإعادته إلى إسطنبول وفيما بعد صار المستول عن شؤون الصحة والنظافة بداخل القصر.

لَفَقَ محمود باشا الأكاذيب بسبب نيته في الزواج من بنت أخ للسلطان
وظن أن من الحكمة أن يُجوّد في حسبه ونسبه . أعتقد أن التزوير لم يكن له
داع . فالأرجح أن السلطان كان يعرف الحقيقة على أي حال ولم يكن
ليكثرث . ومع هذا فكم كنتُ أتمنى لو أنه رفض العريس لأسباب أخرى
وجنبَ أسرتنا مأساة غير ضرورية .

لطالما كان سلاطين آل أرطغرل ^(٢) يفضلون أن يعترف وزراؤهم
ورجال حاشيتهم بأصولهم المتواضعة . فقد كان السلطان هو من يرفع
الوزراء ويضعهم ، ومن الأسهل إبقاء الأمور على هذه الحال في غياب طبقة
من النبلاء . كان الإقرار بأن آل أرطغرل هم الأسرة الحاكمة الوحيدة ذات
الشرعية بحكم الوراثة يمنح السلطان شعوراً بالاستقرار والثقة في النفس ، بناءً
على الإيمان بأنهم السلالة الوحيدة التي توارثت الحكم في تاريخ
إمبراطوريتنا . وهذا صحيح ، بكل أسف ، وكان أحد أسباب أننا نشاهد
هذه الإمبراطورية تتعفن أمام أعيننا . لم يتعد الوصف الحي الذي قدّمه
البارون عن الحقيقة كثيراً . والسلطان عبد الحميد الثاني يعلم هذا ، فعندما
صحبتته إلى برلين العام الماضي ، سألتني : " أنظن أنني سأكون آخر خليفة
للمسلمين؟ " ، فابتسمت دون أن أجيبه .

لم يكن جدي محمود إلا طاووساً مختلاً فخوراً ، لكنه لم يكن أبله تام
البلاهة . لا بد وأنه كان مدركاً لحساسيات أسرة أرطغرل . يعرف السلطان
سلسلة أجداده وصولاً إلى عثمان ، مؤسس الدولة . فلماذا ادّعى جدنا
الأحمق لنفسه نسباً يمتد إلى الرسول؟ لماذا شعر بحاجة إلى تزيين الحقيقة؟ لماذا
يخترع عالماً خيالياً يفترض أن عائلتنا نشأت منه؟ لقد صنع جدنا من نفسه

أضحوكة. نضح كتابه ذلك بالغباء والغرور الفارغ، وانقسم بالتساوي ما بين الخيال والواقع.

كانت عائلتنا بالطبع تعرف الحقيقة، ولكن لم يملك واحدٌ منها الشجاعة لمواجهة محمود، رغم أنهم سخروا منه ووجدوا تصرفه مثيراً للحرج. لو أن وفداً من شيوخ العائلة، فُساء الملامح هؤلاء، قد استدعاه وأصرّ على أن يتوقف عن الكذب، فربما كان لهذا تأثير مؤقت. من يدري؟ ربما لم يكن لهذا أية أهمية. على كل حال، ورغم عادة محمود باشا الشهيرة في تزيف الحقائق، أذن له بالزواج من ابنة أخي السلطان، وهي التي أنجبت له، في الأجل المعلوم، أبانا وشقيقاته الثلاث. لكن هذا لم يوقف سخرية السلطان وحاشيته من محمود.

أخبرتني عمتي ذات مرة أن محمود باشا كلما زار القصر لتقديم احتراماته، كان السلطان يسأله عن كتابه، ويجبره على أن يردد بعضاً من أسخف تلفيقاته وأبعدها عن العقل أمام جمع بطانته. كان السلطان يحتفظ بوقاره بالطبع، في أثناء هذه القراءة، بينما يشجع المداهين على إطلاق سراح مرحهم في فواصل منتظمة الإيقاع، وهكذا صار من المعهود أن تلاوة محمود باشا لكتاب أسلافه اتخذت علامات ترقيمها من ضجة الضحك المكتوم.

ما الذي كان يدور في خلدِه بينما يجري هذا كله؟ حين كان يرجع إلى البيت من القصر، كان يخبر زوجته كيف أن عمها قد أفاض بنعمته وكرمه عليه من جديد وكيف هنأه الوزير على تأليفه لمذكّرة خطيرة الشأن وسرية للغاية، قد وضعها هو، محمود باشا، بنفسه، حول المسألة الروسية، وتم إرسالها على الفور، دون تعديل واحد، إلى السفارة في برلين.

وجدتنا الجميلة، صبيحة، التي ما زالت بورتريه وجهها يستقبل الزوار بالترحاب في مدخل المنزل في إسطنبول، هل كانت تصدق أياً من هذا الكلام الفارغ؟ لا أظن. لم تتزوجه لطلعته البهية أو لثروته أو لاعتياده الكذب، ولكن ببساطة لأن أباهما قرر أن محمود باشا سيكون لها زوجاً طيباً وصالحاً. ألاحظ أن أم أورهان تبسم. إنها تسأل نفسها، أيمن جلدتنا الكبيرة أن تكون بهذه الحماسة؟ والإجابة، يا محبوبتي نيلوفر، هي نعم صريحة.

لا شك في أن جدتكم الكبرى كانت جميلة للغاية. والصورة المرسومة لها دقيقة بما يكفي من هذه الناحية، ولكن "براجيندي"، الذي رسمها، لم يكن، بكل أسف، فناناً عظيم الموهبة. فقد رسم ما رآه فقط. وقد افتقر إلى الذكاء والشغف الذي كان له أن يدفعه لاستراق النظر إلى ما يتورأى تحت السطح، حتى يضع يده على شخصيتها الحقيقية. لقد فشل فشلاً ذريعاً في الكشف عن باطنها. كانت ذات بشرة صافية، وشفقتين شهيتين، وجبين عريض، وخصلات شعر داكنة متهدلة، وعينين زرقاوين، وقد نُسبَ له القول إنه كان يعلم أن تحت طيات ثيابها جسداً "فاحش الثراء". عن نفسي أكره هذه العبارة، غير أن جدنا محمود اعتاد ترديدها كثيراً عندما ينالُ منه الكأس، من باب التباهي وعلى سبيل التفسير حين يفضي أصدقائه القدامى بسؤالهم كيف أمكنه التغاضي عن هوسها الأحمق بتوافه الأمور.

لم يكن محمود باشا نفسه شخصاً بالغ العمق، فقد ارتأى ألا يتحمل كاهله بمعرفة زائدة عن اللازم، ولكن، سبحانه الله، كم كان يستمتع بالتسليات الثلاث الشائعة بين المؤمنين من زمن الرسول. لقد عشق جدي

النيذ، والصيد، والجماع، على هذا الترتيب ذاته. لم يكن يستطع الصيد من غير شراب، ولم يكن يستطيع اعتلاء جدتي من غير قتل حيوان سيء الحظ، ولو أرنب، كان يعينه على أن يبلي بلاءً حسناً في هذا المضمار.

ولسوء حظه، كانت صبيحة تنظر إلى كل جميع الهوايات الثلاث نظرة اشمزاز لا مزيد عليه. لقد نشأت في القصر. وحتى حين كانت ابنة ثمانية أعوام وحسب، كانت تلحظ الرجال وهم سكارى، وكثيراً ما تحدثت كيف كان منظرهم يملؤها بالغثيان، دون أن تكون أكثر تحديداً في هذا الشأن قط. يعلم الله وحده ما الذي رأته أو عاشته وهي طفلة في القصر، حيث خليفة المسلمين يمضي مترنحاً، أو مدى الأثر العميق الذي ترسب بداخلها؟ قيل إن قرار أبيها بالزواج من محظية يابانية قد آذاها كل الأذى. في خضم الصراعات التي نشأت عن قرار أبيها هذا، كان يتخذ جانب زوجته الجديدة دائماً ضد أطفاله. شعرت صبيحة بأنها متروكة منبوذة، وصبغ هذا الشعور موقفها من الرجال وما يحظى به الرجال من سلطان وبأس، ولكن ليس هذا هو ما أخبرت به صديقاتها.

أسرت إليهنّ عَرَضاً أن محمود باشا لم يكن ذكراً حقيقياً، وأنها محرومة معه من أي لذة قد تجدها امرأة في الجماع، أنه كان أقل كفاءة من كلب، وبعد مولد أبنائه، وسبحان الله، قد أصابته عنة. وأنها مهما اجتهدت وحاولت، لم يكن بمقدور أي شيء إثارة فجلته الصغيرة. والحقيقة أنها لم تحاول بالمرّة. لم تسمح له بأن يأوي إلي فراشها مرة أخرى قط.

محمود باشا، العاشق لنفسه والساعي للمتعة كعهده أبداً، هاج غضبه أمام تلويث فحولته بتلك الوصمات. فاتخذ رد الفعل المنسجم مع طبيعته،

ورفعَ خادمة شركسية ساحرة من المطبخ إلى غرفة خاصة قريبة من جناح نومه. اتخذها سرّية. في ذلك الحين كان جد بتروشيان سلطاناً على مطبخ أسرتنا. هو أيضاً، كان بداخله نقطة ضعف أمام المرأة، غير أنه انحنى ممتثلاً أمام المشيئة العليا لمولاه.

الشركسية - التي لم أسمع اسمها الحقيقي يُذكر حتى يومنا هذا - كانت أمّية. تم شراؤها وهي صبية صغيرة لمنزل العائلة من تاجر عابر في إسطنبول ودُرِبَت لتكون من جوارى المطبخ. يقولون إنها تحلت بدكاء فطري. ويقولون إنها كانت تدفع محمود باشا إلى الضحك كثيراً، والأهم من كل شيء، إنها أعادت الحياة لما بين ساقيه. لم يمضِ طويلٌ وقتٍ حتى تسرب خبر وجودها خارج حدود الأسرة.

بدأت تصحب محمود باشا في رحلات صيده. وأرغمه حضورها على إعادة ترتيب قائمة ملذاته. الآن لم يعد يستطيع أن يصيد حتى يستمتع بالشركسية، وبعد الرياضة فقط يمكن لهما أن يتساقيا كأساً من نبيذ. كان ينبغي عليه أن يتزوجها، لكن محمود باشا كان جباناً. ارتعد وجبن أمام مخاوف ثلاثة، خشي سخط السلطان، وخصي تدهور مكانته الاجتماعية، وخصي ثورة غضب أبيه.

ورغم ذلك فقد أحبط جميع محاولات صبيحة لإبعاد غريميتها عن المشهد. لماذا اكرثت صبيحة إلى هذا الحد لهذه الخليفة بالذات؟ فقد كان اتخاذ خليلات أمراً شائعاً للغاية حيثئذ كما هو الآن. أظن أن ما ساءها هي المهانة المعلنة على الملأ. إذا كان جدّي قد التزم الحيطه والكتمان لما كانت لتشعر بالإهانة، لكن محمود باشا كان غاضباً من صبيحة التي عرضت

بفحولته . وهكذا أبى أن يخفي محظيته عن عيون العامة . أحب لها أن ترتدي ثياب الهوانم بحيث يمكنه أن يُريها لأصدقائه . ذات مرة عثرت والدة خليل على فستان باريسى بديع الجمال ومحفوظ جيداً ، رغم لونه الحائل ، في صندوق صغير في هذا المنزل . كان ملكاً للشركسية .

ذات يوم ، اختفت من منزلنا في إسطنبول . في البداية فرحت صبيحة ، ولكن مرّ شهر ولاحظت أن غياب غريميتها لا يؤثر بأي قدر على مزاج محمود باشا ، الذي بدا وكأنه قد ازداد انشراحاً . أدركت صبيحة أن ثمة شيء قد أخفي عنها . استدعت جد بتروشيان ، لكنه أنكر معرفته بأي شيء يخص غراميات سيده .

أظن أن من أطلعها على الحقيقة لا بد أن تكون إحدى الجوارى ، المفعمة بالغيرة من الارتقاء الاجتماعى الذى حققته زميلتها . كانت الشركسية تحمل طفل محمود باشا وقد أرسلت إلى هنا حتى توفي أجل حملها . ومن يدري إذا كان مكتوباً لذلك الطفل أن يُولد هنا في هذه الغرفة ذاتها وفي هذا الفراش ذاته الذى يرقد عليه إسكندر باشا الآن ، عاجزاً عن الكلام ، لكنه يعبس في وجهي لعدم موافقته على الحكاية؟ ساحمني يا أخي العزيز . ولكن كل بداية بحاجة إلى نهاية . ألا توافقني؟

كان أبى يكتب ملاحظة على إضمامة أوراقه ، ناولتها لعمي فابتسم .

" إسكندر باشا يقول إنه لا توجد نهاية . وأن كل ما عدا ذلك تخمين ورجم بالغيب . وأن السنة السوء في غرف الخادما ت لفقت حكايات بلا أساس . إنه متعب ويريد أن ينام ويقترح أن نواصل غداً . علينا أن نحترم رغبته ، ولكن النهاية لن تستغرق وقتاً طويلاً .

" كانت هناك نهاية، وقد كانت ذات طبيعة مأساوية. لقد اختفت
شركسية محمود باشا هي وجنينها معاً. لم تقع عليها عين بعد ذلك قط.
حين كنتُ صغيراً اعتادت الخادמות إخافتي بقصص عن شبح طفل كثيراً ما
يُسمع صراخه يتناهى من أمام هذه الشرفة. اسألوا بتروشيان وسوف يخبركم
بأن صبيحة قد أمرت بقتلها. يزعم أنه سمع القصة من أبيه. وهكذا فإن
هناك نهاية، حتى ولو كان محمود باشا، شأنه شأن خَلْفه إسكندر باشا الآن،
فضَّل أن يصدّق أنها قد هربت. عرضَ جائزة كبيرة لأي شخص يجلب له
خبراً عنها، ولكن ذلك الخبر لم يأت قط. "

بتلك الكلمات نهض كلُّ من البارون والعم محمد، وانحنيا بأدب في
اتجاه أبي، الذي أغمض عينيه في استنكار، وغادرا الغرفة. تبعناهما في
صمت.

(٤)

الشركسية تُفضي بالحقيقة للمرأة الحجرية وتتحسّر
على مصيرها؛ وكيف يدهس الأثرياء حُب الفقراء.

(هل ستصغين إلى حكاية بلوأي، يا امرأة يا حجرية، أم أن أذنك لا
ترحبان إلا بصوت الباشا وعائلة الباشا؟ لي الآن أكثر من ثلاثة شهور أقيمُ
في هذا المنزل. يقوم على خدمتي وإطعامي راعي الدار وزوجته على خير
وجه ويسرني ابتعادي عن إسطنبول، لكنني في عزلي هذه أفقدت حكمت
أكثر من أي وقت سابق. أستيقظُ كل يوم قبل الطيور بوقت طويل. لم
يطلع نور النهار بعد ولا خبتُ النجوم. يجافيني النوم. وجهُ حكمت وصوته
يملآن أحلامي ويُشقياني. انظري إليّ. أنا في شهري الثامن من حملي بطفل
محمود باشا ولكن قلبي ما زال أثقل من بطني.

أرى حكمت في أحلامي مرتدياً زيه العسكري الرسمي. ترمقني عيناه
الرماديتيان في مرارة. تخاطباني: " ألم نثق بك؟ " لكنك لم تنتظري. خنت
عهد محبتنا لأجل رَعْد رجل ثري. " أطلب الصّفح والمغفرة. أتوسل إليه.
إنني حتى كنت أتأهب لأطلب الإذن من قيّمة الخدمة بالزواج منه، عندما

حل بي ذلك اليوم الملعون، ووقع بصر سيدنا، محمود باشا، عليّ فبدأ يبرم شاريه. كانت علامة مقدرة حذروني منها منذ أن كنتُ صببية في العاشرة، والآن، بعد ثمانية أعوام، حلّ القضاء. غاص فؤادي مباشرة إلى قدميّ.

ما زالت جواري المنزل يحذرنّ كل وافدة جديدة للخدمة من أن هناك عادة قديمة العهد في هذه العائلة. فحين ينظر السيد إلى أي منهن ويبدأ في التلاعب بشاريه، فإنها علامة على أنه سوف يستدعيها إلى فراشه في تلك الليلة ذاتها. كما تلقى بضعة غلمان عربات الخيول أمر الاستدعاء نفسه. لاذ أحدهم بالفرار فلم تقع عليه عينٌ بعدها قط. كثيراً ما كانت تتحدث الخادِمات عن عادات محمود باشا، غير أن فُحش أقوالهن كان يؤذي أذنيّ، وفضّلت أن أتناسى قصصهن تلك.

لم أكن، على كل حال، سوى صببية مطبخ، لا يُسمح لها بمجرد الاقتراب من غرف المنزل الأخرى. مهمتي أن أساعد الطاهيات وأحرص على توفر جميع المقادير التي يحتاج إليها لإعداد أطباقهن. حين كنتُ أصغر سنّاً، لم أعتبر نفسي قط إنساناً يمكن أن يلاحظه السيّد وهكذا لم أجرب القلق الذي ساور بقية الخادِمات، ممن كنّ يحملن نهودهن أمامهن مثل شَمَامات طابت واستوت.

رآني من النافذة ذات يوم وأنا أغسل الخيار جالسةً على مصطبة بالقرب من حديقة الخضروات. حوّلت بصري بعيداً عنه، لكنه نزل مسرعاً ومرّ من أمامي. قمتُ واقفة وغطيت رأسي. ابتسم ومسّد شاريه. يا حسرة على بجّتي المائل، يا امرأة يا حجرية. علمتُ أنها نهايتي. أردتُ أن أركض هاربة قبل حلول الليل. غير أن حظي العاثر شاء أن يكون محبوبي بعيداً.

حكمت حليق اللحية وذو الشعر داكن الحمرة، والذي كان يقف يومياً في نوبة حراسته أمام المنزل، كان يومها مسافراً إلى قريته لتشييع جنازة أمه. كنتُ وحدي. أقسم بالله العظيم لو كان حكمت موجوداً ذلك اليوم لكنتُ هربت معه، لكنّ هذا لم يكن. أتى الاستدعاء في هيئة أكبر خادماات المنزل سنّاً، والتي طالما تباغت بأنها أدفأت الفراش لكل من محمود باشا كما فعلت مع أبيه وجده، وتقترب الآن من عامها الخمسين. فيما مضى اعتادت أن تستغل مكانتها المميزة لتسيّد الخادماات الأخريات. وقد نقمن عليها وخشينها، لكن ذلك كان منذ زمن مضى. الآن نزلت إلى موضع قوادة الباشا، جعلها هذا طيبة القلب. أعتقد أنها في أعماق نفسها كانت تفهم مهانتنا. لكي تحاول تيسير الأمر علينا، اعتادت أن تقول لنا: "لقد جربتُ ثلاثة أجيال في هذه العائلة، وهذا السيد الشاب أطيب واحد فيهم. لن يكون عنيفاً معكّن. لن يمسكنّ بأي أذى كما كان يروق لجده أن يفعل حين تستبد به الشهوة."

لم تترك كلماتها المطمئنة أي أثر عليّ. رقدتُ في فراشي الصغير الضيق وأطلقتُ دموعي بلا زمام. فيما بعد، حين اقتادني العجوز إلى غرفة الباشا، سقطتُ راکعة على ركبتي وقبّلتُ قدمي محمود باشا. تضرعتُ إليه ألا ينتزع شرفي. همستُ له أنني موعودة لشخص آخر. واعترفتُ بحبي لحكمت. أفضيتُ برغبتي في أن أصير أماً وأن أهب أطفالي الحب الذي أنكرته عليّ الدنيا. لغبائي، ظننتُ أنه قد يعجب لصراحتي، ولكن أثرها كان مختلفاً تماماً. اعتبر تضرعي مقاومة له فزاد هذا من اضطرام نيرانه. نزع عني ثيابي ثم دفعني للوراء على فراشه ونال متعته. من جانبي، وأنا أقسم أنني أصدقك القول في هذا يا امرأة يا حجرية، لم أشعر إلا

بالغضب والبؤس وقلة الحيلة. لم أحس بلمسة متعة، ولو للحظة عابرة حتى. أخافني الدم الذي رأيته على ساقِي. وطوال الوقت كان جسده، بتلال شحمه ولحمه، يضطرب من فوقِي غليظاً أخرج. في داخلي، حرقني الغضب تجاه والديّ لموتهما وأنا ابنة ثلاث سنوات فقط، ولعنتُ جدي الذي باعني مثل قطعة قماش لتاجرٍ عابر.

لاحظ عدم اكتراثي، فأغضبه هذا. "عودي ليلة الغد"، قال وهو يصرفني بصوت السيد الذي يوبخ عبداً جاحداً.

عدتُ في الليلة التالية والتي تلتها وفي كل ليلة بعد تلك الأولى. وبدا كأن عدم اكتراثي يثير شهوته أكثر وصار أكثر تصميمًا على تحطيم إرادتي تمامًا. أراد مني أن أقول إنني أتمتع به. كان ينظر نحوي ويسألني إذا كان ممكناً أن أحبه على الإطلاق. لم أجب قط تلك الأسئلة، غير أنني توقفتُ عن المقاومة. اشترى لي ثياباً، أهداني حللياً ثمينة، وفي إحدى المناسبات جعلني ألبس كما تلبس السيدات الأوروبيات وأخذني إلى حفل استقبال في السفارة الألمانية، حيث قدّمني بصفتي زوجته الإفرنجية، التي فقدت قدرتها على النطق بعد موت مأساوي اختطف والدها. قادني إلى غرفة خاصة في المنزل وخصصوا لي وصيفة تقوم على خدمتي. ذات يوم كان يُسلي بعض ضيوفه في جناحه الخاص. كنت جالسة إلى جانبه، أراقب الرجال يتمادون في سُكرهم شيئاً فشيئاً. قلّة منهم وجهتُ نحوي نظرات الرغبة المكشوفة. وفجأة دخلت الغرفة زوجته الأميرة صبيحة. كانت مسمومة بالغضب. وقفت هناك للحظة، متجاهلة عبوس وجهه. صرخت بكلمات مُسيئة نحوه، مبلغة أصدقاءه أنه كان أضعف من خصي. وإذ نهض ليسوقها خارج

الغرفة، حلت سروالها ورفعت سترتها كاشفةً عن عورتها. وحين أشاح الرجال أعينهم، صاحت بزوجها: " ألم يكن في هذا كفاية لك؟ أجبني، يا كنّاس روث الخيول! " تجمّد وجه الباشا ذعرًا. كان لعرضها ذلك مفعول السحر، فلم يسبق لي أن رأيت رجالاً سكارى يفتقون إلى أنفسهم بهذه السرعة. عندئذ، وحين شعرت بالرضا عمّا فعلت، اندفعت صبيحة خارج الغرفة. فيما سبق لم أكن أحبها للمرة حتى قبل أن يختارني الباشا لنفسه بفترة طويلة. أمّا بعد هذا العرض فقد بدأت أعجب بها. وددت لو أتحدث إليها وأشرح لي بأسّي، لكنني لم أجد الشجاعة قط لأن أواجه غضبها. أسأل الله أن يغفر لي جُبنِي.

لكنني لم أستطع التوقف عن التفكير في حكمت. الوقت الوحيد الذي كنت أطرّد فيه حكمت خارج رأسي حين كان السيد يقضي وطره مني. لم أستمتع بتلك اللحظات قط. أخبروني بأن كبيرة الخدم قد بعثت برسالة إلى حكمت وأبلغته بما جرى. لم يره أحد مرة أخرى قط. أردته أن يعود إليّ، يا امرأة يا حجرية. لو عاد لكنتُ غسلتُ قدميه بدموعي، وتوسلتُ إليه ليغفر لي ويأخذني معه، بعيدًا عن هنا، أبعد ما يكون، غير أنه لم يرجع للمنزل قط. ربما لم يجبني بما يكفي. ربما كان خائفًا من الباشا فهرب، أو لعلها صرّة حُبلى، مثقلة بالنقود، هي ما اشترت اختفاءه.

وها أنا الآن أحمل طفلَ رجل أزدريه. أنا متأكدة أنه صبي، وهذا يزيدني غضبًا على غضب. لن ألدّه طفلًا. لن أجلب هذا المخلوق البائس إلى العالم. سوف أقفز في حضن السماء وسوف أطيّر بعيدًا، يا امرأة يا حجرية. وحين أتعب من الطيران سوف أسقط في البحر وحين يعثرون

عليّ، سأكون طافية على وجه الماء، مثل سمكة ميتة منتفخة، لكن بعينين مغلقتين. سوف أخلد إلى نوم عميق كالبحر. أتفهمين لماذا أفعل هذا، يا امرأة يا حجرية؟ لأعاقبه. هؤلاء البهوات والباشوات الملعونون يظنون أنهم آلهة. يعتقدون أنهم ليس عليهم سوى أن يقولوا لفتاة فقيرة: "أحبك، احلمي مني طفلاً"، وسوف يغمرها الامتنان أمام شفقتهم، وطعامهم، وثيابهم، وأموالهم حتى لن يعود لها في الدنيا كلها مطلباً آخر. كم كرهت لمستة. أسوأ ما كنت أخشاه أن الباشا سيضع ذات يوم بذرتة السامة بداخلي ثم تنبت البذرة برعماً يكبر. ومع ذلك، فحين وقع ذلك لم يعد لدي ما أخشاه. نزلت عليّ طمأنينة وسكينة. فقد عرفت ما يتوجب عليّ فعله. لا مزيد من الهم والغم في حياتي.

منذ اليوم الذي فقدت فيه محبوبتي حكمت، ببشرته الناعمة وعينه الباسمتين، ما عادت الشمس تشرق عليّ. في إسطنبول، تجنب الباشا قدر استطاعته تركي بمفردي. ظن أنه يبهجنني برفقته. كنتُ في صحبته أشعر بالوحدة أكثر مما أشعر بها في أي وقت آخر، خصوصاً حين ينتفخ بالشهوة ويصدر نحيباً مثل حمار يسير على جمر. لم يكن يمر يوماً واحداً دون أن أسأل نفسي ماذا عليّ أن أصنع بحياتي.

ماذا عليّ أن أصنع، يا امرأة يا حجرية؟ أنت تصغين، ولكنك أبداً لا تردين. لو بوسعك الكلام فقط. ولو لمرة واحدة. هل ترين السماء الليلية؟ إنه الهلال، والذي يسافر على الدوام مُسرِعاً مثل من يفتش عن حبيب ضائع، لكنه سرعان ما يكتمل منتفخ الاستدارة، مثل بطني، وإذا يكتمل أعلم ما عليّ أن أصنع. سأصعد نحو الجروف الصخرية الشاهقة وأطير

لألحق بالقمر . سوف أضحك وأنا أقفز . سوف تتبدد المسافات وفي ذلك
اليوم سأكون واثقة أنه ما من رجل آخر يمكنه أن يقتحم حياتي مرة أخرى
أبدًا . سوف أضحك حين أفكر في وجه الباشا السمين ، الشاحب من
الغضب ، حين يبلغونه نبأ جاريته التي حطمت قيودها . سوف يعلم لماذا
فعلت هذا ، وسوف يزيد هذا من ألمه . سوف يعلم أنني رحلتُ عن هذا
العالم لأنني لم أعد أطيق لمسته ولا الحمل بطفله . لن يكون بمقدروه أبدًا
البوح بالحقيقة لأي إنسان ، لكنني أرجو أن ينهش السر أحشاءه من الداخل .
أريده أن يقاسي في موته عذابًا خالصًا . وندمي الوحيد هو أنني لن أعيش
لأشهد ذلك اليوم .)

(٥)

بتروشيان يحكي عن أيام مجد الإمبراطورية العثمانية؛ سلمان
يصر على أن الحدود ما بين الخيال والتاريخ صارت غائمة؛
نيلوفر تكتب رسالة وداع لزوجها اليوناني؛ وختان أورهان
المتأخر على يد الشاب سليم.

في البداية رأيتُ من بعيد الإيماءات الغريبة التي كان يؤديها،
فجعلتني أبتسم. أعرف بدقة ما كان يفعله العجوز بتروشيان. ومثل كل
شيء آخر في هذا المنزل، أنعشَ هذا ذكريات طفولتي. كانت مشاهد من
ماضيٍّ تتكرر، ولكن هذه المرة لخاطر ابني. أحسستُ بالفرح، كان
بتروشيان مستغرقاً في طقسه المنزلي الأسبوعي المقدس، والذي لا يأتمن عليه
أي شخص آخر أبداً. كان يلْمَع طاس الحلاقة الفضي القديم الخاص بأبي،
والمجلوب من باريس قبل سنوات عديدة. يعتز أبي به كثيراً، ولذلك أخذ
بتروشيان على نفسه عهداً ألا يدع الطاس يفقد بريقه أبداً. عادةً ما توكل
مثل تلك المهام إلى خادم أقل شأنًا، ولكن لا بد أن بتروشيان، الذي رافق
إسكندر باشا إلى باريس على الدوام، كان يعرف القيمة التي يضيفها سيده
على هذا الغرض بالذات.

كان أورهان والأطفال من جناح الخدم يشاهدونه مسحورين، تماماً كما اعتدنا ونحن صغار. سرّتُ ببطء في اتجاههم، غير أنني كنتُ أعلم أي قصة يحكيها لهم حتى من قبل أن أسمع الكلمات المنطوقة. كنتُ سعيدة وحانقة في الوقت ذاته. بقدر ما أردتُ لأورهان أن يكون جزءاً من هذا العالم، وأن يتقبله أبي، أردتُ أيضاً أن تتغير الأحوال. بدا أن كل شيء ثابت في مكانه هنا بلا حراك، كالمرأة الحجرية سواءً بسواء.

"وهل تظن، يا سيّدي الصغير أورهان، أن السلطان محمد الفاتح أصغى إلى وزيره، وإلى نواحه وعويله كالعجائز المرتعدات خوفاً؟ كلاً. رفع يده ليقول "كفى". لقد استمع السلطان بما يكفي لذلك الحديث. والآن أراد أن يأخذ المدينة التي تدعى القسطنطينية. أراد أن يعتلي الأسوار القديمة لبيزنطة منتصباً القامة، وأن ينظر نحو أوروبا. علم السلطانُ محمد أننا إذا أردنا أن نكون قوّة في أوروبا فلا بدّ من الاستيلاء على تلك المدينة. بدونها ستبقى إمبراطوريتنا عوراء دائماً وأبداً. كنا بحاجة إلى القسطنطينية لننظر إلى كل ما يمتد وراء البوسفور.

"يقولون إنه كان يوماً جميلاً من أيام الربيع حين أصدر السلطان محمد أوامر التأهب للمعركة وضرب الحصار على المدينة. سوف نشيّد حصناً على الجانب الآخر من المياه للسيطرة على جميع مداخل مدينتهم، ولسوف تسقط. كان محمد العظيم على ثقة تامة من هذا، وقد سرّتُ عدوى إرادته القوية وعزمه الراسخ إلى كل جندي. أمرت الأمهات أبناءهن بالذهاب للجهاد في سبيل ديننا. تخيّل الحماسة التي لا بدّ أنها اكتسحت الجيش كالعاصفة. لقد صدرت كلمة السلطان بأننا سوف نستولي على المدينة،

وأمر جنابه العالي بأن يتغذى الجنود جيداً. في تلك الليلة، نُحرت مئآت من الحملان ثم طُيبت بالأعشاب الطازجة وشويت على السفود ليطعمها الجنود. خيِّمت رائحة الشواء المفتخرة على المعسكر بكامله. وأنا متأكد أنها قد بلغت ولا بدّ أنوف المدافعين عن القسطنطينية. . . ."

لَمْ لا يتبدل أي شيء أبداً في هذا المنزل؟ حين كانت نفس تلك القصة تُحكى لي وعلى لسان نفس هذا الحكّاء، أتذكر جيداً أن الماعز لا الحملان هي ما أعدت لطعام الجنود، وربما بعد عشر سنوات من الآن ستكون طواويس. لم أعد أهتم. لا فرق في هذا، ومع ذلك لم أستطع منع نفسي من التأثير إذ أرنو إلى وجه أورهان متأجباً بالحماسة. كانت عيناه مثبتتين على بتروشيان. لقد ولج ولدي الصغير إلى عالم السلاطين والجهاد المقدس. كم كان هذا كله مختلفاً عن حكايات ما قبل النوم التي كنتُ أنا وديميتري نرويها له في بيتنا. لقد ربّيته على حكايات عائلتنا، حكايات الأعمام والعمات وأبنائهم الموزعين على أجزاء مختلفة من الإمبراطورية. كانت طريقيتي لإرشاده نحو جغرافية عالمنا ومُدننا. كانت حكايات مفعمة بالسعادة والمغامرات، صُممتُ بحيث تجعل العالم الذي تعيش فيه عائلته أليفاً أنيساً.

لم يتحدّث والد أورهان قط عن إمبراطوريتنا العظمى. هكذا تجنّب كلاً من المدح والقدح. لم تكن أمجاد العثمانيين وشروهم موضوعاً شديداً القرب من قلب ديميتري. كان على قومه أن يجاربوا للتحرر من حُكمنا منذ عشر سنوات فقط. ولم يكن من المفاجئ أن يأخذ ديميتري جانبهم، رغم أنه كمعلم مدرسة أضطر للاحتفاظ بأرائه لنفسه. حتى في البيت نادراً ما ناقشنا

تلك الأمور. الحقيقة، إذا تحريتُ الأمانة مع نفسي، لا بدّ أن أعترف بأننا منذ زواجنا نادراً ما تحدثنا عن أي شيء مُهم. في بعض الأحيان كنتُ أستفزه عامدة، فيحتدّ وينفعل عليّ، ويلعن اليوم الذي عشقَ فيها عثمانية. أقوال كهذه كانت تدفعني للضحك وحسب، وهو أمر مؤسف لأنه لا يفيد إلا في إطالة نوبة حنقه. كان من العسير عليه أن يصدّق أن كلا أخوي أشدّ منه انتقاداً للسلطين ولحاشية بلاطهم، ولكن عندئذٍ لم يكن ديميتري يفوّت الإشارة أبداً إلى أنهما لا يخافان شيئاً.

ديميتري رجلٌ طيّب، أنا واثقة من هذا. ومع ذلك فثمة أوقات تصير فيها الطيبة مضجرة ومرهقة. بعد أن وضعتُ ابنتي بدأتُ أتساءل ما إذا كنتُ قد ارتكبتُ خطأ. هل أحببته حقاً، أم أن معارضة أبي هي ما أوصلت عقلي أمام أي احتمالٍ آخر؟ ما أبديته من تحدٍ لإسكندر باشا فقد بريقه وبخس ثمنه مع الوقت، وتركني بمفردي أواجهُ وجودي اليومي. سئمتُ ديميتري. سئمتُ نكاته. سئمتُ شعره السيء. سئمتُ سُخطه ونقمته. سئمتُ رؤيته يرتدي ثيابه على الطراز نفسه في كل يوم دون استثناء، وما ضاعف سوء هذا كله أنني كنتُ قد سئمتُ جسده. لم يعد يمنحني متعة. لم يتبق شيء. صارت حياتي عبثاً، وشعرتُ أنني أختنق.

أحسّ هو بلامبالاتي المتزايدة. كان من الصعب أن أخفي مشاعري طيلة الوقت. لا بدّ أنه قد بدأ يكرهني بداخل رأسه. أحياناً كنتُ ألحُ نظرةً على وجهه تشي به، لكنه كبح غضبه. كان يخشى من أنني ذات يوم قد آخذ الطفلين وأعود إلى منزل عائلتي. لا بدّ أن هذا هو سبب تحمّله جفائي في صمتٍ تام، ما جعل الأمور كلها أشدّ سوءاً. لم يسمح قط لمشاعره تلك

بأن تشوب المظاهر الخارجية، وما أفلحَ هذا إلا في مضاعفة سخطي عليه . لو خانته تحفظه مرة وقذفني بالإساءات في وجهي أو صاح في لعلني كنتُ سأفكر فيه أكثر، غير أنه التزم صمته . الأهم من كل شيء أنه لم يهمل طفليه قط . كان هذا هو الاختلاف الكبير عن حال منزلنا، فرجال عاتتنا هنا وفي إسطنبول لا شأن لهم بالمرّة بالأطفال وباحتياجاتهم . كان هذا عمل النساء، بمعونة جيش من الخدم على الدوام . لم يكن لدينا في قونية إلا خادمة واحدة فقط . نعم، واحدة فقط !

اعتاد ديميتري أن يضع أورهان في فراشه وقت النوم، وأن يحكي له حكايات أرباب وربات الإغريق القدامى . طالما أرادَ أورهان أن يكون هرمس . لا يرغب أبداً في أن يكون زيوس أو نيتون أو أبولو أو مارس أو كيوبيد، ولكن هرمس . أعجبه فكرة الرب الذي كان يؤدي مهمة الرسول، وأحياناً ما طارَ من أبيه إليّ حاملاً رسائل متخيّلة . أكثر ما أحببته أنا وأورهان حقاً، حين كان ديميتري يتحدث عن الآلهة القديمة، أنهم لا يختلفون عن البشر . يتناحرون ويتحاربون فيما بينهم، ولهم تحيزاتهم على الأرض . وتنافسوا على إرضاء زيوس . كان كل هذا واقعياً للغاية .

كان يمكن لحكايات العجوز بتروشيان عن الأبطال العثمانيين أن تكون مثل ذلك، ولكن العجوز قد لُقّن حرفته في مدرسة العبيد . ليس لدي أدنى فكرة كم من الزمن خدم أسلاف بتروشيان عائلتنا، لكنه يعلم كما نعلم نحن أن العلاقة كانت قديمة للغاية . دائماً ما كان هناك "بتروشيان" ما في أسرنا لما يقارب المئة وخمسين عاماً . وهكذا فإن محمد الفاتح فوق النقد والشبهات، حتى أهونها وأبسطها .

حين كنا صغاراً، اعتاد أخي سلمان أن يخلق قصصاً، تصوّر السلطان محمد في صورة بالغة البشاعة. كان يقاطع بتروشيان في منتصف الحكاية ويسأله بتعبير برئ على وجهه. "ولكن يا بتروشيان، أليس هذا هو محمد نفسه الذي أمر بأن يُلقى أخوه من أمه حياً في الزيت المغلي، ثم أطمع أحشائه للكلاب لمجرد أن الرجل سيء الحظ عجز عن التحكم في نفسه وأطلق ريحاً في حضرة السلطان؟"

كانت ملاحظات من هذا القبيل تؤلف لإضحاكنا من ناحية، وهو ما كنا نفعله، ومن ناحية أخرى من أجل تحديّ الحكاء وإغاظته. ظلّ بتروشيان صامداً في وجه كل استفزاز، فلا يستاء ولا ينبسط أيضاً، ولا يخالط تعبير وجهه أهون ابتسام أو أثر طفيف من عبوس. كان فقده لانتباهنا ما يضايقه، وفي تلك اللحظات، كان يشبه راعياً سرقت عصاه وتشتت خرافه بين جنبات التلال. بدلاً من تجاهل نكات سلمان، انتهى الحال بتروشيان إلى التعامل معها بجدية تامة وتفنيد كل الفظائع الخيالية التي يلفقها أخي لتلوّث أسماء السلاطين.

مرة واحدة فقط غلب بتروشيان على أمره وضحك. كان سلمان قد قاطعه وهو في أوج تدفقه، طالباً رأيه في مسألة ذات أهمية.

"يتعلق الأمر بالسلطان سليم السكّير^(١). هل تعتقد أن الحكايات التي يروونها عنه صحيحة يا بتروشيان؟ يقولون إنه كان يشرب كثيراً جداً حتى صار عاجزاً عن أداء واجبه الأساسي كرجل. أغضبه هذا غضباً هائلاً، لأنه كلما شرب المزيد من الخمر اتقدت نيران رغبته. كان يستमित لكي يُنهض الشيء الصغير المدلل بين ساقيه ويشرع في عمله، ولكن، وأسفاه، لا يشاء الله

ذلك . يقولون إنه حين كان يستدعي إحدى زوجاته إلى غرفته ، اعتادوا أن يرفعوه للأعلى بأربطة حريرية وبينما هو مثبت هكذا بأيدي الخصيان ، يلاطف غلمان صغار بأيديهم الرقيقة ما بين ساقيه حتى يشعر بإحساس ما بينما يُستدعى إلى الغرفة انكشاريٌ معافى البدن وهو عار معصوب العينين . كان الجندي المخلص يباشر تلقيح الأميرة المغتبطة بعينين مغلقتين بشدة ، هي الراقدة تحت السلطان الطافي فوقها ، كانت تتوقع الأسوأ ، لكنها تنثني أمام قوة المفاجأة . وطوال كل هذا الوقت ، كان ظل الله على الأرض ، في ذهوله المخمور ، يرى السعادة البادية على وجه زوجته ويسمع فحيح توجعها النشوان . وهكذا ، كما يقولون ، كان الكل يتراضى . هل يمكن أن يكون هذا صحيحاً؟ وإن كان كذلك فإن خط السلالة التي يدعيها سلاطيننا والممتدة منذ عثمان نفسه قد تعرض لقطع باتر . أجبني ، يا بتروشيان !"

لم يستطع بتروشيان الاحتفاظ بوجه معتدل في أثناء هذه القصة . أرخى عنان تحفظه وضحك ضحكاً جمًّا ، ما أبهج سلمان كثيراً ، الذي لم يسبق له قط أن ذاق طعم نصر لذيذ كهذا . بعد هذا صرنا مرتبطين للغاية بتروشيان ، إذ أدركنا أن وقاره بدرجة كبيرة ليس إقناعاً .

" لا بدّ أن الشيطان نفسه هو من نقل إليك تلك الحكايات يا سلمان باشا . ليس لدي أي علم بها . "

فيما أنظر نحوه الآن ، أستطيع أن أعرف من خلال إيماءات العجوز وتعبيرات وجهه أن القسطنطينية قد سقطت . منع السلطان محمد أعمال السلب والنهب واستقبل آباء الكنائس المسيحية . انتهت المغامرة . كان أورهان الصغير قد بدأ يتململ . حان وقت إنقاذه .

"أصحيح كل ذلك؟" سألني بينما نمضي بعيداً.
أومات.

"أيقول أبي إنه صحيح؟"

"لا أدري يا أورهان. لا أدري. هل أوحشك؟"

هز كتفيه وأشاح بوجهه لكي لا أراه. إنه يدرك أنني وديميتري لم نعد مقربين كما كنا. يمكن للطفل أن يستشعر مثل تلك الأمور أكثر مما قد يدرك أبواه. يعرف ابني أننا لم نعد سعيدين. ومع ذلك، في هذا المنزل، بعيداً للغاية عن مسكننا الضيق المزدهم في قونية، تنحى غضبي جانباً. صار مزاجي أكثر سخاءً. لم أعد أشعر بالحاجة لمعاقبة ديميتري. بل إنني لم أعد أتمنى موته. كل ما هنالك أنني لم أعد أريد أن أكون بصحبته من جديد أبداً. كانت فكرة أن أكون بين ذريته مرة أخرى مقرزة إلى حد أن تثير تشنجاً أسفل معدتي.

سار أورهان مبتعداً بمفرده. بدأ ببطء يستكشف المنزل والغاز الأجواء المحيطة به. كثيراً ما أراه متجهاً نحو الصخور، محدثاً نفسه. فيم كان يفكر؟ وما الصورة التي كونها عن عائلتي؟ أحياناً أرمقه يحملق في أخوي، ثم يشيح بوجهه سريعاً لينمغ نفسه من الابتسام خشية أن ألحظ فرحته. كان سعيداً هنا. يمكنني أن أرى هذا في وجهه، لكنني أعرف أيضاً أنه يفتقد أباه وأخته. اقترحت عليّ أمي أن أبعث برسالة إلى ديميتري، أدعوه لأن يحضر أمينة إلى هنا وأن يقضيا بضعة أيام معنا ليراه ابنه. لم أجادلها في ذلك، وفعلت ما طلبت.

"العزیز دیمتری" ، أرغمتُ نفسي على أن أكتب . "أصيبَ أبي
بجلطة . وفي وجود أورهان ترویحٌ عظیمٌ عنه . أنوي المكوث هنا لبقية
الصيف ، وبعده سوف أرجع إلى إسطنبول مع الأسرة لكي أضع خططاً
لتعليم ابنتنا ومستقبله . أورهان يفتقدك أنت وأمينة بشدة . اقترحت أُمي أن
تأتيا لزيارتنا هنا . أراها فكرة طيبة ، ولكن على شرط ، طبعاً ، هو ألا تتوقع
مني شيئاً . نيلوفر ."

أرسلَ ابن البستاني إلى قونية بهذه الرسالة . أثارَت أُمي مسألةَ أخرى
معني ذلك اليوم . كان أمراً أترقبه في وجل ، ولكنني محوته من عقلي على أمل
أن يرحل عني .

"نيلوفر" ، قالت بصوتٍ خادعٍ المودة ، "عندي ما أقوله لك ."
أومأت .

"هل خُتَنَ أورهان؟"
"خُتَنَ ، طبعاً ."

"تكذابين يا بُنيتي . الخادِمات اللاتي يحممنه يُقسمن بخلاف ذلك . لا
حديث للخدم إلا عن ذلك ."

انخرست وبلعتُ غضبي . حين وكَّد أورهان أردتُ أن أختنه ، غير أن
دیمتری قد مانع ورفض . جادلني قائلاً : "إنها لعادةٌ بربرية ، ولا أريد لهذا
العقاب أن ينزل بولدي . " كنتُ في تلك الأيام مفعمة بالمحبة نحوه بحيث لا
أعصي له أمراً ، فطاوعته رغم عدم ارتياحي حتى في ذلك الحين . مجرد ذكرى
ضعفي نحوه تغضبني الآن بينما أنظر في عيني أُمي الجميلتين .

" هذا شيء لا بد منه، يا نيلوفر . بين ديني ودين أبيك هناك اتفاقٌ على ضرورته . وخيرُ البر عاجله . لقد أرسلتُ في طلب حسن من إسطنبول . "

صرخت . " كلاً! إنه شيخٌ في التسعين من عمره . ما العمل لو زلت يده؟ إن قدمه في القبر بالفعل ، فلماذا يجب أن يحرم أورهاني من عضو رجولته؟ الولد صار كبيراً للغاية الآن يا أمي . ألا يمكننا أن نُجنبه هذا العذاب؟ "

لدهشتي انفجرت أمي ضاحكة . " أتظنين أنني سأدع ذلك الكبش العجوز يقترب من أورهان بشفرته؟ إن من يقوم بالعمل الآن هو حفيده، سليم . سوف يأتي حسن لأنه خدم عائلتنا طوال عمره . كان أبوه هو من يخلقُ لجد إسكندر باشا وحسن هو من ختن أباك وأعمامك وأخويك . لقد صحبَ أباك إلى باريس حلاًقاً خصوصياً له . لو أننا تجاهلنا دعوته لحضور الاحتفال لاعتبرها إهانة واستاء منا . ولا تنسي شيئاً، يا نيلوفر: لا يكبر الرجل أبداً على الختان . وأنا صغيرة كانت أمي تحكي لي قصصاً كثيرة عن أجدادنا الذين لم يُختنوا في إسبانيا خوفاً من أن يكتشف الكاثوليك أنهم كانوا يهوداً، ولكن في لحظة وصولهم إلى إسطنبول سرعان ما يُستدعى الحجام لأداء الواجب . كانت مسألة شرف وكبرياء في تلك الأيام . "

اطمأنتت ، لكنني بقيتُ حزينة . انصبَّت الدموع على وجنتي صباً . امتدت أصابع أمي النحيلة الطويلة ، بأظافرها المخضبة بالحناء ، تمسد وجهي في رقة . كم تمنيتُ أن تكون أمي مسيحية ، وليست يهودية! ربما كانت ستدعم موقفني عندئذ . ربما كان بوسعنا رشوة الحجام ليتظاهر بأنه قد ختن أورهان . صار الآن كبيراً بما يكفي لأن يحمم نفسه ، ولم ترق لي فكرة أن تتفحص الخادמות الصغيرات جسده في حمامه كل يوم . كان ينبغي ألا يحدث هذا .

في اليوم التالي وصل حسن وحفيده من إسطنبول. فقد حسن كل شعره، وسارَ منحنيًا متوكئًا على عصا سميكة، طرفها الأدنى مطوق بحافة حديدية صدئة. استقبلته في غرفة استقبال أمي.

قال بصوت كالنعيب: "ماذا دهاك يا بُنية، أنجبتِ ولدًا وفاتك أن تختنيه! هل منعك اليوناني؟"

"بالطبع لا، يا حسن بابا"، أجبته بصوت مُقتعل حتى أنني بالكاد تعرفتُ فيه على نفسي. "كيف لي أن أختن أورهان من دونك؟ لكنك بهذا أخالف تقليدًا عائليًا عتيقًا."

قال ضاحكًا وكاشفًا عن فم يخلو من الأسنان، "كنتُ مستعدًا للذهاب إلى قونية، فأختن الأب هو أيضًا."

حاولت أمي أن تخفي ابتسامه. قررتُ أن أغير الموضوع.

"لم أعلم بالمرّة أن أبي قد أخذك معه إلى باريس قبل كل تلك السنوات. لا بد أنك ارتحت حينذاك من أداء عمليات الختان."

غمغم: "ارتحت من أداء كل شيء. أخذني أبوك إلى هناك لمجرد الاستعراض، وافق هذا هواه. رأى أن الفرنسيين سوف ينبهرون إذا اصطحب معه حلاقه الخصوصي. في باريس، كان من يخلق شعر أبيك لوطي فرنسي عجوز. عن نفسي، رأيتُ أساليب أرقى في إسطنبول. تقلّصت مهمتي إلى تشذيب لحيته وقص أظافره مرة كل أسبوع. ذات يوم قرر والدك أن يهينني. أراد الحلاق الفرنسي أن يراقب نظيره العثماني وهو يعمل. أعددتُ مقصي لأهدّب شعر إسكندر باشا، حين اقترح، على

سبيل التسلية، أن أقص شعر الفرنسي بدلاً من شعره. في البداية غضبت، لكنني بعدها رأيتُ في العرض فرصتي لرد الإساءة. تظاهرتُ بالمرح والمودة. أجلسْتُ الفرنسي في مقعد مريح. دلكتُ رأسه بالزيت لكي يسترخي تماماً. أغمضُ عينيه متمتعاً بذلك الإحساس اللذيذ. فحلقتُ له رأسه حلاقة الجنود. ثار صارخاً من الغيظ وهو يرى خصلاته الرمادية المموجة تسقط على الأرض، ولكن بعد فوات الأوان. راح يسبني، لكنني كنتُ الفائز. اضطر أبوك إلى شراء باروكة ثمينة للغاية من أجله ووهبه صرةً مثقلة. بعد تلك الحادثة لم يجرؤ الفرنسي على أن يرفع عينيه فيّ. كان يدير وجهه المغطى بالبودرة بعيداً كلما رأني، ولكنني كنتُ أقرب منه وأهمس له بالفرنسية: "موضة إسطنبولية. تري بيان مُسيو، هه؟" أطلق حسن ضحكة أشبه بقوافة الدجاج تحيةً لهذه الذكرى.

لم أستطع منع نفسي عن مناكفته. "وكيف كنتَ تشغل نفسك إذن يا حسن بابا؟ سمعتُ أنك بدأت ترتدي ثياب الباريسيين وتزور الملاهي الليلية. بل يقول البعض إنك اتخذت عشيقة فرنسية."

أجاب: "قطع الله ألسنة السوء التي تبخ تلك السموم، لقد أمضيتُ أغلب وقتي في باريس دارساً القرآن الكريم."

كانت كذبه فاضحة بحيث غلب الضحك ثلاثتنا. ثم طلب الإذن ليقدم لنا حفيده، سليم.

"فتح صالون حلاقة خاصاً به في إسطنبول، وتحت يده ثلاثة صبيان، أحدهم موهوب جداً. وأغلب زبائنه من الغربيين. تردد في المجيء معي إلى هنا، ولكنني أخبرته إن ختان حفيد إسكندر باشا شرف كبير. سليم، يا سليم!"

دخل الغرفة شابٌ لم يكد يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره على الأكثر، وانحنى بانجافنا في تكلف. أشارت أمي بأن عليه أن يجلس فاتخذ مقعداً دون أدنى أثر من حرج أو تعثر. كان انطباعي الأول عنه طيباً. كان له وجهٌ ذكي، و كان حليق اللحية ويرتدي ثياباً غريبة ولا يغرس بصره في الأرض بتواضع زائف حين أتحدث إليه. على عكس حسن، كان يتحدث بصوت خفيض ومُطمئن.

"أورهان بيه في العاشرة من عمره تقريباً وأدركُ أن القلق يساورك بشأن العملية، يا "هانم إفندي" (٢)، لكنها ستكون آمنة وبلا ذرة ألم. الفكرة في حد ذاتها ما قد يخيفه، وما قد يدفعه للمصراخ، وليس الختان نفسه. هل حددت يوماً؟"

"بعد ثلاثة أيام. هل أنت واثق أن بوسعك الغياب عن إسطنبول كل ذلك الوقت؟"

ابتسم. "أخبرتهم أنني قد أغيب أسبوعاً، يا حضرة الهانم."

أشارت أمي بإيماءة هينة أن بوسع الرجلين المغادرة. وبينما يخرج العجوز حسن، تذكر فجأة أنه لم يواسِ أبي في مصابه.

"سأذهب الآن لإبداء احتراماتي لإسكندر باشا. ستكون هذه أول مرة أتكلم فيها أنا بينما سوف ينصت هو. ربما ستكون هذه صدمة كبيرة له فيحرك الله لسانه بالكلام من جديد."

بعد أن ذهباً سألتُ أمي كيف عسانا ننقل النبا إلى أورهان. اندهشتُ حين أخبرتني أنها قد فعلت ذلك من قبل وأن الصبي شعر بارتياح هائل للخبر.

" قال لي إنهم كانوا يغيظونه في المدرسة لأنه مختلف . يقول إنه سوف يتحمل الألم كالرجال . "

" وكيف له أن يتحملة بخلاف ذلك يا أماه؟ "

وهكذا جرى الأمر، فألبسنا أورهان عباءة حريرية عليها زركشة بديعة، وبينما أطلقت الجواري أصواتهن بالغناء في الغرفة المجاورة، قص سليم بسرعة الجلد المخزي . لا صرخ أورهان ولا بكى . ابتسم . صفق أبي ، الذي أصر على الحضور ، استحساناً وأهدى أورهان حافظة جُبلَى بعملات ذهبية . الشيء ذاته الذي أهدى له في يوم ختانه . دخل كل من العم محمد والبارون الغرفة وقبلًا أورهان . ذهبت أمي إلى المطبخ بنفسها وأشرفت على إعداد " اليور " . لم يكن أورهان حتى ذلك الحين قد تذوق هذه الحلوى .

" مم صنعت؟ " ، سأل أمي بعد أن تذوق أول قطعة قدمتها له في مغرفة فضيَّة .

" يقولون إنها صنعت أول مرة عندما أدرك سيدنا نوح أنه لم يبقَ في فُلكه زادٌ كاف . فأمر النساء أن يضعن كل شيء في وعاء لإعداد وجبة واحدة أخيرة . وفي الوعاء الكبير امتزج الدقيق بالزبيب والمشمش والتمر والتين والبقول السوداني ، وتركوا هذا المزيج كله يغلي لساعات عديدة ، حتى صار شكله هكذا . والآن هلاً وقفت يا أورهان ، لتأتي معي حتى يمكننا أن نوزع الحلوى على الخدم . "

" قبل أن أفعل ذلك ، هل يمكنني أن أقدم بعضاً منها لسليم؟ "

صحتُ في ارتياح : " بالتأكيد ، هو قَبَلُ الجميع . "

(٦)

إسكندر باشا يسأل زواره عن تفسيرهم لانهباء الإمبراطورية؛
البارون يشير إلى خلل في نظرية حلقة العدل؛ ولا مبالاة
سكمان عميقة الجنور.

كانت صحة أبي تتحسن بوتيرة يومية. بوسعه الآن السير دون
مساعدة أحد، وكما أسرت لي أمي، فقد استرد نشاطه في الفراش من
جديد، بمزيد من الحرارة العاطفية لتجاوزه فترة الحرمان. وبدا وجهه أفضل
حالا كذلك، تبدد الشحوب وردت له الشمس لونه. كان يقرأ كثيراً،
روايات فرنسية أغلب الوقت. أحب بلزاك وستاندال، لكنه كره زولا.
كتب في دفتر ملاحظاته أن زولا كان وغداً ومؤمناً بمذهب الفوضويين، غير
أن كلماته المكتوبة لم تكن قط بديلاً كفوفاً للحديث. لو أن بمقدوره النطق
للعن زولا بلغة ينجل من تدوينها على الورق. عرف أن قدرته على
الحديث قد فارقتة إلى الأبد ووجد من العسير ابتلاع هذه الحقيقة.

لكنه أصبح أكثر عزمًا وحزمًا، وخصوصاً حين كنما يجتمع في غرفته
لنروي حكاياتنا. إنه الآن مصمم على أن يمنع أي حوار حول تاريخ العائلة.
أراد أن يحننا نحو حديث أسمي. ذات مساء خطّ سؤالاً بحروف كبيرة على

دفتره ورفع بتروشيان السؤال أماننا واحداً بعد آخر . كان يُقرأ: هل يستطيع أيُّ منكم أن يفسر سبب انهيارنا المتسارع؟ إذا كان قيصر روسيا وإمبراطور النمسا ما زالاً محتفظين بقوة بالغة ، فلماذا يفقدها سلطاننا؟

كان الجميع حاضراً . تبادل كلُّ من محمد والبارون نظرةً ضجرة . ابتسم سلمان في مكر . قبلت زينب يدي إسكندر باشا وانصرفت . خليل ، وحده ، هو من أظهر بادرة اهتمام .

" لقد أخفقنا في تجديد أنفسنا يا أبتى ، وهذا هو الثمن الذي علينا أن ندفعه . أعطينا رجال الدين سلطة فائقة في تحديد مستقبل هذه الدولة . كان يمكن لإسطنبول أن تكون عاصمة للإبداع والتحديث على غرار قرطبة وبغداد في الأيام الخالية ، ولكن اللحى الذميمة التي تسن قوانين دولتنا خشيتُ أن تفقد استثنائها بالسلطة والمعرفة . نسيتُ اسم الأحمق الذي قال للسلطان إنه إذا تراخت قبضة القصر الحاكمة فسوف يذهب ديننا بدداً . في مستهل القرن السادس عشر ، كان لكل مدينة كبرى في الغرب صحافتها المطبوعة ، في حين هدّد السلطان سليم بالموت كل من يبدي أهون اهتمام بهذا الأمر . "

كان إسكندر باشا يلوّح بيديه لمقاطعة ابنه . توقف خليل عن حديثه لبرهة بينما أقرأ لهم ما كتبه أبي .

" لم يكن خوفاً بلا أية مبررات يا خليل . كان وزراء السلطان يراقبون أوروبا من كتب . وكان كبير الوزراء مدركاً أنه في غضون ثلاث سنوات حاسمة ، منذ ١٥١٧ إلى ١٥٢٠ ، دمرت الصحافة المطبوعة سلطة الكنيسة الكاثوليكية : ثلاثمائة ألف نسخة من عمل مارتين لوتر طُبعت ووزعت في هذه الفترة . "

"مع كامل احترامي يا أبي، فقد كنتُ متبهاً لهذه الحقيقة، ولكن الثمن الذي تكبدناه بسبب انكفائنا إلى الماضي كان باهظاً للغاية. لقد أحكمنا غلق أبواب الإمبراطورية أمام تقدم تكنولوجيا له أهمية حاسمة. والعلماء، شواهم الله في نار جهنم، عارضوا التحديث في ثبات عنيد، وقد أيد رأبهم هذا أغلب السلاطين ومن أحاط بهم من خصيان وانكشارية. إنه اعتداءٌ مُشين أن نستبعد الصحافة المطبوعة لنمنع انتشار المعرفة. وحتى إذا اختلفت مع الصحافة المطبوعة، وإن كنت لا أرى حقاً كيف يمكنك هذا، فسوف توافق بكل تأكيد على أن منع الساعات الكبيرة في الأماكن العامة هو محض هراء. هنا أيضاً، أصرت اللحي الملعونة على أن الوقت لا يمضي خطأً مستقيماً، بل إنه مقدس ودائري ولا يمكن تحديده إلا بصوت المؤذن يدعو للصلاة. أعتقد أن انهيارنا عقوبة نستحقها. هذه الإمبراطورية تنصهر وتتبدد تحت أبصارنا ورجال الدين والسلطان يتفرجون في صمت. فات الأوان الآن. ليس بوسعهم فعل أي شيء. يرغب كل من البروسيين والبريطانيين في الإبقاء علينا أحياء لأسبابهم الخاصة. وإن لم يكن هذا هو الحال، لكان قيصر روسيا قد أكلنا أحياء الآن. إننا نعيش على وقت مُقتَرَض وعلى مال مُقتَرَض. بدأ بعضٌ منا في الجيش يناقش المستقبل منذ فترة. لقد زالت الإمبراطورية يا أبتى. والسؤال الوحيد المهم هو ما الذي سوف يحل محلها."

دفع حديث خليل الجميع للاستغراق في التفكير. كان العم محمد أول من تكلم بعده.

"في ما قلته الكثير من الحكمة يا بُني، ولكنني لا أعتقد أن مشكلاتنا ثمرة تجاهلنا ببساطة للصحافة المطبوعة. أرى أن الانهيار قد بدأ قبل وقتٍ

طويل جداً، من قبل منفى يوسف باشا حتى . لقد كان حكامنا في غاية السرور من انتصاراتنا العسكرية إلى حد أنهم أخفقوا في ملاحظة كل ما يجدهم من قيود . كانت هناك صلة مفقودة في حلقة العدل . هل أنا على صواب أيها البارون؟ "

أوماً البارون موافقاً . " كانت الحلقة ذات نفع ، لكنها شأن قابوس نامة صاغها شخصٌ فارسيٌّ وكما ندرك ، يمكن للفُرس أن يكونوا شعراء مُجيدين ، لكنهم ساسة سيئون وكهنة أسوأ كثيراً . "

أشار أبي لنوليه الانتباه . تلوتُ عليهم ما كتبه .

" يدهشني ولدي خليل بفطنته . أرى أن إخفاقنا في تحديث أنفسنا مع بداية هذا القرن كان نتيجة رفضنا لتبني الصحافة المطبوعة واختراعات أخرى من بريطانيا وفرنسا . فهل يمكن للبارون أن يفسر لماذا ينظر إلى حلقة العدل بمثل هذا الازدراء؟ لقد درسنا منافعها حين كنا نتعلم فن الحكم . ولا أرى أي خطأ في النظرية السياسية التي حكمتُ إمبراطوريتنا على مدى قرون . إنها لأفضل كثيراً من تلك الديمقراطية التي يستسيغها بسمارك . "

كان البارون منشغلاً بقرقشة اللوز والفسق المحمصين ، فتنحج في عجل ، حتى كاد يخنق لهذا . نظف ببعض الماء آثار المكسرات ثم قرب مقعده من موضع جلوس أبي مرتباً على فراشه .

" سوف نناقش حكاية بسمارك في وقت آخر ، يا إسكندر باشا ، ولكن ستكون غفلة منك إذا استهنت بعبقريته . لقد صنع ألمانيا جديدة . ولكي يفعل هذا ، نسف الدعائم التي تحمي إمبراطورية النمسا . فإن برلين هي التي يُحسب لها حساب اليوم ، لا فيينا . ولكننا سندخر بسمارك ليومٍ آخر . "

" حلقة العدل هذه التي تتعشقونها أنتم العثمانيين قد نهضت على أسس واهية، يا إسكندر باشا. تبدو في ظاهرها مثيرة للإعجاب. لم تُصمم لحل المشكلات، ولكن لترك انطباعاً مؤثراً. استمع الآن كيف تندفع كلمات ذلك القانون على اللسان خفيفة وسلسة مثل طلقات مدفعية محمد الفاتح أمام القسطنطينية. لا سُلطة ذات سيادة بغير جيش. ولا جيش بغير ثروة. ولا ثروة بغير رعايا أوفياء. ولا رعايا أوفياء بغير عدالة. ولا عدالة بغير ائتلاف على الأرض. ولا ائتلاف بغير دولة. ولا دولة بغير قانون. ولا تطبيق للقانون بغير سلطة ذات سيادة. ولا سلطة ذات سيادة بغير سلطان أو خليفة. "

كان البارون يتلو حلقة العدل بمهارة دفعت جميع الحاضرين إلى التهليل له في استحسان.

" قلتُ لك إنها تبدو جيدة، لكن دائماً ما شابها عيبٌ قاتل. كانت قائمة على نظام الدوشيرمة^(١). كنتم تأخذون الأطفال الرضع من جميع أنحاء الإمبراطورية وتصنعون منهم طبقةً من الجنود والإداريين عبر سنوات طويلة من التدريب والتعليم. كانوا ملكاً للدولة، لكنهم بدأوا يعتقدون بأنهم من يملكون الدولة وفي بعض الأحيان كانوا هم أنفسهم الدولة. كانت خطة طموح صقلها وشذّبها حكامكم، ولكن كما حذر مؤرخكم العظيم الفذ ابن خلدون منذ قرون عديدة خلت، إنه لأمر خطير أن تتوقع من جماعة لا تضمها روابط مشتركة من صلة الدم أو التضامن أو الطبقة أن تحتفظ بولائها نحو السُلطة ذات السيادة. قد يكون التدريب المشترك مناسباً لإنتاج طهارة فرنسيين، ولكن ليس لخلق دولة قوية.

" لا يحق لهؤلاء الجنود وموظفي الدول امتلاك أي شيء ، ولا يُسمح لهم بأي حقوق في الموارث . إنها لطوباوية وهمية أن تنتظر منهم البقاء في حالة من إنكار الذات والنقاء دون أن تؤثر فيهم الثروات والمزايا . وبطبيعة الحال حاولوا واكتسبوا الثروات وعقدوا الصلات الوثيقة بالعائلات الثرية . لقد راقبوا طبقة رجال الدين ، وسألوا أنفسهم كيف تمكنت عائلة دوريزيد من أن تجعل من العلماء طبقة نبالة دينية منذ القرن السابع وحتى يومنا هذا . أدركوا ما في هذا من إجحاف وحاولوا معالجة التباين . غير أن بزوغهم كان مفاجئاً للغاية . إنهم يدركون متألمين أن ما فعلوه محظور ومحرم . ومن الممكن استخدامه ضدّهم على أيدي خصومهم أو كلما رغب السلطان في إعدام أيّ منهم لسبب ما . قادم هذا كله إلى حالة دائمة من الترقب وافتقاد الأمان ، وهو ما كان أساس مؤامرة لا تنقطع . وعلى هذا صار من المستحيل على هؤلاء الرجال أن يكونوا ركائز الاستقرار الذي يمكن للدولة أن تستند عليها في طمأنينة وثقة . وهكذا ، يا عزيزي إسكندر باشا ، تصيرُ حلقة العدل خاصتكم منحدرًا نحو الفوضى ، حلقةً من تضليل الذات ، سعيًا . من غير التضامن والمؤسسات المستقرة ، تفتت الإمبراطوريات القديمة ، وتحل محلها أخرى جديدة . لقد خسرت كلاً من الحرب ومعركة البقاء . لقد أراد محمد الفاتح أن يجعل من إسطنبول روما جديدة ، وتم له ما أراد أكثر مما يجب ، فقد قلّد العثمانيون انهيار روما وسقوطها بطريقة جديدة بالإعجاب . "

توقف البارون لالتقاط أنفاسه وإعادة ملء كأسه .

" هل رميت كل ما في جعبتك ، أيها البارون؟ " سأله العم محمد

بشيطنة .

وجه البارون نحوه نظرة يابسة وهو يحتسي الشمبانيا . " ليس هذا بوقت
النزق يا محمد . إننا نناقش مستقبل إمبراطوريتكم . "

" ولكنني ظننتُ أنه ما من مستقبل أماننا . وفقاً لرأيك فقد بلغ تاريخنا
حد نهايته . ومن الواضح أن المستقبل في صف البروسيين ، وهو سبب
يجعلني أكثر سعادة بصداقتنا الوثيقة . فإذا ما أتت قوى الغرب وغيّرت اسم
إسطنبول وأسلمتها إلى اليونانيين سوف أنتقل للعيش في برلين . "

لم يتسم أحد . كان جميع الحاضرين في صدمة من كلام البارون .
ولبضع دقائق زحف صمتٌ تام . لم يُسمع غير هدير الأمواج بالخارج الذي
شوّش هذا المزاج المتأمل . بعد ذلك شرع أخي خليل ، الكتوم والمتحفظ
عادةً ، في الحديث من جديد .

" أشك في أنّ القوى الغربية قد تتفق ذات يوم مطلقاً حول مستقبل
إسطنبول . مستر دزرائيلي يعرف أننا قد حمينا اليهود لقرون عديدة . ولن
يتمنى أن تستعيد الكنيسة اليونانية مدينتنا . وسوف يقاوم بسّمارك أي تغيير
خوفاً من أن اليونانيين سيصيرون في غاية الضعف ، وهكذا يصبح السيد
الحقيقي على إسطنبول إمّا بريطانيا العظمى أو روسيا . أمّا البابا في روما
فسوف يفعل أي شيء ليمنع ظهور منافس له من جديد . ونتيجة هذا كله
ستعينا على أن نعيد البناء ونزدهر . لا تتخيلوا أننا جميعاً قد استولى علينا
الجمود والخمول . ودعوني أبلغ البارون ، أنه رغم اتفاقي مع أغلب ما قاله ،
بما في ذلك حقيقة أن هذه الإمبراطورية قد انتهت ، فهناك الكثير من الضباط
في الجيش العثماني ، رجال مثلي يعكفون على رسم الخطط وتدبر ما سيكون
بطريقتهم الخاصة . لن نترك كل شيء يتداعى حطاماً على الأرض . سوف

نكدح لصنع دولة جديدة من بين أطلال وخرائب القديمة . وإذا ما حاولت القوى الغربية أن تمنعنا فلسوف نحاربها بكل ما أوتينا من قوة . لن نقلد الإمبراطورية الرومانية من هذه الناحية . لم تقم قائمة لإيطاليا كأمة موحدة إلا بعد قرون كثيرة للغاية بعد سقوط روما . لن نقترف الخطأ ذاته . "

رد البارون على كلامه ، غير أنه هذه المرة لم يضيف جديداً . تحدثوا عن روما العتيقة وإسطنبول . وبدأت أفقد خيط جدالهم حين راحوا يعيدون ويزيدون في الكلام ذاته . خلال كل هذا الحديث ، أحسستُ وكأن سلمان شخصٌ لا تربطه أية صلة بكل ما يجري حوله . وقد جعلني جفناه الثقيلان وحركاته المترامية أستدعي صورة درويش أفرط في تعاطي الأفيون . عند نقطة ما حسبته استغرق في النعاس فجأة . وربما أيقظه حديثُ خليل .

" ما معنى هذا يا خليل ؟ هل ينبغي علي أن أحذر أصدقائي ليسرعوا بإجلاء عائلاتهم ونقل تجارتهم من الإسكندرية ؟ هل عليهم الانتقال إلى دمشق أم أننا سوف نخسر كل شيء ؟ "

" لستُ متأكداً . لقد خرجت مصر عن سيطرتنا بالفعل ، ولكني لو كنتُ في موضع أصدقاتك لساورني القلق . أعتقد أن البدو سوف يقفون في صف أي شخص يعدهم بأموال أكثر . إننا أضعف من أن نتحكم بذلك العالم . أمّا حقيقة أننا ننتمي جميعاً إلى الدين نفسه نصيرُ أقل أهمية حين تكون السلطة والمال على المحك . لم يكن العرب عاطفيين قط في هذه الناحية . الكلمة العليا لمن يدفع . عدُ إلى إسطنبول يا سلمان . كل شيء على وشك أن يتغير . "

ابتسم سلمان لأخيه . " إذا استطاعت العقائد الفكرية الجديدة التي تتمطى في كل موضع من أوروبا أن تصيبك بعدواها ، فربما ما زال هناك

سببٌ للأمل . ربما سوف يهبّ التغيير مثل إعصار أو زلزال . وحين تهدأ الرياح وتتوقف الهزّات ، عندئذ سوف أعود إلى إسطنبول ، ليس قبل ذلك بيوم واحد . وأنظر منك أن تستقبلني بكل الاحترام الذي أستحقه . والآن ، أستميحك العذر ، سأخلد للنوم ، فكل هذا الحديث عن قيام الإمبراطوريات وانهارها قد جلب لي عُسر هضم . "

ضحك خليل وهو ينهض لمعانقة سلمان .

" حتى أنا لا أستطيع أن أكون وقحاً إلى درجة أن ألوم سلاطيننا قصار النظر على انتفاخ معدتك الدائم . إنك تتحرك أقل من اللازم وتأكل أكثر من اللازم . لم يكن الشرق ملائماً لصحتك . عندما تعود لا أنصحك بالإقامة في إسطنبول ، فهناك سوف تصبح أضخم وأبطأ ، مثل أثنى فيل على وشك الولادة . وعُسر الهضم ، كما أسميته بلطافة ، سيصير أسوأ حالاً . المدينة التي أقترحها لك هي أنقرة ، فهوأؤها نقي وشرورها قليلة . "

رَبّت سلمان وجنة أخيه في حنان . " يمكنك أن تدفني في أنقرة ، إذا شئت يا خليل ، ولكن ليس قبل أن أموت . سوف يكلفك نقل هذه الجثة من إسطنبول كثيراً ، ولكنني أمنحك الإذن بذلك ، وليكن البارون شاهدنا . "

أنهت مغادرة سلمان السهرة . كان إسكندر باشا راضياً عن نفسه للغاية لتوفيقه التام في إدارة دفة الحديث . لم يجر استدعاء لأية ذكريات شخصية تخص العائلة ، لا حديث عن ماضينا ، وقد سرّه هذا . لقد فقد قدرته على النطق ، لكن ذاكرته لم يمسه أي سوء وقد كانت هناك ذكريات لا يود أن يمسه أهون المس . شعرت بالقرب منه مرة أخرى . كان قد أخبرنا ذات مرة أنه كلما رجع إلى إسطنبول بعد فترة إقامة في باريس أو برلين كان

يتشمم رائحة الغباء في الوطن ويجدها مطمئنة لأقصى حد، لكنه كان يخشى أنها من الممكن أن تخنقه، إذا صار غير قادر على السفر مجدداً، لسبب أو لآخر. قد أسأله عن ذلك قبل نهاية الصيف، لكن ليس الليلة، إذ بدأ في غاية الحبور. قبلت رأسه وانصرفت.

في صمت، تبعث البارون وعمي محمد إلى الشرفة الغارقة في نور القمر. جلسنا إلى مائدة تزينها أوان فضية عديدة امتلأت بثلاثة أنواع مختلفة من اللوز، وكذلك بجوز البندق والفواكه. فتح بتروشيان زجاجة أخرى وصب للرجلين. أخبره محمد أنهما سوف يخدمان نفسيهما وأمره بأن يذهب لينام.

تطلعت إلى النجوم في السماء وتساءلت إذا ما كنت سأذوق طعم السعادة الحقيقية ذات يوم وأشعر بالرضا أبداً عن حياتي. لطالما أحسست أن أُمي أقدمت على تضحية هائلة لمجرد أن تنعم بعيش ميسور. تركت شخصيتها الخاصة تنكمش وتتقزم أمام عائلة إسكندر باشا. لو أنها تزوجت من شخص آخر لاتخذت سيرة حياتها مساراً مختلفاً. تحدثت إليّ ذات مرة، بدرجة من الحرج، عن رجل آخر. كانت تميل إليه كثيراً، لكنه كان فقيراً وحين رفض أبوها طلب خطبته هاجر إلى نيويورك، حيث صار هناك رساماً ناجحاً. وكثيراً ما تمننت لو استطاعت أن تعرف ما الذي كان يرسمه. سليت نفسي بالتساؤل عما إذا كان شعورها الحقيقي والحميم نحو أبي هو النفور، غير أن أفكارني قوطعت.

استأنف الرجلان حديثهما. كان غريباً أن حضوري معهما لم يبد أنه يزعجهما قط. كان يثقان بي. لعلهما يتخيلان أنني أيضاً، مثلهما، مُعادية للتقاليد. مهما كانت أسبابهما، فقد تملقت ثقتهم هذه غروري.

"بعض ساعات، أشعر يا محمد، أنك تشك في ذكائي، رغم معرفتنا الوثيقة." "

"المعرفة الحميمة يمكنها أن تلدّ الشك والازدراء بنفس القدر أيها البارون." "

"إذن، بعبارة أخرى، فأنت لم يكن لديك أدنى شك في تفوقي الفكري عليك حين كنتُ معلمك الخاص في إسطنبول." "

"ولا ذرة شك، لكنك بالطبع لا يمكن أن تنسى أنها كانت أيضاً فترة تبادلنا الغزل، وكم كان عاصفاً. لقد علمتني الكثير. لغتك الألمانية، وشعرها وفلسفتها، وعشق الكتب. ما زلتُ أستطيع أن أتذكر كلمات أول قصيدة للشاعر هاينه تلوتها عليّ ومقدار سعادتك حين أخبرتك أنني قد فهمت كل كلمة فيها. كثيراً ما تحدثنا عن الله والدين والكثير للغاية من العقائد الجامدة وما تتسم به من مطاطية وتفكك. أنت من أريتني برلين وباريس. قارنتَ بين نمو المجتمعات المتعلمة في المدن الألمانية الصغيرة بالافتقار إلى أية حركة فكرية في أقاليم فرنسا الريفية. وحين استطعتُ أن ألعج ذلك العالم، عندئذٍ فقط سمحتُ لك أن تلجني." "

انبثق ضحكٌ كلا الرجلين غامراً.

(٧)

نيلوفر تخبر المرأة الحجرية، بأن سليم فركَ نهديهما في ضوء القمر
وبأنها تحبه؛ وتُصدِّمُ إذ تكتشف أن أمها كانت تسترق السمع

(لا أعرف من أين أبدأ، يا امرأة يا حجرية . حدث ما حدث فجأة، دون
إنذار، وربما أكون الآن في أزمة أسوأ من كل ما سبق . حدث أمس، في نور
القمر . هفتُ نفسي إلى أن أذهب لأعدّ النجوم على الشاطئ، وأن أنفردَ بنفسي
تماماً . وهكذا اتخذتُ الطريق الصغير الذي يؤدي من المنحدرات الصخرية إلى
مدخل الكهف المطل على البحر . حين كنا صغاراً اعتقدنا أن ذلك الممر سرنا
الصغير وكنا مقتنعين أنه لا يعرفه أحدٌ من الكبار . وحتى لو عرفوه فسوف
يجدون صعوبة في تتبعنا لأنه كان ممراً شديداً الصغير .

عندما سمعتُ صوت المياه الرقيق وهي تداعب الرمال شعرتُ
بالسكينة مع نفسي . وعندما نظرتُ إلى البحر المتلألئ في نور القمر ثم
حدقتُ لأعلى أتصيدُ النجوم، فبدأ كل شيء وقد اكتسب بُعداً مختلفاً على
نحو ما، وانكششتُ مشكلاتي الخاصة إلى لا شيء . مقارنةً بالطبيعة، لسنا
سوى هباءٍ ماثوراً في الرمل . كنتُ مستغرقة في تأملٍ عميق حينما انبعث
صوتُ مألوف من الظلام .

"سامحيني يا حضرة الهانم؛ لكنني رأيتُ أن عليَّ الإعلان عن حضوري، على سبيل الاحتياط، فرما استولتُ عليكِ رغبة جارفة في الاستحمام في مياه هذا البحر الحريية ."

كان سليم، حفيد حسن بابا. تحدثُ إليه في أكثر من مناسبة منذ الختان. أتى ليتفقد جرح أورهان ويتأكد من أنه يلتئم كما ينبغي. نمت في نفس أورهان محبة لهذا الشاب، وأنا أيضاً، عليَّ أن أعترف، وجدتُ في صُحبته مَسْرَةً. أعجبتني حقيقة أنه لم يشح عينيه عني قط عندما أخاطبه. كانت عيناه حزبتين للغاية بالنسبة لشاب في مثل سنه، ولكن حينما يضحك تلتمعان مثل ماستين. كنتُ سعيدة بحضوره.

أعرف ما يدور بخلدك، يا امرأة يا حجرية. لقد كنتِ شاهدةً على الكثير للغاية على مدى القرون ولعلك تظنين أنني أردتُ حضوره، لكنني أحلف لك بكل عزيز وغال عليَّ أنني لم أفكر فيه بالمرّة. كان الفارق الاجتماعي بيننا أوسع من أن يخطر على بالي مطلقاً، إلا بوصفه حلاقاً طيباً من إسطنبول، سافر ليوم كامل لكي يختن ابني. لا شك في كونه رجلاً ذكياً مثقفاً، ولا بد أن أعترف أنني فوجئت حين أعلن ولعه بأوبرات دونيزيتي باشا. كانت الموسيقى من بين الأشياء الغريبة عني، غير أن طريقتَه في الحديث عنها جعلتني أشتاق إلى الأوبرا. وبالطبع، لا يمكن لأبي من هذا أن يفسّر ما حدث أمس يا امرأة يا حجرية.

"ماذا تفعل هنا يا سليم؟"

"أتيتُ لأشاهد السماء."

"وتفكر؟"

"نعم، يا حضرة الهانم، وأفكر. العزلة سلعة نفيسة في عالمي. أعيشُ في منزل واحد مع ستة أشخاص آخرين. لا أستطيع حتى أن أسمع نفسي وأنا أفكر. وهذا المكان كأنه الجنة. لا بد أنك كنت تفتقدينه كثيراً عندما كنت في قونية."

"صحيح، وأرجو أن تتوقف عن مخاطبتي بحضرة الهانم. عندما نكون وحدنا يمكنك أن تنادني نيلوفر."

"أنت جميلة، يا نيلوفر."

"لم أسمح لك بمحادثتي بهذا الأسلوب. أمسك لسانك أيها الفتى الوقح. سكت."

"سمعتك تضحك أورهان أمس. احك لي حكاية يا سليم. أضحكني."

قام واقفاً، وأخذ يُلقي الحصى في البحر. ثم أتى وجلس قبالي.

"سمعاً وطاعة، أيتها الأميرة. استمعي إذن إلى حكايتي. كان يا ما كان، في سالف الزمان، في عهد أحد السلاطين، الذي لا أذكر اسمه، كانت تعيش أميرة شابة جميلة. كانت أختاً صغرى للسلطان وكان شديد الولع بها، وسببُ ولعه هذا بدرجة كبيرة أنها اختزنت بداخلها دائماً ذخيرة لا تنفد من النكات. وقد وهبتُ قدرة مذهلة على التذكر، حتى إن ذاكرتها كانت مثار حسد كل أفراد حاشية السلطان. لم تكن تنسى قط وجه شخص ما أو اسمه أو حديثاً دار بينهما. كانت قادرة على إضحاك السلطان وكافأهاً على ذلك بأنه لم يحاول أن يرغمهما على الزواج قط. كانت تسدل حجاباً

على وجهها، وتخرج في صحبة ستة من الخصيان المسلحين، وتردد على الحانات والأماكن سيئة السمعة، فقط لتجمع أحدث ما يجري على الألسنة من فاحش النكات.

"رفضت كثيراً من عروض زواج تقدم بها بعض أغني عائلات إسطنبول. أسرت إلى صاحباتها بأنها من المستحيل أن يرضيها رجل واحد. لا تملك أن تلزم نفسها بعيش حياة الزوجة حبيسة البيت. كان الخيار أمامها إما العذرية وإما انتقاء رجالها في حرية تامة. إذا رأت رجلاً مالت رغبتها نحوه كانت تستدعيه وترفع حجابها. ولما حظيت به من سحر لا مزيد عليه فقد أذعن أغلب الرجال أمام مفاتنها. وبعد ذلك كان الخصيان يقودون المختار إلى غرفتها الخاصة في القصر. وها هي مضطجعة على ديوان في انتظاره، لا يستر جسمها العاري إلا وشاح يشف ويصف.

"العاشق الذي اختارته لتلك الليلة تحديداً أذهلته رؤيتها. حينما أزال الوشاح تبدت متجردة تماماً، وإذ ركع الرجل المحظوظ قبالتها أخذت تردد عليه الكلمات ذاتها التي أسمعتها كثيرين سبقوه: "تستطيع أن تهناً بهذه الوليمة حتى تُتخّم. تمتع بقدر استطاعتك، لأنك لن ترى أو تذوق غيرها. فمن النعيم سوف تُرسل مباشرة إلى الجحيم."

"في ذلك الحين كان العاشق المتلهف مضطرباً بالرغبة التي استولت عليه فلم يتأمل تحذيرها له. لم يُبد أمارات التوتر إلا بعد أن قضت منه وطراً، ولكن عندئذ كان قد فات الأوان. يدخل الخصيان الغرفة ويقودون العاشق التعيس إلى قارب مشدود في موضع قريب. غنى أحد الخصيان قصيدة رثاء تتحسر على العشاق المفقودين، بينما أحاط الآخرون عنق

المحكوم عليه بجبل حتى قضى مختنقاً . وهكذا تُلقي اللقمة الرقيقة المتبقية من وليمة الليلة السابقة إلى مياه البوسفور لتتغذى عليه الأسماك . كان اللحم الملكي لعذارى البلاط محرماً على أي واحد من العامة، ومن يتمتع به لا بد أن يُفتك به . لا يمكن أن يُترك ليعيش ويحكى الحكاية . لم تستثنِ الأميرة أحداً من هذه القاعدة .

" ولكن إذا حدث ، هكذا أمرت خصيانها ، وصاحَ واحدٌ منهم مُعلنًا تحديه للموت وأن ليلةً بين ذراعيّ تستحق هذه التضحية ، فلا تقتلوه . لأن نفساً كهذه لا بد أن تُحفظ لا أن تُخنق . "

" وكل صباح كانت تسأل في لهفة ، غير أنه ما من واحد فعل ما كانت تنتظر . فسكنها الحزن لهذا ، ولكنها عمّرت طويلاً وفي شيخوختها قضت قدراً عظيماً من الوقت في التكايا ، حيث خطفة النسوة لا تحتاجُ إلى وصال جسدین . "

لكم تأثرتُ بهذه القصة ، يا امرأة يا حجرية ، أو هكذا أحسست .
أعتقدُ الآن أن ما ترك أثره علي لم تكن الحكاية ، إنما روايتها .

" وماذا كان اسم الأميرة؟ " سألتُهُ .

" كان اسمها نيلوفر . "

كانت ليلة دافئة ، ولعلّ القمر قد مسّ كلينا ، لذا فحين تحرك سليم مقرباً مني وشرع يمسّد وجنتي لم أقاومه . وعندما تحسس نهديّ أبديتُ محاولة فاترة لكبح رغبته المتقدة ، غير أنني تمنيتُ أن يواصل نحو المزيد . قبلتُ مقتلته وشفتيه وعريته من ثيابه . بعد أن تضاجعنا اغتسلنا في البحر . كان

عديم الخبرة، غير أنني لم أكرث لذلك. لم أكن قد واصلتُ رجلاً لسنةٍ تقريباً وكان الدفاء وحده كافياً لإراحتي.

لوقت طويل لم نتكلم. رحّتُ أمسد شعره بينما يريح رأسه في حجري. كانت جملة الأولى همساً.

"هل سيأخذني بتروشيان الليلة في قارب ويغرقني؟"

ضحكت وضممته إليّ.

"كلاً. ليفعل ذلك سيكون لزاماً علينا أن نخصيه أولاً. وحدهم

الخصيان يكلفون بتلك المهام."

"ظننته خصياً. يُقال في المطبخ أن أسرتك قد خصت رُوحه وإن لم

تخص جسده."

حين أشرتُ إلى أنه قد حان وقت ذهابي، يا امرأة يا حجرية، جذبني

إليه في عناق وثيق فأشعل شغفي كرةً أخرى. لم نغتسل هذه المرة لأن الليل

أوشك أن ينقضي ولم يعد هناك وقتٌ كافٍ لتجفيف جسدنا. هل أنا امرأة

ضائعة، يا امرأة يا حجرية؟ ماذا لو أنه استودعني طفلاً؟ هل سيؤدي ما

شعرتُ به من شغفٍ إلى الحب؟)

تجمدتُ كلماتي على شفتي إذ سمعتُ صوتَ حفيف.

"لقد اتخذت سبيلك نحو التعاسة يا طفلي."

"من هناك؟"

برزتُ أُمي من وراء الأحجار. بكيتُ وأنا أصبحُ فيها. "هذا مزارٌ

مقدس يا أُمي. وأنت انتهكت حرمة بحضورك هكذا. من الفظاظ أن

تسترقى السمع هكذا."

"أنتيتُ لكي أتحدثُ إلى المرأة الحجرية يا طفلي، عندما سمعتُ صوتك. كيف كان يُمكنني أن أمضي بعيداً دون أن أسمع قصتك؟ عندما كنتم أطفالاً، كنتم تختبأون وتسترقون السمع إلينا جميعاً. الآن حان دورنا. لا تحق لك الشكوى. أسبابي لا تختلف كثيراً. أنت فتاة متكتمة، لم تخبريني قط بشأن المعلم اليوناني - وانظري لإلامَ قادمك هذا. أعرف أن الحياة معه جعلتك متجهمة نكدة، أنت التي كانت دائماً صورةً للطفلة المرححة السعيدة. إنني أتصور جوعاً لأي معلومة تخص حياتك يا نيلوفر. يسرني أنني سمعتُ قصتك حتى ولو كان ذلك حادثاً عارضاً. تعالي معي."

وضعت ذراعها حول كتفي وأخذتني إلى غرفتها. جلستُ على الأرض بحيث يمكنها أن تدلك رأسي كما اعتادت حين كنتُ طفلة. لم تتكلم أيُّ منا لوقت طويل. الصوت المطمئن ليديها تفركان فروة رأسي كان له تأثير بلسم مهدئ عليّ. حين بدأت أستعيد توازني أدركت، لدهشتي، أنها غير غاضبة مني بأهون قدر.

"لطالما أردتُ أن تكوني سعيدة. حينما فررت مع معلم المدرسة لم يحزنني شيء سوى أنني تمنيتُ أن أحتفل بزفاف طفلي الوحيدة. افتقدتُ الموسيقى والرقص والولائم. كنتُ أرجو أن أرسلك إلى زوجك بالاحتفال اللائق. كان ذلك حلم الأم الذي لم يتحقق. وما إن تداركتُ إحساسي بخيبة الأمل لم يعد يهمني أي شيء سوى سعادتك. فإذا كنت سعيدة، أي حق لي في أن أحزن؟ لكنك لم تكوني سعيدة، أليس كذلك يا نيلوفر؟ هذا هو الانطباع الذي عاد به خليل بعد لقائه الأول بك أنت ويا بس الطبع ذلك، ديميتري."

كانت أمي تود أن تتحدث عن الماضي، بينما انصبّ تفكيري على الحاضر. أردت أن أعرف بالضبط أين سليم في هذه اللحظة، وفيم يفكر. تساءلت تُرى هل أخبر أحداً بأمرنا، وهل ساوره الندم على جرأته؟ وإذا تسابقت تلك الأفكار في رأسي، تسارع بعلى وتيرتها نبض قلبي، غير أن تعبير اللهفة ونفاد الصبر على وجه أمي كان قد بدأ يشوّه ملاحظتها، وما عاد ممكناً تجاهله أكثر من ذلك. لن تسمح لي بأن أذهب قبل أن أرضي فضولها، ولعلّه كان شيئاً أكثر من محض الفضول. ربما كان قلقاً على طفلي وعلى مستقبلي. وربما كان شيئاً يتصل بحياتها هي وبآمالها المحبطة.

"أجيبيني يا نيلوفر. أين الخطأ؟"

كان هذا سؤالاً لطالما طرحته على نفسي على مدار السنوات الخمس الأخيرة. تدفقتُ مشاعري مثل شلال حتى كادت أن تُغرق أمي. أخبرتها بأن ما طنته حباً لم يُسفر إلا عن خيالات رومانسية من ابتكار عقل غير ناضج. قدّم لي ديميتري مهرباً من العالم المغلق لأسرتي وقد هربت معه بكل حماقة. حدثتها عما كنتُ أشعر به من أن عقلي قد أخذ يضمّر ويضمحل في منزل إسطنبول، حيث كنتُ سجيناً نظامه، أختنق بعاداته وتقاليده، وأسحق تحت وطأة تاريخه. اكتسحتني الرغبة في أن أختبر العالم الحقيقي. كان منزلنا الصيفي والبحر يجسدان الحرية، وقد أحببتُ وجودي هنا على الدوام حتى منذ أن كنتُ بنت ثلاث سنوات. كل ما هنالك أن ديميتري قد مرّ بي في اللحظة المناسبة تماماً. وكان من الممكن أن يكون أي شخص.

أخبرتها كيف بدا كل هذا في غاية من الوضوح أمام عيني حتى من قبل أن أحمل بأمانة. وكان مولدها علامةً على نقطة لا رجوع منها. بعد ذلك

صرتُ أجدُ جسده مُنفراً وفكره ضحلاً. بدأ يمتعض مما أسماه أساليبي المتعالية وتداعت علاقتنا شيئاً فشيئاً. قلتُ لنفسي إن فترة غياب ربما تكفي لتغيير رأيي، ولكن بعد أن أمضيتُ أسبوعاً هنا مع أورهان علمتُ أن الحكاية انتهت. لا يمكنني أن أعود إلى قونية أبداً فأقاسمه فراشه الكريه.

"والآن يا أمي، أنت دفعته إلى دعوته للمجيء من أجل أورهان وهكذا يمكننا أن نرى صغيرتي أمينة. تعرفين أنه احتفظ بها رهينة، حتى يكون متأكداً من عودتي. وقد لا يأتي إلى هنا بالمرة، ولكن إن فعل فلا بد أن يعود بمفرده فلسوف يبقى طفلاي هنا معنا."

"إن الولد مرتبط به يا نيلوفر. لقد كان أباً صالحاً لطفليه. رجلٌ مسكين، أشعر بالأسف عليه. يا لسوء حظ من يتخذك زوجاً له. كان بحاجة إلى امرأة مُطبعة، وطاهية بارعة، مثلي، وأنت لا هذه ولا تلك. وفي هذه الأثناء ها أنت تشبعين احتياجاتك بمعونة حلاق شاب. إذا اطلع إسكندر باشا على هذا ستصبيه جلطةً أخرى. أولاً مُعلم، والآن حلاق. فما يكون التالي؟"

"قد يكون سليم حلاقاً بحكم الوراثة يا أمي، ولكن ذكاه يسمو على معظم أفراد هذه الأسرة."

"أمسكي عن هذا في الحال. لقد استخدمت الكلمات ذاتها تقريباً مع النظرة العنيدة ذاتها بالضبط على وجهك منذ عشر سنوات، عندما قررت الفرار مع معلم المدرسة ذلك. على الأقل تعلمي من أخطائك يا طفلي. سليم ليس مشكلة جسيمة، فإن صرة نقود حسنة من أحد أخويك قد تسد فمه تماماً. لا أريده أن يتباهى بما حدث أو أن يُردد اسمك في المقاهي. لا بد"

من إعادته إلى إسطنبول فوراً. وإياك أن تجرّوي على القول بأنك سترجعين معه، فأنت الآن أمٌ لطفلين عليك أن تفكرّي فيهما .

"لن أسمح لك أو لأي شخص آخر في هذه العائلة بالإساءة إلى سليم يا أمي! مجرد فكرة أن نعرض عليه نقوداً تملوئي بالاشمئزاز ."

"حقاً؟ إن مصدر اشمئزازك بكل تأكيد هو خشيتك من أنه قد يقبل عرضنا. وأياً كان سببه، فإنني أفضل لك الغثيان عن الأسف والندم يا نيلوفر ."

أوشك غضبي أن يتفجر لكنني تمالكْتُ نفسي . "أنا لم أعد طفلة . تبدو عشرة أعوام مثل عمر آخر . أقر بأن رأسي في دوامة، ولكنني لن أقدم على أي فعلٍ أحمق أو طائش . لنحتفظ بهدوئنا ونفكر في المستقبل ."

"كم غريباً أن تستخدمني تلك العبارة بالتحديد . ما أشبهك بجذتك بياتريس . لطالما كانت مؤمنة كبيرة بالاحتفاظ بالهدوء وتحيل مستقبل زاهر ."

نظرتُ فوق كتفيّ أمي فرأيتُ بورتريهاً مألوفاً لجذتي بياتريس موضوعاً فوق رف المدفأة . رُسم بالزيت في العام التالي على زوجها من جدي وإذا لم يبالغ الرسام في تصوير ملامحها، كما كان شائعاً على عادة تلك الأيام رغبةً من الرسّامين في إسعاد زبائنهم ليطلبوهم مجدداً، فلا بدّ أنها كانت امرأة في غاية من الحُسن، أجمل بمراحل من ابنتها، أمي سارة . سارة ذاتها التي ترنو الآن إليّ باهتمام فيما أفكر في ماضيها .

قبل هذا اليوم، لم تتح لي فرصة أن أتحدث إلى أمي حديث الأنداد . وقبل أن أهرب مع ديميتري نادراً ما كنا نبقي وحدنا، وعلى أي حال فقد كنتُ أصغر سنّاً من أن تعاملني بجديّة . تناهت إليّ شائعات مُبهمة بأن أمي

لم تكن سعيدة في بداية زواجها بإسكندر باشا، لكن زينب أنكرت ذلك وأخبرتني بالأصْدَق أي شيء أسمع في المطبخ.

لقد تغيّر كل شيء منذ ذلك الحين، وكأم لطفلين سعدت منزلتي فجأة، على الأقل في نظر أمي. طرحتُ عليها سؤالاً كنتُ أدخره لأكثر من عشر سنوات.

"هل أرغمتِ على الزواج منه؟"

لدهشتي احتضنتني وشرعت تبكي. لا بدّ أن دموعها قد حُبستُ بداخلها لأعوام عديدة، فتدفقت سيلاً جارفاً. حان دوري لأضمها إليّ وأهدئ من روعها.

"لقد حكيتُ للمرأة الحجرية كل شيء قبل كل تلك السنين. ألم يخبرك أحد؟"
هزرتُ رأسي.

"ربما كنت بمفردي حقاً. لم يكن هناك من يسترق السمع في ذلك اليوم."
"ليس عليك أن تحكي لي الآن يا أمي. ستكون هناك فرص أخرى."

لكنها أرادت أن تتحدّث عن نفسها. كأنّ استماعها لي وأنا أتحدّث إلى المرأة الحجرية قد حرّر شيئاً دفيناً في فؤادها.

(فقط لو أن أبي لم يكن طبيباً في القصر، لالتحذتُ حياتي بكاملها مساراً مختلفاً. على غرار أبيه وجدّه من قبله، كان أبي يسهر على صحة السلطان والعائلة الملكية، ولذلك كان استخدامه يُعدّ أمانة على ارتفاع المنزلة لدى مَنْ هم أقل نبالة. أظنه كان بارعاً في عمله أيضاً، رغم أنه غالباً

ما استشهد بقول جده عند رجوعه من القصر وتنويهه إلى أن عمل الطبيب الجيد لا يقتصر على مداواة الجسد، وهي مهمة صعبة غالباً، بل يتعداه إلى طمأننة العقل، وهي مهمة ممكنة دائماً. اعتقد أبي أن هذه المقولة التافهة عميقة للغاية وكان يردها كثيراً حين يجلس إلى ضيوفه، وهكذا كنتُ أنا وأمي ننظر إلى بعضنا بعضاً حينما نلمحها وشيكة ثم تحرك كل منا فمها بكلمات العبارة في صمت.

بما أن إسكندر باشا كان مؤمناً عتيداً بالتقاليد، فقد استخدم جدك طبيباً لأسرته. ومع ذلك، فلولا حادث عارض من صنع القدر لما رُسم مستقبلنا بهذه الخطوط العجلى. ذات يوم اصطدم سائق عربة إسكندر باشا بعربة أخرى، وجرح أبوك جرحاً طفيفاً. أظن أن قطعة خشب صغيرة سحجت جبهته وأخذ ينزف. دبّ الخوف في سائق العربة فتوجه رأساً إلى منزلنا وطلب أبي. كان غائباً في زيارة مريض، وأصرّت أمي على إدخال إسكندر باشا للبيت بحيث يُمكن لأحد مساعدي أبي أن يطهر الجرح ويضمده. لم يكن هذا حدثاً نادر الوقوع في تلك الأيام. كنتُ مع أمي حين دخل أبوك منزلنا. كانت أمي على دراية بحقيقة أنه قد تمّ تعيينه مؤخراً سفيراً للسُلطان في باريس، وهكذا بعد تضميد جرحه عرضت عليه تناول بعض المرطبات. كان على وشك أن يرفض حينما وقعت عليّ عيناه. دائماً ما تعرف المرأة متى يوجه إليه رجلٌ تلك النظرات. مكث معنا وتناول لقمة خفيفة، وكان ما زال هناك عندما عاد أبي بعد ذلك بساعة فدعاه للبقاء حتى العشاء. واندھشنا لقبوله الدعوة. كان في مزاجٍ ساحر، يشقشقُ فجأةً بعبارات فرنسية وألمانية ويثير إعجابنا بمعرفته بباريس وبرلين. وللأمانة فإن

أبي كان يشعر بالإطراء لأن مثل هذا الوجيه الأمثل سليل لتلك العائلة شريفة الأصل قد أمضى أربع ساعات في منزله .

عند تقديم القهوة، كان أبي على وشك أن يُنيرَ إسكندر باشا بإطلاعه على مهمة الطبيب الجيد، لكنّ ما أثار دهشتنا وجبورنا، أن إسكندر باشا سلبه لحظته لصالحه هو . كان قد سمع القصة من قبل . تحمّل أبي خزيه حتى أسرّ له إسكندر باشا أن السلطان كان أول من نقل له هذه المقولة الخالدة، فافتشّت وجه أبي البسمة . ساد الجوّ كثيرٌ من التزلف والخضوع واللهفة على الإرضاء حتى أحسستُ بمعدتي تنقلب حقاً لا مجازاً . لم أجد مفراً من النهوض عن الطاولة، اندفعتُ إلى الحمام وتقيأت كل شيء . تملك الهواجس القوية مثل ذلك التأثير على جسم المرء .

حينما عدتُ كان وجهي شاحباً ومستنزفاً، قدّم إسكندر باشا تحية الدواع وانصرف . وكم استرحت، لأنه في أثناء تناول الطعام لم يرفع عينيه عني بطريقة جعلتني أتوتر وأخاف . لم أكن مهتمة به ولو أهون اهتمام وأتذكر أنني في تلك الليلة ظللتُ أكرر لنفسي : "عامليه مثل باب موصد يجب ألا يُفتح أبداً . إن دفعت هذا الباب ولو موارد ضئيلة، لكي تختلسي من خلاله نظرة، فلسوف يمتصك ما وراءه وتصبحين نسياً منسياً . " لم يكن هذا مطلباً عسيراً، بما أنه لم يُفلح في إثارة فضولي تجاهه ولو بأهون درجة . تذكرني أنني لم أكن قد بلغت العشرين بعد وكان عمر أبيك ضعيف عمري وأكثر، وقد بدا لي بالفعل عجوزاً . . .)

قاطعتها عند هذه النقطة . كنت مغتابة مما أبدته من جفاء تام نحو أبي . فعلى كل حال، لم يكن بالرجل الغبي أو القبيح وكنت أحبه فعلاً، على كل عيوبه . صرتُ أتعجل الوصول إلى جذر المشكلة .

" قبل أن توصلني شرح عدم اكترائك أبي، دعيني أسألك عن أمر. هل كنت في علاقة حب مع رجلٍ آخر في ذلك الوقت؟ "

" نعم " ، أجابت في قسوة أجفلتني ، " كنتُ أحب سليمان . كان في مثل سني . تقاسم أحدنا مع الآخر عواطفه ورغباته وأحلامه . كان ثمة انسجام بيننا ، انسجام مضي عميقاً ، عميقاً للغاية ، حتى بدا لنا كأنه العين التي يتفجّر منها ماء الحياة . أتريدين أن تسمعي حكايته يا نيلوفر ، أم أنك ستشعرين بالعقوق نحو أبيك القعيد المسكين ، الذي يرقد عاجزاً عن النطق في غرفة مجاورة؟ اصدقيني القول . "

مسنّي عمقُ عواطفها ، لكنّ ما أثرَ فيّ أكثرُ هي حقيقة أنها لا تزال قادرة على الشعور بكل هذا بعد ثلاثين عاماً بين أهل هذا البيت . بدت مشاعري شيئاً سريع الزوال مقارنةً بما لا بدّ أنها عانته . اجتاحني حبي لها فملتُ نحوها وقلتُ وجهها ، فمسحتُ عنه الدمعة الوحيدة المألحة التي كانت تنزلق ببطء على وجنتها اليمنى .

" أود أن أسمع كل شيء يا أمي . كل شيء . "

(كان سليمان أحد أبناء العم البعيدين لأمي . شأن أسرتنا ، كانت أسرته قد انتقلت من قرطبة إلى إسطنبول في القرن الخامس عشر ، عندما طردنا الكاثوليك . كان أبي ينتمي إلى أسرة من الأطباء يزعمون قرابتهم لموسى بن ميمون^(١) . أما عائلة أمي فكانوا من الباعة وكبار التجار . قوبلوا هنا بالترحيب . منحنا العثمانيون ملاذاً وأعمالاً . لكن أجداد سليمان ارتحلوا واستقروا في دمشق ، غير أنهم لم يفقدوا الاتصال بالعائلة في إسطنبول قط . وبما أنهم كانوا تجاراً فقد كانوا كثيري الأسفار ، وهكذا لم

تنقطع الصلة قط . وتم ترتيب زواج والديّ، والذي كان زوجاً سعيداً، عبر الرسائل المتبادلة .

أراد سليمان أن يصير طبيباً، وكان قد سئم دمشق . وجدها إقليمية أكثر مما يحتمل ، كما رغب في أن يكون على مقربة من أوروبا . كتب والده إلى أبي ، وبطبيعة الحال دُعي سليمان للإقامة معنا لأجل غير مُسمى . وافق أبي على تدبير التحاقه بمدرسة الطب في إسطنبول . كنت في الثامنة عشرة من عمري في ذلك الحين ، وكان هو يكبرني بعام واحد . بدا الأمر وكأن الشمس قد دخلت بيتنا .

جميع صديقاتي كان لهنّ أشقاء وشقيقات فكنتُ أشعر على الدوام أنني غريبة لأنني طفلة وحيدة . لم تستطع أمي أن تحمل مرة أخرى بعد ولادتي التي كانت عسيرة عليها . قالت إنه لو لم يكن أبي حاضراً لما استطاعت القابلة أن توقف تدفق النزيف ولكانت قد ماتت . من الغريب أنني أيضاً، لم أنجب إلا زهرة واحدة، والتي أُنعت بكل جمال . وكم استرحتُ حقاً حين أنجبت أنت أورهان وأميّة . شعرتُ بأن اللعنة القديمة قد انكسرت .

كان سليمان مثل الأخ الأكبر الذي لم أخطّ به قط وبالطبع عامله والداي مثل ابن لهما . لم تكن هناك قيود أو محاذير ، صحبته إلى كل مكان ، سواءً في عربة الخيل أو على أقدامنا . أريته المباهج الخفية لمدينتنا . كان الزوّار الوافدون من الغرب يقفون أمام مسجد سنان باشا ويتنهدون في إعجاب . كانت تفتنهم القصور وتستلبهم طقوس البلاط ، لكنّ قليلاً منهم فقط استطاعوا التسرّب إلى الحياة الداخلية لمدينتنا . دائماً ما يكون الحب الذي نكنه لإحدى المَدن شيئاً سرياً بداخلنا ، أحلام يقظة تتسم بالمرافقة ، لا سيما

إذا كانت المدينة مفتوحة على مصراعيها كإسطنبول، لكنني شعرتُ بأن عليّ ألا أحجب أي سر عن سليمان حتى ولو لم أظن قد عرفته إلا منذ أسبوعين. كانت التشابّهات بيننا عميقة، وكانت هناك اختلافات أيضاً. كنتُ صلبة الرأي وعنيدة، وكان هو عاطفياً وحنون القلب، ولكن أيضاً مُزعزع قليلاً من نواحٍ كثيرة.

كثيراً ما كنا نرتدي الثياب الغربية ونحتسي الشاي في أحد الفنادق ونكلّم الخدم هناك باللغة الفرنسية. فقط حين سمعناهم يتسائلون باللغة التركية ما إذا كنا أخواً وأختاً أم عروسين في شهر العسل فأجبتُ استفسارهم بلهجة إسطنبولية نقية، لا لشيء إلا لئراقب تعبيرات الدهول على وجوههم. كانت تلك أسعد أيام حياتي يا نيلوفر. البراءة التي تسبق الحب الحقيقي لا يمكن أن تتكرر أبداً. وحين تبدد تكون قد ذهبت إلى الأبد.

كان كل شيء يبدو سحرياً حين نكون أنا وسليمان معاً. كنا نجلس في مقهى نحتسي القهوة على الجانب الأوروبي بينما نراقب الشمس تغرب في آسيا عبر القرن الذهبي. كان بوسعنا أن نتحدث عن كل شيء وأي شيء. لم تكن بيننا محرمات أو مناطق محظورة. لم نكن نخشى شيئاً. ولم يقتصر الأمر على تبادل الذكريات أو مناقشة أغرب الحكايات في تاريخ أسرة كل منا. من البداية الأولى لعلاقتنا كان هناك شيء أكثر حميمية. كما لو كنا لم نعش قبل ذلك من دون بعضنا البعض قط. وكنا نضحك، نضحك يا نيلوفر. لم أضحك بهذا القدر في حياتي كلها، لا قبل ذلك الحين ولا بعده.

إلى أن التقيتُ بسليمان لم يُبد أي شخص أي اهتمام حقيقي نحوي. كنت ابنة تلزم المنزل، ولا شك أنني سرعان ما أتزوج وأتركه وستكون هذه

هي نهاية قصتي. وكان أبي، على الخصوص، منشغلاً للغاية في رعاية صحة مرضاه المرموقين بحيث لا يتبقى لي إلا أقل القليل من وقته.

كان سليمان هو أول وآخر شخص يسألني عما أريده من الحياة. ولم يضحك حينما أفضيتُ له بأعمق تخيلاتي. وعندما قلتُ له إنني أريد أن أكون روائية مثل بلزاك وجدته يشجعني. أولاني انتباهه التام. لم يحاول قط أن يفرض إرادته عليّ - لا يعني هذا أنه كان سينجح لو حاول ذلك. في لحظات مثل تلك، يكون مجرد حب الحياة كافيًا ووافيًا، وكل ما عدا ذلك سوف يتدفقُ سلسًا، أو هكذا كنتُ أحلم. أحلم أن كل ما سيأتي بعد ذلك سيكون في جمال الحاضر، لكن المكتوب كان بخلاف هذا.

ذات مساء، وجدنا أنا وسليمان أننا وحدنا في البيت. كان والدائي، بعد أن اتخذنا أبهى زيتيهما، قد ذهباً لحضور وليمة عرس في القصر. وسُمح للخدم أن يأخذوا وقت المساء راحة. في البداية، تسلينا بعزف ثنائيات من أوبرا دون جيوفاني لموتسارت على البيانو. ثم أكلنا. فيما بعد، حين بلغ حديثنا نقطة صمت طبيعية شعرتُ بتوتر طفيف في رفقته. تسارع إيقاع نبضات قلبي. غادر الغرفة وعاد بحزمة من الأوراق. في تلك الأمسية ذاتها أطلعني لأول مرة على تلك الإسكتشات الثلاثة التي رسمها. إذا أغمضتُ عيني الآن بوسعي أن أراها بكل وضوح.

"لم أكن أعرف أنك فنان"، كان هذا كل ما استطعتُ قوله بينما أحاول موازنة ارتباكِي وأن أظل محتفظة في الوقت نفسه برزانتِي وهُدُويِي وحنكتي.

أجاب: "ولا أنا كنتُ أعرف".

الإسكتش الأول كان تمثيلاً رقيقاً لوجهي، وكان الثاني للوجه نفسه ولكن هذه المرة مرسوم من منظور جانبي حاد. كرهت هذا الثاني لأنه بالغ في رسم أنفي، فبدت أغلظ من اللازم، مثل خيارة منبعجة، ولكن قبل أن أتمكن من الاعتراض، أراني الإسكتش الثالث... الثالث وآه من الثالث، يا نيلوفر. كانت الصورة التي تخيلها لجسدي عارياً من الثياب. ارتجفت يداه وهو يرفعه أمامي لأراه. صعقتني جرأته ولكن أيضاً فزعت للغاية من مدى دقته. بعد شهور عديدة سوف يعترف بأنه كان قد تجسس عليّ وأنا أستحم ذات أصبيل، لكن عند اعترافه هذا كنا قد بلغنا مرحلة جديدة تماماً من الحميمة حيث لا أهمية لأي شيء آخر.)

توقفت سارة قليلاً. أثارت الذكريات أهواءً قديمة بداخلها فاضطربت. صبّت لنفسها بعض الماء من الإبريق القريب من فراشها. كنت أراها الآن في ضوء مغاير تماماً. ما زلتُ لا أستطيع أن أصدق أنها سمحت لسليمان بأن يواقعها. وإن كان هذا ما حدث، فلماذا لم يفران معاً؟ كان يمكنه أن يأخذها معه. ولكن لماذا كان يجب أن تصل الأمور إلى هذا الحد في المقام الأول؟ هل منعها جداي من الزواج بسليمان؟ ولماذا؟

"يمكنني أن أسمع كل الأسئلة التي تتردد في رأسك يا طفلي. تريد أن تعرفي أي درجة بالضبط من الحميمة تمتعنا بها. ولم لم نتزوج أو نهرب مثلك أنت واليوناني ذي العينين القبيحتين. كما تعلمين، لم يسبق لي قط أن تحدّثتُ حول تلك الأمور مع أي إنسان حيّ. وليس من السهل على المرء مناقشة تلك المسائل مع ابنه أو ابنته. هناك دائماً رغبة فطرية في الإخفاء، لكنني أود أن أطلعك على كل شيء. إذ يوجد في عالمنا ما يفوق الحد من السرية والكتمان، وغالباً ما يؤدي الكتمان أكثر مما يؤدي الحقيقة.

"إذا متُ ودفنت، وأتى يوم سمعت فيه بالمصادفة هذه القصة يرويها واحدٌ من نسل سليمان، فقد تصدقنيها أو لا، لكن جهلك بها سوف يسوءك. وقد تساورك أفكار سيئة عني. أنت الكنز الوحيد الذي خلقتُه في هذه الدنيا. أريدك أن تعرفي حتى يمكنك ذات يوم أن تحكي لأورهان وأميئة عن جدتهما. من يدري، فلعلّ ذلك قد يساعدهما على أن يعيشا حياةً أفضل. كبّسي قدمي، يا طفلي. بدأت أشعر بالتوتر والإرهاق."

لم يسبق لي قط أن دلكت قدميها، ولكن على مدى السنوات، راقبتُ خادِمات كثيرات للغاية وهنَّ يؤدِين هذه المهمة لساعات بحيث لم تعد تنطوي على أية أسرار غامضة. ضغطتُ كل إصبعٍ واحداً بعد الآخر، ثم انتقلتُ إلى باطن القدمين، وفركتهما برقة ببراجم أصابعي. يبّطء، أحسستُ أن سارة قد استعادت استرخاءها مرة أخرى.

(أنا وسليمان، اندفعنا إلى ذراعيّ أحدنا الآخر بصورة طبيعية للغاية في ذلك المساء، بحيث لم نشعر بأنها مرتنا الأولى. كان شيئاً في القصد والنية دائماً. الشغف الذي أخفاه كلُّ منا عن صاحبه انبثق خارجنا عارماً. مارسنا الحب عندئذ وفي أيام أخرى كثيرة. وفي بعض الأحيان كان شوقنا نحو أحدنا الآخر يكبرُ ويشتدُّ بحيث يدفعنا خارج المنزل بحثاً عن أماكن آمنة، وما كان أصعب العثور على تلك الأماكن الآمنة. وفي أحيان كثيرة لم نجد أماناً خياراً آخر سوى استتجار قارب مُغطى، ونغيب فيه عن العالم كله بينما يتظاهر المراكبي بأنه أعمى، ويأخذنا أولاً إلى إحدى القارتين ثم إلى الأخرى. كان في هذا مجازفة على الدوام، لأن أبناء الطبقات الأدنى كانوا يستخدمون القوارب في تلك الأغراض وكنتم دائماً قلقة خشيةً أن تقع عينا

إحدى جوارينا علينا، وكانت تسرّ إلي بمغامراتها تلك. والحقيقة أنني
عرفت عن طريقها هي في أول الأمر بوجود قوارب الحب.

بدأت أمي بياتريس ترمقني بنظرات الريبة. "ثمة شيء مختلف في
مشيتك يا سارة. شيء قد حدث فمنحك ثقة جديدة. كما لو أنك صرت
امرأة مكتملة."

في اليوم التالي على نقلي تلك الإشارة لسليمان، أبلغنا أمي بأمنيتنا أن
نتزوج. وكان سليمان قد كتب من قبل رسالة إلى والديه يُعلمهما بقراره.
ظننتُ أن أمي سوف يسرها أنني أحببتُ شخصاً ينتمي إلى جانبها من
العائلة، ظننتُ أن هذا سوف يُسكّن هواجسها، فلطالما كان أبي يتذمر من
عدم امتلاكه مال كاف ليقدمه دوطلة لمن يتزوجني. حتى لو لم يكن هذا هو
الوضع الحقيقي، فقد أسترحتُ لأن مثل تلك الكلفة لن تكون ضرورية.

حينما سمعتُ جدتك الخبر ضيقت عينها الشبيهتين بعيون المها وزمّت
شفيتها. قالت: "هذا ما كنت أخشى وقوعه، لكنني تمنيتُ أن تكون
عاطفتكما مثل أخ وأخت، خصوصاً وأنك طفلة وحيدة. لهذا وافقتُ عن
طيب خاطر بأن يأتي ويعيش معنا بقدر ما شاء. كم كنتُ حمقاء، كفّ
بصري فلم أرَ ما يحدث في بيتي وتحت عيني". هذا الزواج مستحيل يا سارة.
أعرف أن هذا يبدو قاسياً، لكن على كل منكما أن يتحمل ثقل الواقع."

نزلت بنا صاعقة. نظرنا إليها بغير تصديق. أي واقع كانت تتحدث
عنه، وما صلته بالحب الذي وُلدَ بيننا؟ رفضت أن تقول أي شيء آخر حتى
يعود أبي للبيت من زيارات عمله. غادرت الغرفة وهي تقول إنهما سوف
يتحدثان معنا بعد تناول العشاء. جلسنا أنا وسليمان ممسكين بأيدي أحدهما

الآخر، نتبادل النظرات في حيرة وذهول. اعتقد أن هذه المقاومة قد تكون راجعة إلى رقة حالة بالنسبة لنا؛ فالأغلب أن والديَّ يتمنيان لي أن أعيش حياة ميسورة رغبة. لم أظن أن هذا قد يكون صحيحاً، بما أن سليمان كان يدرس حرفة أبي وسيكون طبيعياً له أن يورثه ممارسة المهنة التي شيدتها الأسرة بحرصٍ بالغ على مدى قرنين.

والحقيقة أن أبي كان قد بدأ يُفضي إليه بعض وصفات العلاج السرية التي ارتحلت معنا من إسبانيا قبل زمن طويل. كانت مكتوبة ومنسوخة في كتب ضخمة ومغلقة بجلد أسود، الذي حال لونه من فرط الاستخدام منذ سنوات. أتذكر حماس سليمان حينما اطلع لأول مرة على أحد تلك الكتب. لقد افترض أبي أن سليمان وريثه وبالتالي لم أظن أن الافتقار للمال قد يكون هو العقبة.

حين عاد أبي إلى المنزل أخيراً في تلك الليلة، سمعتُ أمي تهمس له بشيء في توتر بينما تسحبه إلى غرفتها. تناولنا عشاءنا في صمت مطبق. أدركتُ أنهما لم يكونا غاضبين لأنهما بين الحين والآخر كانت تبدر منهما نظرات حانية نحونا، ولكن بأعين مفعمة بالحسرة. كان أبي من تحدث تلك الليلة وفسّر لنا ما وراء معارضتهما من أسباب.

لم يبدُ لما قاله أي معنى بالنسبة لي. تحدثت عن مرض غامض ظهر في فرع العائلة الذي ينتمي إليه سليمان بعد قرون من زواج الأقارب. وبما أن أمي كانت تنتمي إلى تلك العائلة فقد كان هناك خطر جسيم في أن يولد أطفالنا بتشوهات وأمراض خبيثة ويموتون صغاراً. وقد تكرر هذا كثيراً للغاية بحيث لم يعد من الممكن الاستهانة بتهديد كهذا.

شحب وجه سليمان وهو يسمع حديث أبي . كان يعلم أن هذا المرض قد انتزع حياة أحد أبناء عمومته قبل سنوات عديدة، ولكن بالتأكيد، هكذا قال متوسلاً، قرابة الدم بينه وبين أمي كانت بعيدة للغاية وبالتالي فإن احتمال معاناة أولادنا لا بد أن تكون مستبعدة بنفس المقدار. نهض أبي وغادر الغرفة. حينما عاد كان معه مجلد آخر. كان يضم شجرة عائلتنا. أرانا كيف أن الجدتين البعيداتين للغاية لأمي ولأم سليمان كانتا شقيقتين. كانت الصلة أمتن من أن نقدم على أي مجازفة. كان متأثراً بجنابنا وقد عانق سليمان بشفقة صادقة، غير أن هز رأسه في يأس.

"لن يجلب هذا إلا التعاسة، يا سارة. مهما نقمتما عليّ وعلى أمك بسبب هذا، لكنني لا أستطيع كأبٍ وكطبيب أن أسمح لكما بأن تدمرا حياتكما."

شرعتُ أبكي وغادرت الغرفة. بقي سليمان جالساً وتحدّث معهما لوقتٍ طويل. لم أعرف قط ما دار بينهم من حديث.

لم يستطع أي واحد منا النوم. في وقت تال من تلك الليلة قصدتُ غرفته فوجدته يجلس متربعاً على فراشه. كان يبكي بكاءً صامتاً. وتضاجعنا طلباً لسكينة النفس. أخبرته بمنتهى الحزم أنني مستعدة للمجازفة، وأنه إذا ما واصل والديّ اعتراضهما فإن بمقدورنا الهرب. غير أن رؤيته لشجرة العائلة زعزعته. وصف لي موت ابن عمه في سن السابعة، لم يكن يرجو أن يموت طفلنا على هذا النحو.

توسلت إليه، يا نيلوفر. وهددته بأنني سأنخلص من حياتي إذا جرؤ أن يتركني. لكن شيئاً لم يثنيه، وغادرنا في اليوم التالي.

صرتُ خاويةً كبيت مهجور، ورحتُ أفتش عنه في كل موضع. زرتُ المقاهي التي اعتدنا الترددَ عليها. ذهبتُ إلى المراكبية وسألتهُم إن كان أحدهم قد رآه لكنني لم أعثر على أي أثر له. وأنكر والدائي أي علم لهما بمكانه المحتمل، رغم أن أبي أقر لي فيما بعد بأنه قد أقرضه مالاً ليعينه على الرحيل. لم ينقطع حزني على سليمان يوماً، ولم يعد لأي شيء أهمية عندي بعدها. فلتستمر الحياة أو تنتهي، فما كان هذا أو ذاك يهمني بأهون قدر.

كانت قد انقضت عشرة أيام على هجران سليمان لي حين عاد أبي إلى المنزل ذات مساء بعرض زواج مقدّم من إسكندر باشا. كنتُ سأصير زوجه الثانية، ولكن هذا أيضاً لم يسوءني كثيراً. أتذكر قولي لأمي: "هنا، على الأقل، لا يوجد أي مرض مهدد." أخبروني أنني يفترض بي التحول إلى دين زوجي وأن أتخذ اسماً جديداً. وجدتُ في هذا التغيير لهويتي عزائي الوحيد حينذاك، فلن تكون سارة هي من تدخل فراش إسكندر باشا، بل خديجة. أسموني هكذا تيمناً باسم أولى زوجات النبي محمد، عليه الصلاة والسلام.

تزوجت في منزل إسطنبول، دون أي مظاهر للفرح بما أنها كانت زيجته الثالثة. الأولى، كما تعلمين، قد توفيت وهي تضعُ سلمان. وهذا أيضاً أمرٌ وافقني بما أنني لم أكن في مزاج موات للاحتفال. كان إسكندر باشا في غاية من الطيبة معي، ولحسن الحظ أنه سرعان ما سافر إلى باريس بصحبة بتروشيان وحسن بابا، ولكن من دوني. وهذا أيضاً ناسبني لأقصى حد. وبطبيعة الحال، قبل مغادرته كان قد ولجَ إلى فراشي وأثبت لي رجولته. لم أستمتع بصورة خاصة بالتجربة يا نيلوفر، ولم تجلب لي السكينة حتى. كانت الجراح التي خلفتها خيانة سليمان لا تزال نازقة. ثم ولدت أنت بعد ثمانية أشهر ونصف.

أنبأني شيء في نبرة أُمي أن هذه ليست خاتمة حكايتها . عبرت وجهها ابتسامة رضا غير معتادة حين ذكرت أمر مولدي .

"سارة" ، خاطبتها في حدة . "لقد وعدت بقول الحقيقة كاملة ."
"ألا يمكنك التخمين؟"

هزرت رأسي .

"لقد كنت البرهان على خطأ والديّ ، وعلى أن نخاذل سليمان لم يكن له مبرر . لكم أغضبني هذا . وبدأ حزني ينزاح . لم يكن إلا خائناً . أخذ حبي له ينضب وامتلاّت بالسخط نحوه . لقد كنت أكثر طفلة رأيتها تتمتع بالصحة والجمال ."

"ماذا تقولين يا أُمي؟ مريضة أنت! جُننت! كل هذا من صنع خيالك . هذا ما تريدن له أن يكون، لكنه ليس كذلك . إسكندر باشا هو أبي!"

شرعتُ أبكي ، فاحتضنتني لكنني دفعتها عني . كان رد فعلي الأول هو الاشمئزاز . شعرتُ كأن حياتي كلها تُسلب مني . جلستُ هناك أهدق فيها . وحين تحدثت خرج كلامي همساً .

"هل أنت واثقة؟"

"نعم يا طفلتي . إن لم أكن حُبلى من الأصل لما رضيتُ أبداً بالزواج من إسكندر باشا . ولو أنني قلتُ لوالديّ لعملا على التخلص منك . إياك أن تنسى مهنة جدك ، فقد كان لديه بعض الخبرة في إزاحة الأجنة غير المرغوب فيهم ."

" ولكن لماذا لم تخبري سليمان؟ "

" لم أكتشف حالتي إلا بعد رحيله بأسبوع، وإلا لأخبرته في اليوم التالي لكنه كان قد ذهب. "

" من أين تأتين بكل هذه الثقة؟ "

قامت إلى خزانة وأخرجت منها صندوقاً صغيراً لم أره من قبل، كان بداخله صورة فوتوغرافية لهما معاً. بدت عليهما سعادة غامرة. غطت أمني أنف سليمان وشفتيه. كانت له نفس عيني بالضبط.

" ألم تخبري والديك قط؟ "

هزت رأسها.

" لماذا؟ "

" كان سيشرعان باستياء بالغ. كانا مولعين بسليمان. كنتُ ابنتهما الوحيدة ولم أرغب في أن أحملهما شعوراً كهذا، بأن يعرفا أنهما خربا حياتي بدافع أطيب النوايا. "

" ولم تخبريه هو قط؟ "

" كلاً. حين كتب إليّ رسالة كنت قد بلغت سنتك الثامنة. كانت رسالته مقتضبة، ونبرتها جافة وباردة، كُتبتُ كوداع قاس. أبلغني بثلاثة تطوّرات مهمة في حياته. أنه كان رسّاماً موفقاً، وزوجاً سعيداً، وأباً لثلاثة أطفال. كيف لي أن أنافس مثل تلك النعمة؟ اقتلعت رسالته أحلامي من جذورها. تمنيتُ عندئذٍ لو كانت السفينة التي أقلتته إلى نيويورك قد واجهت

عاصفة فنجاً جميع ركابها ما عداه. كان لا بدّ أن يسقط عن الحافة ولا يتمكنوا من إنقاذه أبداً. كنتُ أفضل أن يكون ميتاً، فعلى الأقل ما كان ليكتب لي عندئذ تلك الرسائل الغبية.

"كنتُ أفكر أنني ذات يوم، وقبل أن يقترب الموت مطالباً بأحدنا، قد أزوره في نيويورك. رغبتُ بشدة في رؤيته من جديد يا نيلوفر. مرة واحدة فقط. لكن بعد رسالته أحسستُ بالخيبة والخيانة. ولكن كان ثمة عزاء واحد وحيد ليس بوسعه أن يتزعه مني. لقد حظيتُ بك، طفلة حبنا. من أجل أن يتمكن من مواصلة الحياة، كان عليه أن يعيد تشييد حياته المحطمة، وأن يبني جداراً داخلياً لا يُمكن انتهاكه، وأن يطمس كل ذكريات الحب الذي تبادلناه ذات مرة. أمّا أنا، فما هي إلا نظرة واحدة في عينيك حتى أستعيد مرة أخرى كل تلك السعادة. كنتُ أشفق عليه."

صمّت. لم تنطق أيّ منا بشيء. قبلت يديها. ربتت على وجهي وقبلت مقلتي. لم أشعر بمثل هذا القرب منها طوال حياتي كلها. أردتُ أن أنفرد بنفسي لأفكر في كل ما أخبرتني به. كان عليّ أن أقرر المسار الذي ستخذه حياتي، فلا يجب أن يحدده لي أهل هذا المنزل.

استأذنتُ سارة وتوجهت إلى غرفتي. كان غريباً أن أفكر أنه ما عاد أحدٌ منهم يمت إليّ بصلة. فلا سلمان ولا خليل كانا شقيقيّ، ولا زينب كانت أختي، ولا إسكندر باشا كان أبي. تبدّى عالمي في صورة غاية في السُخف والعبث. شعرت بالدموع قد بدأت تشق طريقها من عينيّ.

"لماذا تبكين؟" أعادني صوت أورهان إلى الواقع. "هل توحشتِ

أمينة؟"

أومات، ممتنة له لأنه زودني بعذر مناسب، وجففتُ وجهي. كان
أورهان مبتهجاً.

"غداً، سوف يقص حسن بابا لي شعري بنفسه. يقول إنه لا يمكنه أن
يعود دون أن يتأكد أن شعري مقصوص تمام التمام. عندئذٍ سيكون قد قصَّ
شعر أربعة أجيال من عائلتنا."

ابتسمتُ في داخلي. عائلتنا؟ صارت الكلمة تحمل معنى جديداً لي.

كم امتلأتُ نفسُ أورهان بالحماسة حين التقى عميه وجده، بحيث
أصابتنى الحقيقة بالذعر فجأة. كان أورهان يتواصل مع إسكندر باشا على
الورق كل يوم، وشعر كلُّ منهما بأنه نافع للآخر. شعر أورهان أنه يساعد
جده وإسكندر باشا بدأ يعلم الطفل الأبيجدية الفرنسية. كيف عساي مطلقاً
أن أخبر ابني بأنه لا حق له في أن يكون هنا، وبأن جده الحقيقي رسام في
نيويورك، وبأننا ننتمي إلى عالم آخر؟ نظرتُ نحو البحر بالخارج. كان
ساجياً اليوم بينما يبرق بالضوء المبهر لأصيل شهر يوليو. أعانني هدوءه
على استعادة سكينتي.

تمددتُ على فراشي وأغمضتُ عيني. كنتُ مسرورة أن أُمي قد أخبرتنى
الحقيقة. وجعلني وجود أورهان أشعر أن الحياة سوف تستمر كما عهدتها من
قبل. ربما لا أتصل بهم بالدم، ولكن هذه هي عائلتي، وهؤلاء هم الناس الذين
أحببتهم وسوف أبقى أحبهم على الدوام - رغم الماضي، ورغم المستقبل.
سمعتُ ضحك أورهان خارج نافذتي. نهضتُ لأرى سبب ابتهاجه.

كان سليم. أثارتنى رؤيته، فعرفتُ عندئذٍ أن رغبتني فيه ستدوم لوقتٍ

طويل.

(٨)

يومَ التقاط الصورة العائلية، إسكندر باشا يصرّ على
تصويره بمفرده إلى جوار مقعدِ خال؛ قصة أحمد باشا
وكيف انتحل شخصية السلطان

كان نهاراً خاملاً واهناً، شمس لاهبة ولا تهب فيه نسمة . كنا جالسين
في ظل شجرة الجوز على الشرفة الأمامية . أتم حسن بابا قص شعر أورهان
وأخذت إحدى الخادמות تنظف الأرض من بقايا الخصلات . اختار له
حسن بابا قصّة شعر انتهت صيحتها منذ خمسين عاماً، القصّة ذاتها التي كان
يستخدمها مع أبي وأعمامي حين كانوا صبّية صغاراً، كما تجاهل توجيهاتي
تماماً وجعل شعره قصيراً للغاية، غير أنه لم يكن يسعى لنيل استحساني أنا .
كان يُدرك أن إسكندر باشا سوف يعجب بعمله .

كان من المتوقع وصول مصوّر فوتوغرافي من إسطنبول في وقت تال
من ذلك اليوم، لالتقاط صورة فوتوغرافية للعائلة بكاملها . كان ذلك تقليداً
سنوياً، انقطع بعد أن غادر كلٌّ من سلمان و خليل المنزل . غالباً ما كان يتم
التقاط الصورة في يوم العيد في الباحة القديمة لمنزلنا في إسطنبول . هذه هي

المرّة الأولى التي يُسمَح فيها لمصوّر بانتهاك خصوصية ملاذنا الصيفي. صفتُ المقاعد بالخارج على النسق السابق ذاته كما كانت في إسطنبول، فيما عدا أننا صرنا أقل عدداً. لم تتم دعوة أسرة العم كمال إلى هنا، بينما كان من الصعب عادةً استبعادهم من الصورة في إسطنبول.

كان بتروشيان، متبعاً توجيهات إسكندر باشا، ينظّم الأسماء الخاصة بأماكننا بحيث يستطيع كلُّ منا أن يعرف موضع جلوسه عندما يحين الوقت. انتابنتي قشعريرة من مجرد فكرة اجتماع العائلة، لكنّ أورهان كان سعيداً، وفي غاية الشوق والحماسة للمناسبة، قد تقبّل لأول مرة في وداعة وطاعة إلحاح أُمِّي عليه أنه لا بدّ أن يستحم، وأن يغسل شعره ويرتدي بدلة مفصلة خصيصاً لأجله، بدلة كاملة مضافاً إليها الطربوش. كان من المفترض أن تبدو هيئته مثل باشا صغير. ولم يكن منفرداً في هذا. فقد أمر الجميع بأن يرتدوا ثياباً رسمية. على الإفطار في ذلك الصباح، أضحكنا كلنا سكران حين سأل العم محمد إذا كان هو والبارون سيلبسان الطربوش. نظر كلا الرجلين نحوه في برود ورفضاً أن يردّا عليه.

كنتُ على وشك أن أسأل حسن بابا أن يحكي لي عن الفترة التي أمضاها إسكندر باشا في باريس، عندما تنهى إلينا صوتُ حلو عميق، كما لو كان من السماء، لرجلٍ يُنشد أبيات شعرٍ صوفية.

اسقنا حتى الثمالة من نبيذ شفتيك

اسقنا حتى يرضى ويهناً عشاقك

اسقنا حتى تسكر وتُدْهَل

هذه القلوب التي قاست الفراق طويلاً؟

وليتدفق حُبها كأنه البحار السبعة
اسقنا حتى يكسو نور القمر قلوب عشاقك
اسقنا حتى نعرف طعم النشوة .
الله ، الله ، الله !

أخذَ جسد حسن بابا الهش والمضعع يتبدّل أمام عينيَّ . شَعَّت عيناه
بالبريق وشرعَ يتمايل في تناغم تام مع غشبية أغنية الجذب . توقف الصوت
فجأة . كان قد انبعث من ناحية في الحديقة أسفل شرفة أبي ، لا تُرى من
الشرفة الأمامية حيث جلسنا مُستمتعين بنسائم الصباح ومستنشقين أريج
أشجار الصنوبر .

" مَنْ كان يُغني؟ لم يكن لدي خبر بأننا نحظى بدرويشٍ في منازل الخدم؟ "
" إنه سليم ، حفيدي يا حضرة الهانم . "
انتابني ذهول . " متأكد؟ "

أوما حسن بابا برأسه في لهفة . " لا بدّ أن سليم متعب اليوم . ظلّ يعمل
في حلاقة رؤوسهم منذ الإفطار . أولاً شقيقاك ، ثم محمد باشا والبارون . والآن
يهذب شعر أبيك . كل هذا استعداداً لصورة فوتوغرافية تافهة . "

" ولكن هل يُسمَح له بالغناء بينما يقص شعر أبي؟ " كنت مندهشة ،
مع الاعتبار لكل اللياقة والاحتشام المصاحبين في العادة بأي طقسٍ من
طقوس إسكندر باشا .

" ولمَ لا؟ هناك أمور كثيرة لا تعرفينها عن أبيك . لقد كان في شبابه
صوفيّاً . وتردد على بعض بيوت الفرق الصوفية الأكثر إثارة للريبة ، حيث

الوجد والنشوة لا يتصلان بمالك الملك إلا قليلاً. لا بدّ أنه هو من أمر سليم بإنشاد هذا الشعر تحديداً، ربّما كان يُدكره بزمن رؤيته أوّل مرة لزكية، والدة سكرمان باشا.

"لقد عرفتُ أباك من يوم مولده، لكنني لم أراه قط على تلك الحال التي تلبسته في ذلك الشتاء حين رآها لأوّل مرة في أحد بيوت الصوفية. تنشّقا عشباً شديد المفعول فأخذنا يدوران معاً دوران الدراويش. بعد ذلك، همدا على الأرض في حالة إعياء واستراحا في نشوة. في تلك اللحظة أنشدتُ الأبيات ذاتها التي سمعناها من جديد، لكن بصوت حفيدي هذه المرة. اقتحم فؤاد إسكندر باشا اضطراباً لم يعرفه من قبل. نما غرامه قليلاً مع مرور كل يوم، ومرّت أحيان ظننتُ فيها أنه سوف يفقد قواه العقلية تماماً. كنتُ أقضي معه قدراً كبيراً من الوقت حينذاك، وعملتُ على تهدئته. عرضت عليه أن آخذه إلى قونية لحضور كرنفال، واقترحتُ أيضاً أن نأتي إلى هذا المنزل حيث يمكنه، على الأقل، أن يستعيد رزانة عقله، وهو بعيد عن مرمى عاطفته. رفض أن يغادر إسطنبول. تأثرت زكية بشغف معجبتها الشاب هذا، لكنني لا أظنها استطاعت أن تبادله حباً بحب. أبى هو أن يهدأ أو يستريح حتى يستطيع أن ينال تصریحاً من أبويه بالزواج بها."

لم يحك لي أحدٌ هذه القصة قط، ولا حتى زينب، التي كانت أغلب الوقت مُطلعة على ما يتصل بمثل تلك الأمور. ربما وضع موت زكية حدّاً للمزيد من النميمة حولها.

"ولماذا كان أبي بحاجة إلى مثل هذا التصريح يا حسن بابا؟ ولماذا لا يطلب الإذن من أهل زكية نفسها؟"

تنهد العجوز. "آه يا بُنيّتي، صحيح أنك الآن أمّ لطفلين لكنك ما زلت تجهلين شئون عالمنا وخفاياه. كانت زكية مرتبطة ببيت الصوفية ذلك، وكان لاسمه سُمعة سيئة. لم يكن يُعرف لها أبٌ أو أم."

رغمًا عني، لم أملك إلا الشعور بصدمة طفيفة إزاء هذه المعلومات.
"حسن بابا، هل تقول لي إن والدة سَكمان لم تكن إلا مومسًا؟"

"أي مخلوق مُنحط ذكر شيئًا عن النقود أو الاتجار في لحم البشر؟"
هكذا تساءل بصوت مرتفع. "كانت زكية تؤمن بمسرات ونشوة الاتحاد بشخص آخر، كانت تلك هي وسيلتها للتواصل مع الله. تبدو عليك الدهشة؟ كان وما زال هناك الكثيرون مثلها، بمن في ذلك أم حفيدي سليم نفسها، وهي لا تزال حية ترزق! أرجو ألا تعوفي تدفق قصتي بأسئلة حقا. لعلك نسيت بالفعل سؤالك السابق، ولكن اسمحي لي بأن أجيبك عليه.

"الآن، صرت تفهمين على الأقل لماذا كان على إسكندر باشا أن يطلب الإذن من والديه قبل أن يتزوج زكية. ثار غضبهما عليه، ورفضاً أن يأخذا الأمر بجدية. تخيلاً أنها مسألة شهوة، وليس حبًا. اقترحا أن يأخذ أبوك بتروشيان ويسافر إلى باريس وفلورنسا. وهنا كان دوره ليعلن رفضه.

"وذات ليلة، هجر إسكندر المنزل وتدروش. صعق النبأ أمه، كان من العسير عليها احتمال مثل تلك الخسارة، فلطالما كان ولدها المفضل. لأن فؤادها هي أولاً ثم استطاعت فيما بعد أن تقنع أباه. طار إسكندر باشا من الفرح. رأيتُ السعادة ترقص في عينيه، غير أن أحداً من لم يتوقع العقبة التالية.

" رفضت زكية عرض الزواج به ، بل أغضبها ذلك . أخبرني إنها لم تكن بها أي رغبة في أن تصبح إحدى مقتنيات رجل ثري . فبعد أن اختبرت العيش الحر من القيود والشروط ، لم تر سبباً يلزمها الآن أن تقضي بقية عمرها سجيناً منزلكم في إسطنبول . ما جدّ ، على ما أظن ، كان ما لا بدّ منه : المال . عجائز بيت الصوفية قبلوا رشوة إسكندر باشا . كان هؤلاء هم الرجال الذين تعهدوا برعايتها كطفلة لقيطة . لقد لقتوها العلم ، علّموها كيف ترقص وتغني وتتوحد بخالقها . والآن يخبرونها بأن تراعي المصلحة الأعم لطريقتهم ، ويأمرونها بأن تتزوج إسكندر باشا وأن تنصاع لرغبته . " إنه ابنٌ وجيه أمثل ، ومقرّب من القصر . فكّرني فقط كيف سيكون بوسعك مساعدتنا ما إن يتخذك زوجاً له . يومَ مولدك تُركت على عتبة هذا البيت ، فربيناك كأنك ابنتنا ، وواجبك الآن أن تردي الجميل وتطيعينا . لا بدّ أن تفعل ما نطلبه منك . " لم تقنع ، ولكنها أذعنت لمطالب العجائز كما اعتادت أن تفعل طيلة حياتها .

" وهكذا تم القران . لم يكن حفلاً هادئاً أو بسيطاً . استمرت الولائم ثلاثة أيام بتمامها يحفها الكثير للغاية من الغناء والرقص . لا بدّ أنها كانت المرة الأخيرة التي ترقص فيها زكية مع الآخرين من رجال ونساء . بدت سعيدة بما فيه الكفاية وكان من الصعب التنبؤ كيف كان يمكن لهذه السعادة أن تنتهي إن لم يخط القدر عقاباً شديداً . صارت حُبلي في غضون شهور وعندئذ ، كما تعلمين ، حلّت المأساة . ماتت وهي تلد سلمان باشا .

" بعد وفاتها ، راقبتُ شخصية إسكندر باشا يطرأ عليها تغييراً شاملاً . تهلّم تماماً ، وذكرني بصورة شجرة صعقها البرق . لو كان شجرة لما كان

أمامه خيار إلا أن يموت، لكن إسكندر باشا وجد أن سبيله الوحيد ليعيش أن يخلق نفسه خلقًا جديدًا. أعاد صنع نفسه على صورة أبيه، فأصبح مجافياً ومتعالياً، شديد الحرص على منزلته في المجتمع، وصارماً مع جميع أبنائه وشديداً بالذات على المسكين يتيم الأم، سلمان باشا. تبدل والدك فصار الشخص الذي عرفته طوال حياتك. كانت هذه الطريقة الوحيدة لكي يستطيع أن يتقبل أنها رحلت إلى الأبد. أما الحال التي اختبرها بصحبتها ذات يوم فلم يستطع أن يستعيدها مع أي شخصٍ آخر.

" ذات مرة، كان يفكر فيها، حينما كنا في باريس وبينما أحلق ذقنه، وسط كل بدائع محل إقامته الفاخر. وبما أنني أعرفه جيداً، كنت أدرك متى يجب أن تتم الحلاقة في صمت تام. لم أنطق بكلمة واحدة في ذلك اليوم حينما انتزع المنشفة فجأة عن كَتْفِي، ومسح بقايا الصابون عن وجهه وكسر الصمت قائلاً: " أتعلم يا حسن أن الرجل الذي أحبّ زكية قد مات معها؟ لم أعد أدري شيئاً عن ذلك الرجل بالمرّة. "

" انسالت الدموع على وجهي. قلتُ له: " أعلم يا إسكندر باشا. وقد علمتُ طوال الوقت، ولكنني لا أظن أن الشاب الذي عرفته قد مات. أظنه قد دُفن عميقاً في داخلك، وذات يوم سوف يرجع إلى نفسه. " ما قاله لم يكن إلا جانباً من الحقيقة. كانت لا تزال تعيشُ فيه، وبالقدر نفسه كانت ذاته القديمة لا تزال هي أيضاً حية. كانت هناك مناسبة أخرى في باريس كنتُ قد نسيتهُا حتى الآن. أليست ذاكرتنا نعمة غريبة يا نيلوفر هانم؟ رجع إلى اليت في وقت متأخر ذات ليلة بعد حفل استقبال رسمي ثقيل الوطأة، وكان دائماً ما ييغض تلك التجمّعات. كان بتروشيان قد خلد للنوم من قبل

وخلع إسكندر باشا ثيابه بنفسه . كنتُ في الغرفة المجاورة له أقرأ حينما سمعته يبكي . هرعت إليه لتهدئته فوجدته يتشبث بكتاب يضعه على قلبه . لم يقل شيئاً ، بل ناولني الكتاب وأشار إلى قطعة من الشعر لم أنسها قط . كانت من إحدى سونيتات مايكل أنجلو ، ذلك الإيطالي الذي كان من المزمع أن يشيد جسراً فوق البوسفور . هل أتلو ذلك الشعر؟ فلنرى إن كان سيعاود ذاكرتي . "

سكت واستغرق في داخله قليلاً ، ثم استرخى وجهه . " أعتقد أنه كان شيئاً كهذا ، ولكنني ربما قد نسيتُ بعض الأبيات . بعد أن جعلني أقرأه سألني ببسمة تقطر حزناً : " حَسَن ، أتظن أن مايكل أنجلو كان صوفياً؟ "

أعد إليّ الآن ذلك الزمان ،

زمان الحب غير مكبوح العنان

زمان أهوائي الطليقة .

أعد إليّ ذلك الوجه الملائكي الساجي ،

بُحَيَّاه الذي تشرَّب كل فضيلة وكل سمة حُسْن .

أوشكت روعي أن تبلغ الجانب الآخر

حيث تتخذ درعاً يقيها سهمك الحنون

هيهات أن يُضرم الفحم اليابس

ناراً جديدة بعد ذلك أبداً .

" واليوم طلب من سليم أن ينشد أغنيتها المفضلة . لا بد أن حضورها

قويٌ للغاية بداخله في هذه اللحظة . "

فكرت أنه حتى لو لم يعد إسكندر باشا هو والدي الحقيقي، فإن معرفتي بذلك لم تبدل مشاعري نحوه، فلا أزالُ أحبه حبَّ الابنة لأبيها. وقد جعلتني قصة حسن بابا أشدَّ قرباً من الرجل الذي تزوجته أمي على عجل قبل كل تلك السنوات. تساءلتُ إن كانت أمي تعرف هذه القصة وبماذا شعرت إزاءها. كلاهما أحبَّ حباً عميقاً وكلاهما خسر، في ظروف مختلفة، أثنى شيء في حياته. ماتت زكية، وعلى نحو مختلف، مات سليمان أيضاً. لماذا لم تستطع هذه التجربة المشتركة أن تضمَّهما معاً؟ ثم تحوّلت أفكارني نحو سليم.

"كيف تعلّم أن يغني بمثل هذا الجمال يا حسن بابا؟"

سُرَّ العجوز لإطرائني. فيما عساه يفكر إذا اطّلع على ما فعلنا؟ كنتُ متأكدة أنه مهما كان رد فعله، فلن يكون الدهشة أو الصدمة.

"والد سليم، أكبر أبنائي، بكتاشي^(١). كان هو من علّمه الغناء وهو صبي صغير. رفض ابني، عليه لعنة الله، أن يصبح حلاقاً. شرع العجوز في الضحك، كاشفاً عن فم أهتم مخيف. كان قد فقد جميع أسنانه، فاضطرتُّ لتحويل نظري بعيداً.

واصل قائلاً: "ولعل ذلك كان سببه الحقيقي وراء الانضمام إلى طريقة صوفية، والتي كانت تحث أتباعها على إطلاق شعرهم وإطالته. وقد أراد لسليم أن يسير على نفس دربه، لكنني لم أسمح بهذا. لم يُحسن معاملة الصبي فقررتُ أن أربيه بنفسني. نشأ سليم وكبر في بيتي ودرّيته ليكون حلاقاً، ولكن الصبي موهوب كما ترين. يمكنه أن يبرع في أي صنعة."

حان دوري لأبتسم . ربما يكون جد سليم حلاًقاً ، ولكن أباه كان متصوفاً .

" هل فوجئت حين هجر ابنك مهنتك ؟ "

مسّد العجوز غابة الشعر الأبيض القصير الذي يغطي ذقنه وأخذ يتفكّر قليلاً . " خاب أملي ، لكنني لم أفاجأ ، فهو تقليدٌ قديم في عائلتنا أن نكون حلاًقين ودرائش . في الأزمنة الغابرة ، قبل أن يبلغ العثمانيون إسطنبول بوقت طويل ، عاشت عائلتي في أنقرة . في تلك الفترة لم يكن هناك أمير يحكمنا ، كنا نتخذ قراراتنا بأنفسنا . في تلك الأيام كنا حرفيين مهرة ، نشتغل في صنع السيوف والخناجر . ننتمي إلى مذهب القرامطة ، هل سبق لك أن سمعت بذلك الاسم ؟ "

أقررتُ بجهلي ، ملتزمة العذر في افتقاري إلى التعليم الرسمي ، فمن علموني كل شيء عرفته لم يذكروا القرامطة قط .

أجاب : " لو كنت ذهبت إلى المدرسة لكنت أكثر جهلاً ، إن السيدة الجليلة والكريمة ، والدتك ، قد علمتك غالباً أكثر مما تستطيعه مجتمعة كل لحي العلماء . أتظنين أنهم يعلمون تلاميذهم شيئاً عن القرامطة ؟ إنهم يفضلون أن يُخفقوا بلحاهم عن الاعتراف بماضٍ كان نقياً لا تشوبه شائبة . "

في غفلة منا ، سمع العم محمد والبارون الطرف الأخير لحديثنا .

قال محمد : " لم أعرف قط أنك تنتسب إلى القرامطة يا حسن . "

" هل سمعت بهم يا عمي ؟ " ، سألتُ وأنا أبدي ما في وسعي من

تعبيرات البراءة .

"نعم، ولكن قليل للغاية. إنه موضوع يثير اهتمامي. هل يمكننا الانضمام لكما؟ رجاءً، واصل حديثك يا حسن."

"أنا رجل عجوز الآن يا محمد باشا، لذا فلتغفر لي خطرتي. الأمور التي أتحدث عنها تناقلتها الألسنة في عائلتنا من جيل إلى جيل. وهي ليست بأمور ذات شأن كبير بالنسبة لرجال متنورين مثلك أنت والبارون باشا."

"هراء"، دوى صوت البارون. "إنما نحن الجهلة، ونحن بانتظار أن تنورنا أنت."

شعر حسن بابا بالإطراء وتغيرت نبرته. كان يتحدث معي بنبرة ودودة مسترخية، أما في حضور الرجلين فقد صارت نبرته رسمية ومتكلفة.

"لقد بلغت أخوية القرامطة في أنجورا، والتي نسميها الآن أنقرة، درجة من القوة أتاحت لها إدارة شؤون المدينة بنفسها. لم تكن هناك حاجة لوجود حاكم. تألفت الأخوية من مختلف طوائف الحرف، وكان لكل منها مكان اجتماعه، ولكن كان لدينا أيضاً بيوت اجتماع مركزية حيث تمدد اللوائم وتقام الصلوات، جنباً إلى جنب التباحث في مشكلات المدينة وكيف لنا أن نعالج المرضى ونطعم المساكين ونعاقب قطاع الطرق ممن يعيشون على أطراف المدينة ويسلبون من المسافرين أموالهم وثيابهم. كان الزوار ينزلون في بيوت الاجتماع، والتي كانت تعد خانات لإقامة الغرباء أيضاً. كنا نحلف ميميناً بأن نتبع الفضائل السبع، وأن نبغض الرذائل السبع، أن نفتح سبعة أبواب ونغلق سبعة أبواب."

كان البارون عندئذ متبهاً إلى أقصى حد. "وماذا كانت الرذائل والفضائل؟"

"ذلك ما لا أعلمه يا بارون باشا، لكنني أعلم أننا نحن القرامطة، فيما كنا نتسامح مع النساء، كنا نميل للبقاء دون زواج. كما أعلم أنه كان دخول بيوت الاجتماع ممنوعاً على كل من الجزارين، والجرّاحين، والملحدين، وجباة الضرائب والمرابين. كان هؤلاء بعضاً من الرذائل."

سأل محمد: "وماذا عن المنجمين؟"

"رذيلة أخرى، بل إنهم كانوا مكروهين أكثر من الملحدين والمرابين"، قال العجوز غاضباً، كما لو كان حاضراً بنفسه عندما حاول أحد المنجمين اكتساب حق الدخول لبيت الاجتماع. "كان العرافون هم قتلة المنطق والفكر الرشيد ولذلك السبب تم الاتفاق بين جميع بيوت الاجتماع في إحدى المناسبات على إعدامهم في ميدان أنقرة. وقيل إن القرامطة سخرُوا منهم بينما يقتادونهم ليلقوا مصيرهم، فقد قالوا للمحكوم عليهم ساخرين: (كيف أخفقتكم في التنبؤ بمستقبلكم؟ أم كنتم تنظرون إلى النجوم غير الصحيحة؟)"

أعلن البارون: "إنني لا أتفق مع هذا، فإن أعداء الفكر الرشيد لا يهزمهم إلا الفكر الرشيد. إن إعدام هؤلاء الرجال لم يغير من الأمر شيئاً، لقد تكاثروا مثل الجراد في أرجاء الإمبراطورية."

انتاب حسن بابا حرجٌ طفيف إذ جرفته الحماسة لقصته. حاولتُ أن أعينه بسؤال ودود. "وتلك الفضائل الخمس التي تحدثت عنها. ماذا كانت؟"

"شرب النبيذ، وتدخين الحشيش، وحال النشوة، والصلاة لوقتها، وتصفية الزنادقة. كان القرامطة هم آباء وأمهات جميع الطرق الصوفية المختلفة الموجودة في يومنا هذا. كانوا هم أول الغزاة في هذا الجزء من العالم، وكانوا مستعدين للقتال والموت في سبيل الله وعزة رسوله، ولولاهم لما كُتِبَ التوفيق للعثمانيين. بعد ذلك، بعد ذلك بوقتٍ طويل، حين كانت العاصمة في مدينة بورصة، تم فضّ بيوت الاجتماع وضمّها للمساجد. كانت هذه بداية نهايتها.

"غيرت عائلتي صنعتها. تخلصنا من السيوف، وبدلاً منها بدأنا نتج شفرات الحلاقة، ثم المقصات فيما بعد. وقررنا أنه من الأفضل لنا أن نتقن استخدامها، وهكذا صرنا حلاقين. دخل أسلافي القسطنطينية مع محمد الفاتح، كانوا جزءاً من بطانة وخدم السلطان."

تبادل محمد والبارون الابتسامات، وبعد أن أعربا عن امتنانهما الودود لحسن، انصرفا ليشرعا في طقسهما اليومي الذي كثر حوله الكلام، والذي شمل المشي النشيط بجذاء المنحدرات الصخرية كل يوم، لمدة ساعة قبل تقديم الغداء.

لبث حسن بابا جالساً وابتعد خاطري عنه. لا بدّ أنه شعرَ بهذا، لأنه نهض، هو أيضاً، وغادر. بدأتُ أفكر في سليم. ما أغربَ ألا أتعرف على صوته وهو يغني. لا بدّ أنه قد رأني جالسةً هنا بصحبة جده، وكانت الأغنية طريقته الفريدة في إعلامي بحضوره.

"هل أعجبتُ أغنيتي سمو الأميرة؟"

كان يقف هناك قبالي في وضع خضوع زائف بحيث لو لاحظنا أحدهم من بعيد لظهر أنه يقف أمامي مثل خادم، بل إنه تظاهر بتنظيف المنضدة.

"أعجبتني أغنيتك حقاً يا عندليب، لكنّ صوتك كان مختلفاً تماماً. أين تخفيه في أثناء الليل؟ لا تطل من وقوفك هنا أكثر من ذلك متحامقاً. سألقاك الليلة في البستان، حين يكسو ظل القمر المرأة الحجرية."

"أيّ بستان؟"

"بستان البرتقال، أيها الأحمق."

"لكنه في الليل يكون رطباً أكثر مما يجب. أنا أفضل حقول الخزامى."

"لا ملجأ يوارينا هناك."

بدت الشيطنة في عينيه. "لم لا نتذوق النعمة تحت عين الله؟"

ضحكتُ رغماً عني. "بستان البرتقال. هناك نبعٌ يتدفق فيه وموسيقى الماء تحمل إليّ السكينة، فأطع أمرنا، والآن انصرف."

ذهب، وقد أخذ معه صينية أقداح الشاي المستعملة والمخني المنخاء خفيفة نحوي بنفس الخضوع الزائف الذي صار أغلب خدم منزلنا يتقنونه الآن. هذه المرة أفلحتُ في كبح ابتسامته.

بينما أسير نحو المنزل لاحظتُ أن حسن بابا كان لا يزال هناك، واقفاً على مقربة من المدخل الأمامي. لقد رأى كل شيء، لكنه لا يستطيع أن يسمعنا. نظرتُ إليّ نظرة غريبة. هل استشفّ في حركات جسد سليم الألفة والحميمية أم أنه بمقدوره قراءة الشفاه؟ ابتسمتُ بوداعة إذ أمر به، وتوجهتُ

مباشرةً إلى الحمام حيث كانت الخادماوات بانتظاري لغسل شعري وتخفيفه وتصفيره قبل موعد الغداء .

إنها الثالثة بعد الظهر الآن . خرج إسكندر باشا من المنزل يسير برفق ، ويرافقه جوليو براجاديني ، المصوّر ، الذي انضم إلينا على الغداء ، ويتبعه بتروشيان . ألقى إسكندر باشا نظرةً بطيئةً ومتأملّة على جميع التفاصيل الخاصة بترتيبات التقاط الصورة . الصندوق الأسود الكبير والتي تسندل عليه قماشة سوداء هو ما يسمونه كاميرا .

كان براجاديني ، كما هي العادة في تلك المناسبات ، يرتدي أفضل ثيابه . كان ملتقاً في حلّة إسطنبولية سوداء ، وعلى رأسه قبعة حريرية ثمينة متوافقة مع حلته ، وعلى وجهه الممتلئ تعبير الشعور بالأهمية ، في غاية من الرضا عن نفسه . كانت عائلته من أهل فينسيا الذين استقروا في إسطنبول منذ مئات السنين ، واشتغلوا في رسم بورتريهات شخصية للأميرات والنبلاء . غير أن صفًا متعاقبًا ممن شغلوا منصب كبير الوزراء لم يرَ أحدهم عمل عائلة براجاديني جديرًا بما يكفي بحيث يسمح لهم برسم السلطان .

وقد أعلنوا في مناسبات عديدة ، وعلى الملأ ، أنهم لا يتقنون تقاليد ذلك الفن على غرار سادته من أمثال ليوناردو أو مايكل أنجلو أو حتى بيليني ، لكنهم ليسوا إلا تجارًا موهوبين قد اكتسبوا فن الرسم كحرفة لا أكثر . لكن جد جوليو ، جيوفاني ، وهو آخر رسامي البورتريهات وأوّل مصوري الفوتوغرافيا ، كان يردّ على تلك الافتراءات التي تنال من كرامة عائلته ، وإن لم يفعل ذلك في العلن قط ، قائلاً إن السبب الوحيد وراء عدم السماح لعائلته برسم السلطان هو أنهم رفضوا باستمرار رشوة من أيديهم

الأمر من الحاشية . وقد علّق العم محمد على ذلك ذات مرة قائلاً إنها إحدى الحالات التي يكون فيه كلا الطرفين على حق في نفس الوقت .

رغم كل تلك المحاكمات ازدهرت أعمال عائلة براجاديني . ومع اختراع الكاميرا، انتهت معركتهم الطويلة لنيل الاعتراف الإمبراطوري بهم . فقد حصلوا على الامتياز الحصري لتصوير السلطان فوتوغرافياً، وتم تعيينهم مصورين خصوصيين للبلاد .

ارتصت بالخارج أربعة مقاعد كبيرة . أولى الصور لم تضم إلا أفراد العائلة فقط وتم تنسيقها ببساطة . جلست أمي على يسار إسكندر باشا بينما هو يجلس في مواجهة الكاميرا تماماً، وعلى يمينه جلس العم محمد إلى جانب البارون . وقفنا أنا وزينب وخليل وسلمان من وراءهم، وأورهان الصغير، وكل بوصة فيه مرسومة على صورة باشا صغير، جلس ما بين قدمي جده وعمه الكبير . كان يوليو الآن في حالة سيطرة تامة على عمله . على مبعده، وخلف الكاميرا، كان جميع الخدم مصطفين هناك من أجل المناسبة الخاصة، وهم في ثياب الأعياد يوجههم بتروشيان، وأخذوا يحدّقون فينا . عمّال البستان في حالة من الوقار، والخدامات يجتهدن لكتف ضحكاتهن كلّما تهاوسن بالبذاءات . ولسبب ما، طالما كان البارون هدفاً خاصاً لسمومهن . ثمّة عبارات شعائرية، لا بدّ من قولها في مثل تلك المناسبات، حين يجتمع أفراد العائلة والخدم معاً، نطقَ بها العم محمد، الذي سار إلى حيث تجمع الخدم وقال مبتسماً: " لله الحمد والشكر . يبدو هذا الاحتفال البهيج على خير ما يرام . " أوشك البارون أن يحنّثق اشمزازاً من الحرص على تلك الرسميات التافهة تماماً .

التقطت الصورة الأولى، ثم جلسنا جميعاً على مقاعد وأورهان في المركز، ومن خلفنا وقف بتروشيان وعلى جانبه رستم البوسني، كبير الطهاة والحاكم بأمره في المطبخ، وإلى جانبه لوقا الألباني، كبير البُستانيين، وحسن بابا. مرّت هذه الصورة أيضاً دون أن يقع ما يسوء. ثم وضعت دكتان طويلتان وراء صف بتروشيان حيث تسلّق للصعود عليهما جميع الخدم الآخرين. ارتفعت الضجّة إلى أن نهضت أمي ورفعت رأسها، مطالبة بالصمت. وما كان للشغب أن يستمر بعد ذلك.

إذ تفرّق المشاركون في الصورة وعادوا إلى مواقعهم، أرسل إسكندر باشا في طلب جوليو براجاديني. أظهر له ملاحظة مكتوبة، فبدت أمارات الحيرة على المصوّر. هرعنا أنا وبتروشيان إلي أبي لمساعدته. أراني جوليو قصاصة الورق. كان مكتوباً عليها: "الآن من فضلك، خذ لي صورة وحدي مع زكية." أشرتُ إلى حسن بابا. فهم الأمر في الحال. نحى جميع المقاعد عدا اثنين، وأخبر جوليو ألا يطرح أسئلة غير ضرورية، وأن يلتقط الصورة وحسب. ساق بتروشيان بقية الخدم بعيداً عن الحديقة. ظلّت العائلة واقفة في الخلف. بدا أبي مسروراً، غير أنه هرع إلى داخل المنزل، مشيراً إلى أنه سيرجع بعد قليل. لم يذهب لقضاء حاجة على الأرجح بما أنه كثيراً ما قضاها في الحديقة.

بعد خمسة عشرة دقيقة شهق الجميه دهشةً، حين عاد إسكندر باشا مرتدياً ثياب درويش. لم ينطق أيّ منا بكلمة. بدا جوليو مبتهجاً، أجلس إسكندر باشا وحاول أن ينحّي جانباً المقعد الخالي، لكنه تلقى تكشيرةً ضارية بحيث تراجع مرتجئاً نحو الكاميرا. رفض إسكندر باشا أن ينظر نحو

الكاميرا، أصرّ على أن يتسم رامقاً رفيقته الخفية على مقعدها الشاغر،
والمحاذي لمقعده، وعلى هذا الوضع التقط جوليو براجاديني له الصورة.

لم يقل أحد شيئاً فيما تلا ذلك. تصرفنا جميعاً كما لو كنا شهدنا أكثر
سلوك معتاد قد يخطر على البال، واتسم رد فعلنا هذا بالحكمة. بعد فترة من
الزمن، سيكتب لهذه الصورة الفوتوغرافية الغريبة، والتي نتجت عن نوبة
حنين صوفية استولت على كيان إسكندر باشا في ذلك اليوم، أن تسافر عبر
العالم وأن تظهر في أغلب كتب بدايات فن الفوتوغرافيا. وفوق ذلك أيضاً،
ستخلد اسم جوليو براجاديني، وهي الحقيقة التي أدخلت قدراً كبيراً من
البهجة على عائلتنا. فقد نال أخيراً الشهرة التي أنكرها السلاطين الأوائل
على أجداده نتيجة نزوة مفاجئة لرجل عجوز حزين فقد قدرته على النطق.
قبل لي إن جوليو قد ألقى محاضرة على الملأ في باريس عن تلك الصورة،
شارحاً لمستمعيه المعجبين الساعات العديدة التي لزمته للتحضير والتأمل من
أجل إحراز النسيج والتكوين المثاليين. كانت تظهر في الأعمدة الفنية في
الصحافة الأوروبية أنباءً عن أحدث بورتريهاته الفوتوغرافية فيما بعد، لكننا
لا بدأنا لا نتشتت، فخيالات عائلة براجاديني لا موضع لها في هذه القصة،
وعليّ ألا أقفز على الأحداث وأسبق الزمن. فقد كان الماضي عسيراً بما
يكفي.

صفا الآن كل شيء، وصارت أحداث ما بعد الظهيرة بعيدة، غير أنّ
ما اعترى إسكندر باشا من تغير لا يمكن تجاهله. قرّر أنه لا يريدنا أن نזור
غرفته بعد وجبة المساء.

كتب في ورقته التي دارت على كل منا بالتناوب: " لا رغبة عندي في انتباهكم، أتوقُّ إلى العزلة. أنتم جميعاً أحرار في البقاء أو العودة إلى أسركم. "

دعا العم محمد إلى خلوة عائلية لمناقشة المسألة، حضره جميع من شاركوا في الصورة الفوتوغرافية عدا أورهان. دعونا أيضاً حسن بابا لينضم إلينا في احتساء القهوة. مَنْ سيبادر بالحديث؟ رحنا ننظرُ إلى بعضنا بعضاً، مآحين تشجيعاً صامتاً لأي شخص يريدُ أن يفتح الكلام. ولم يكن مفاجئاً أن يكون البارون هو أوّل المتحدثين.

" أسوأ رد فعل يمكن لنا أن نتخذه هو المبالغة في رد الفعل. من واقع معرفتي بتاريخ هذه العائلة أرى سلوكه هذا عجيبيّاً، لكنّه ليس فيه ما يدعونا للقلق حقاً. لقد غلبه الحنين إلى زكية هانم فقرر أن يكرّم ذكرها في حضورنا. أجدُ هذا أمراً مؤثراً للغاية. "

ثم قال حسن بابا، الذي كان يؤمّي برأسه في نشاط بينما يتحدث البارون: " لا أقصد الإساءة إلى أي من الحاضرين، لكن مسلك إسكندر باشا بالنسبة لي يُعدُّ مُطمئناً. لقد أحبّ زكية هانم أكثر مما أحب أي شخص آخر في هذا العالم كله، ولم يتوقف عن التفكير فيها قط. ولجّمت معاناة سلمان باشا عن هذا إذا أُعتبر السبب في موتها. ونصيحتي هي التحلّي بالصبر. أعتقد أنه أبعد ما يكون عن الجنون، بل إنه قرّر أن يعود إلى رشده من جديد. "

عادةً كانت أمي تلزم الصمت في مثل تلك المناسبات، ولكن ليس اليوم. " فيما مضى، كان كثيراً ما يتحدث عن أم سلمان. وقد أخبرني بأنه

ليس بمقدوره أن يجب مرة أخرى أبداً. اعتاد أن يردد أن الفحم اليبس لا يُمكن أن يُضرمَ ناراً جديدة بعد ذلك أبداً. وقد فهمته تماماً. ومع ذلك، وكما نعلم جميعاً، فلطالما كان شخصاً متحفظاً وكتوماً للغاية. ليست عواطفه هي ما يقلقني، بل رغبته في إعلانها على هذا النحو. إلى أين قد يؤدي كل هذا؟"

تنحس سلمان. "أتفق مع الحالة خديجة. إن ضغينته القديمة نحوي لم تعد تشغلني الآن. بطبيعة الحال، أنا أيضاً كنتُ أتمنى لو كان بمقدوري أن أرى أمي، رغم أنني أعتقد من خلال ما سمعته عنها أنه لم يكن مُستبعداً أن تحزمني في بُقجة وتلوذ بالفرار من إسطنبول. يعرف حسن بابا هذا خير معرفة، فقد شاركت أمي العثمانيين الأوائل غريزة الترحال. ما كان لها أبداً أن تحظى بالسعادة مقيمةً في مكان واحد، ولكن لا جدوى من تخمين تلك المسائل. ما يقلقني هو خيط الجنون الذي يجري على امتداد عائلتنا. يا عم محمد، في طفولتنا كثيراً ما ذكرتَ عمًا بعيداً للغاية من أجدادنا الذي صار جنونه أسطورة. إن الدم ذاته يجري في عروقنا."

شرح محمد يضحك. "العم البعيد للغاية أحمد. نعم، كان حالة خاصة جداً. حتى السلطان ابتسم من مغامراته الطائشة. كم منكم هنا يعرف القصة؟ سلمان فقط؟ هذا غريب. ربما تم إخفاؤها عن بقيتكم عمداً لصالحكم."

"كان أحمد باشا محارباً. شارك في عدد من الحروب، واشتهر برعونته التي غالباً ما أشاروا إليها، وأسفاه، بصفتها جسارة. وعندما سئم القتال بدأ يقرض الشعر، لا بد أن بعضاً مما كتب ما زال موجوداً في مكان ما."

كانت قصائده أبعد ما تكون عن الحرب. انحصر ما نظمه حول الجمال الطبيعي للحيوانات. الطيور، الوعول، السمك، الإوز، الكلاب، القطط، السلاحف، الخيول، الأفيال، والنمل، جميعها ساهمت بجزء في مختاراته الشعرية. احتفى ببراءتها وكتب كيف يعتمد الإنسان في حياته على كل منها. يُحكى أن السلطان شرع يضحكُ بينما كان أحمد باشا يتلو قصيدة غنائية مُهداةً إلى الخبزون. ضحك كثيراً وبشدة حتى اضطرت الحاشية أن تخلي الغرفة. هاج سلفنا البعيد غضباً إزاء هذا السلوك. وكما نعلم، ثمة ميل في عائلتنا للاعتداد بالنفس وأخذ الأمور مأخذ الجد على الدوام. يمكننا أن نتج رسوماً مثيرة للحرع، وشعراً موجعاً للأذان، ورسائل غرامية مدمرة للعواطف، لكن من يجرؤ على انتقاد عمل أيدينا فلا أقل من الموت عقوبة له. أفترض أن هذا الموقف لم يكن إلا مرآة تعكس ما يجري في القصر حيث السلطان معصوم وفوق النقد على الدوام. إنها هذه البلادة وهذا الجمود ما قضيا على الإمبراطورية وأعاقوا تقدمنا، وقد فعلا الشيء نفسه لعائلتنا الشقية. نحن أيضاً، ظللنا نشهد قوانا تنحلّ وتنهار لبضع مئات من السنين. أرجو المعذرة، يا صغاري، فقد بدأت أتكلم مثل البارون. "

ضحكنا، بما أننا دائماً ما كنا نرى الرجلين قابلين للخلط والتبادل فيما بينهما دون صعوبة، كان من النادر أن نجدهما على خلاف. وكما لو أن البارون أراد أن يثبت هذه النقطة، مسد شاربه وتناول طرف خيط القصة.

"سوف نقضى الليل كله هنا إذا واصل محمد سرده بهذه الوتيرة. بلغ الغضب بأحمد باشا حدّ أنه لم يعاود الذهاب لتقديم احتراماته للسلطان مرة أخرى. وبدلاً من ذلك، فقد استدعى دستتين من قدامى فرسان السباهية^(٢)

من خدموا معه وأخبرهم بأن يتأهبوا لحرب جديدة. انتباتهم الحيرة، غير أنهم كانوا شديدي الولع به ومهما كانت الشكوك التي ساورتهم فقد تبذرت جميعاً إذ أرسل صرة نقود إلى عائلة كل منهم. سلّحهم وألبسهم الزي الرسمي الخاص بجرّاس السلطان. واتخذ هو نفسه زي السلطان وأمر بصنع عربة جديدة على نفس طراز تلك الخاصة بمولاه. وعلى هذه الهيئة بدأ يسافر في الريف وفي كل مكان يجلّ فيه كان الناس يفترضون أنه السلطان. يتبعونه في حشود هائلة حين يذهب إلى الجامع المحلي لأداء صلاة الجمعة، لأنهم ظنّوا أن الله سيكون أكثر استعداداً للإنصات إليهم إذا ما كان إمامهم خليفة المسلمين. وحين كان أحمد باشا يخطب فيهم كان يحمل على النفاق والفساد. ويقولون إنه قد أمر فرسانه السباهية بإعدام جباة الضرائب في ثلاث قرى. كانت هذه الأنباء ما جعلت كبير الوزراء يصاب بالذعر. حتى ذلك الحين كان السلطان يتسلى للغاية بطرائف وملاعبب أحمد باشا وقد أمر الوزير بأن يتركه لحاله. ومع ذلك، فحين سرّت أنباء الإعدام دفعت أمامها موجة من الترقّب عبر الإمبراطورية. بعث السلطان رسولاً إلى أحمد باشا، يستدعيه إلى القصر.

"وقد ردّ سلفكم العظيم بأروع أسلوب. طلب من الرسول أن ينتظره حتى يكتب رسالة للسلطان. ثم صرف خدمه لهذا اليوم وودّع فرسانه السباهية. حينما خلا البيت عليه شفق نفسه. قرأ الوزير الرسالة ثم أتلّفها، ولم تصل أبداً إلى الشخص المقصود بها. خسارة كبيرة، فرجما كانت تلك هي المرة الوحيدة التي سيسمع فيها السلطان الحقيقة. أكان إيجازي للحكاية دقيقاً، يا حسن بابا؟"

أوماً العجوز. " حتى يومنا هذا ما زال ذكر أحمد باشا حياً في تلك القرى. حين صار معروفاً أنه لم يكن السلطان، بدأ البعض يتساءل: " ولم لا يكون؟"، في حين اشتط آخرون إلى حد التساءل عن ضرورة وجود السلطان نفسه. وهكذا فحتى في حالة أحمد باشا لم يخلُ الجنون من القصد والغاية. بدأ الناس يتداولون نسخة من رسالته في مدن كثيرة، واستغلوا تضحية أحمد باشا ليعربوا عن مظالمهم. لو كان مختل العقل، فإننا بحاجة للكثيرين من نوعه الآن. كل شيء يتحطم ويتفتت في هذه الأيام، ونحن نندفع بشدة نحو الهاوية. إننا بحاجة إلى بسمارك باشا! " ولسرور الرجل العجوز بمزحته وبمعرفته بالعالم الخارجي، فرقعت ضحكته انشراحاً. أما نحن فقد كبحننا سرورنا.

قرّر خليل أنه قد حان الوقت لإنهاء هذا اليوم. " كفانا من كل هذا الحديث. قد يُلقى القبض عليك بتهمة الخيانة وتُعدم رمياً بالرصاص يا حسن بابا. أنا غير مقتنع بالمرّة أن أبي قد اختلّ عقله أو أنه يمضي نحو ذلك الاتجاه أصلاً. ثمة أمرٌ جديد، إنه يدخل مرحلةً جديدةً من حياته. عالمه الداخلي بلغ حالة من الاضطراب الكامل. وكل ما يسعنا هو أن نمد له يد العون بقدر ما سيسمح لنا به، بحيث نكون واثقين من أنه يعيش في سكينته. "

حين تفرقنا، رافقتُ أمي إلى غرفة نومها.

" هل سبق أن تحدثت معه عن سليمان؟ "

" كثيراً. "

اندهشت. " وبعده؟ "

" كان متعاطفاً على الدوام. أبدى تفهماً. "

" وهل سبقَ أن تحدّثَ معك عن أم سلمان؟ "

" نعم، ولكن ليس كثيراً للغاية . كان يُضطر إلى ذلك كلّما اجتاحه ما يشعر به من ألم فراقها . عندئذ كان يأتيني فأمسد رأسه وأدعه يحكي عنها إلى أن يستعيد طمأنينته . عرف كَلانا أنه ما من أحد منا يستطيع أن يختبر مثل ذلك الحب مرة أخرى وقد قربنا إدراك هذا من بعضنا أكثر . "

" أتظنين أنه يعرف أنني . . . "

وضعتُ أُمي يدها على فمي . " ششش . لا هو سأل ولا أنا أخبرته قط . لا يعني هذا أنه غافل . أنا لا أعرف ببساطة . حتى لو كان يعرف ، فإن عاطفته نحوك لن تتبدل بأهون قدر . لم يمل يوماً لامتلاكه والاستحواذ عليّ بأي درجة . ماذا تنوين أن تفعلي بشأن سليم؟ يبدو أنه ليس في الحقيقة حلاقاً بالمرّة ، بل هو مُطرب . "

" سوف أتحدّث عنه في وقتٍ آخر يا أُمي . لقد نلنا كفايتنا من المفاجآت ليومٍ واحد . "

(٩)

نيلوفر وسليم يتعلمان كيف يعرف أحدهما الآخر
وهي تدرك أن عواطفها خرجت عن السيطرة

شعرتُ بالذعر لأول وهلة عندما نظرتُ من النافذة تلك الليلة . تجاوز
الوقت منتصف الليل . شوّهت السماء سحبٌ داكنةٌ قبيحة ، كان يمكنني أن أرى
من ورائها هيئةً باهتةً للغاية للبدر . كان نسيمٌ صيفي يهبّ عبر البحر لكنه لم
يُعد صفاء السماء بعد . أيقظتني دقائق ساعة الحائط الكبيرة في بهو المدخل قبل
الموعد بنصف ساعة . كيف سيتمكن سليم من تحديد وقت موعدنا؟

تقع غرفتي في جناح المنزل القديم ، والذي كان فيما مضى معداً
لاستضافة الأمراء والتبلاء . كانت واجهته تطل على الجبال والطريق المؤدي
إلى المدخل الرئيسي . حين كنا أطفالاً ، كنا نتشاجرُ أنا وزينب حول أيننا
ستحظى بهذه الغرفة ، لأن سلمان كان قد أخبرنا أنه حينما أتى كبير وزراء
السلطان للإقامة هنا ، كانت هذه غرفة نوم قائد الانكشارية بحيث يمكنه أن
يراقب كل من يصل وكل من يغادر . فيما بعد اعترف سلمان أنه كان
يتلاعب بنا وحسب ، ولكن الغرفة ظلّت محتفظة بما أضفيناه عليها من سلطة
عسكرية : كان لمزحته أثرها .

كان البارون والعم محمد يقميان في الجناح الملكي القديم تحتي، ولكن هنا في الطابق الأعلى كنتُ بمفردي تمامًا. كان أورهان ينام، بناءً على طلب أُمِّي، في غرفة ارتداء الثياب الملحقة بغرفتها. انتابنتي رعدةً خفيفةً فلففتُ شالاً حولي وخرجتُ من غرفتي. المرة الأخيرة التي تسللتُ فيها من البيت خلسة كانت بغرض لقاء ديميتري في بستان البرتقال. لماذا أصررتُ على لقاء سليم في المكان نفسه؟ أكان ذلك لأحو الماضي أم لأبغض من قدر الحاضر؟

خرجتُ من المنزل من باب جانبي. توترَ سليم لغياب القمر فقررتُ انتظاري في الحديقة. أمسكنا بأيدي بعضنا البعض بينما نسير نحو بستان البرتقال. بدأت أعتاد الظلام ببطء. كان سليم يتسمم، كم كانت تروقني براءته تلك. لم أرغب أن أخذه إلى بستان البرتقال. لعلنا نذهب إلى الكهف المطل على المرأة الحجرية، فإذا ما رأيت كل شيء لن أكون بحاجة إلى تكراره عليها مرة أخرى، ولكن توجد في ذلك الكهف ثعابين وسحالي كبيرة وقد يخنق الخوف منها شغفي. استشعرَ ترددي.

"ما الأمر؟"، سأل هامساً، ولكن صوته بدا مرتفعاً حقاً.

أجبت: "لا شيء. النسيمُ برّد الأرض وأشعر ببرد خفيف. ظننتُ أن الجو سيكون أدفاً."

وعرفتُ عندئذ ما يجب فعله.

"تعالَ معي"، قلتُ له وقد شرعتُ في السير عائدةً باتجاه المنزل.

كان هذا دوره ليرتجف. قال: "نيلوفر، هذا جنون."

لم أجب. بلغنا الباب الجانبي فتوقّف، رافضاً أن يمضي قدماً. قرصته بشدة في ردفه، ما دفعه للضحك، ودفعته عبر الباب. صعدنا الدرج،

مجاهدين بشدة ألا نضحك رغم أن الموقف كان أبعد ما يكون عن المرح .
دخلتُ غرفة نومي وجررته ورائتي .

قلتُ بصوت عادي : "والآن يا عندليبي ، هل ناوي إلى الفراش أم أن
الخطر أخذ الإثارة؟"

"أريد أن أتزوجك ."

"لا تكن أحمق . أنا زوجة شخصٍ آخر ."

"أريد أن تنجبي أطفالاً ."

"عندي اثنان وهما كافيان ."

"واحد آخر زيادة ، إذن . . . من أجل خاطري فقط ."

بالخارج فعل النسيم فعله ، وصفت السماء واستحمت الغرفة بنور
القمر . طرحتُ ثيابي أرضاً وعريتُ سليم . أخذ كلُّ منا يستكشف جسدَ
الآخر .

"هل هذا هو ما علّمك إياه الدارويش؟" همستُ في أذنه .

"كلاً ، ولكن هل أخبرك بما علّموني إياه؟"

"نعم ."

جلس على الفراش ، غير مكترث لعريه التام . ودون أن يتوقّف عن
مداعبة جسدي ، أخذ يتمايل على الجانبين قليلاً وراح يغمغم بابتهاجٍ
صوفي .

"إذا سألوك : ماذا يوجد على رأسك ، وعلى حاجبك ، وعلى أنفك ،

وعلى صدرك ، فلا بدّ أن يكون جوابك : على رأسي تاج الجذب السامي ،

وعلى حاجبي قلمُ القدرة، وفي أنفي ریحُ الجنان وعلى صدري قرآن
الحكمة. "

"أما أنا فلا أستطيع الكذب يا سليم. ستكون إجابتي مختلفة.
سأقول: على رأسي عبء كوني امرأة، ويمكن أن أوافقك على الحاجب،
ولكن في أنفي سأشم رائحة الفقر وعلى نهدي يدا سليم. "

بعد أن شعبنا من بعضنا بعضاً، سألتُه عن أمه. فاجأه اهتمامي بها.

"تعيش معنا في بيت جدي. أما أبي، كما أخبرك حسن بابا، فقد تاه
عن عالمنا هذا. يعيش ما يؤمن به ويدعو إليه، ولا نراه إلا فيما ندر. وقد
كانت أمي جزءاً من ذلك العالم ذات يوم. لا تسمح الطريقة التي ينتمي
إليها أبي للنساء بالدوران والرقص، كان دورهن يقتصر ببساطة على إعداد
الطعام وتأمين احتياجات الدراويش. سُمح لأمي بالمغادرة بعد أن وافقت
على الزواج من أبي. لا بد أن تستمعي إليها وهي تتحدث عن مقدار
سعادتهم كلما انتابتهم غشية الوجد.

"هل لي أن أسألك سؤالاً؟"

أومات.

"يقولون إن زواجك انتهى أمره؟"

"حقاً؟ من هم؟"

"خادمت أمك. "

"لم يتعدوا عن الحقيقة كثيراً ولكنهن يثرثن بالنميمة دون الاطلاع
على الحقيقة كاملة ويجمعهن التحامل ضد اليونانيين. اسمعني يا سليم،

كان زوجي أباً صالحاً لطفليّ، ولذلك السبب، لن أسيء إليه أبداً. إننا منفصلان حالياً وبمجرد أن ينقضي الصيف سوف أعود إلى إسطنبول. لا بدّ أن يتعلّم أورهان وأمينة في مدرسة لاثقة. سوف أسمح لزوجي برؤية طفليه متى شاء وسيكون له على الدوام فراش في منزلنا، ولكنه لن يقاسمني فراشي مرةً أخرى أبداً. أعتقد أنه سوف يرضى بتلك الشروط. لقد بعثنا إليه برسول إلى قونية يحمل خطابي إليه ولا بدّ أنه سيعود قريباً. " سألتُه عن مستقبله فضحك.

"بعد أن يرحل حسن بابا عن عالمنا هذا سوف أبيع صالون الحلاقة الخاص بي. يمكنني أن أفعل هذا الآن، ولكن هذا سيضايق العجوز كثيراً. على كل حال، ظلت عائلتنا تقص شعور عائلتكم على مدى قرون عديدة. كيف لنا أن نتوقف عن هذا الآن؟ ما زال حسن بابا غير قادرٍ أن يغفر لأبي خيانتته لحرفتنا. سوف أنتظر.

"يمكنك أن تصير مطرباً ذا شهرة عالمية. يمكنك أن تغني في أوبرات دونيزيتي باشا. يمكنك أن . . ."

"كلاً! لا أرغبُ في بيع صوتي. فليكن سروراً وامتعة للجميع على السواء. سأواصل الغناء في احتفالاتنا وفي الشوارع كلّما واتني المزاج لذلك، لكنّ ما أريده حقاً أن أكون مصوراً فوتوغرافياً، مثل سنيور براجاديني.

"لكن لماذا؟"

"أدهشتك، أليس كذلك؟ لقد أدهشتُ نيلوفر ذات العينين الخضراوين والحلمتين الجميلتين. لماذا؟ أجيبي بصراحة. ألا تستطيعي أن

تتخيلي مستقبلاً لي غير ما يُمليه عليّ ماضيّ وأصولي؟ أتُحسبون أن الإيطاليين وحدهم يمكنهم أن يكونوا مُصورين؟ وأن هذا الفن الجديد يتجاوز قدرات فتى أناصولي فقير؟

"هل غضبت؟"

ضحك وقبّل شفتي لأول مرة. راقني اطمئنانه. كيف عساه أن يكون واثقاً بنفسه إلى هذا الحد، وغافلاً كذلك عما سيجدُ في طريقه من عقبات، وخصوصاً في عالمنا هذا، والذي لا يزال موصداً في وجه أشخاص مثله؟ لعلّه ورث عن أمه تفاؤله هذا، لعلّها غرستُ في نفسه الإيمان بأن كلّ شيء ممكن. وكل ما يلزم لتحقيقه هو التصميم والقوة الداخلية. وكما لو كان أراد أن يؤكّد ذلك تحدّث من جديد.

"أعلم أننا ذات يوم سنكون معاً. أحسّ بهذا في دمي. لقد زكّاني عمك محمد بالفعل كمساعد لسنيور براجاديني، هذا هو الاسم الذي يقول إنني سوف أخاطبه به. ذات يوم سأكون مشهوراً وعندئذ ستأتين معي. أهذا مستحيل؟"

"لا"، كذبت. "لماذا يجب أن يكون مستحيلاً؟"

"لأنني من عائلة فقيرة وأنت ابنة باشا."

لو يطلع على الحقيقة فقط. ربما أخبره ذات يوم. قررتُ أن أغير الموضوع.

"إنني أكبرك بثلاث سنوات."

"هذا ليس كافياً لتكوني أمّاً لي"، وضحك.

"أنا متأكدة أنك ستجد العديد من الشابات الحسان متأهبات للسقوط بين ذراعيك بمجرد سماع صوتك ."

"لن تكون تلك بالتجربة الجديدة عليّ ."

قال هذا بذلك الصوت الجاد بحيث انفجر كلانا في الضحك . حتى ونحن بالقرب من البحر ، حين مارسنا الحب لأول مرة ، لم أشعر أنه مبتدئ تماماً . ما حيرني هو تلك الدرجة من الحنكة والثقافة التي اكتسبها .

"هل تعلمت القراءة في البيت أم في المدرسة؟"

"لماذا تسأل الأميرة؟ هل أدهشك أنني لستُ جلفاً؟"

"كلاً . فلا علاقة للذكاء بالتعليم الرسمي . ولكن يساورني إحساس أنك غارق في ثقافتنا وشديد الابتعاد عنها في الوقت نفسه ."

"أنت الآن تقولين إنني لستُ مجرد مُنشد للأشعار الصوفية ، ولكنني شخص صاحب خيال خاص به . ربما شخص قد يصبح ذات يوم مصوراً فوتوغرافياً أكثر موهبة من سنيور براجاديني ."

"لماذا تأخذ الكلام بهذا القدر من الحساسية؟"

"لأنني ما زلتُ أبيت في مساكن الخدم وهذه الحقيقة تلون صورتك عني ."

"لقد بتّ الليلة في هذا المنزل . في فراشي ."

"أخطأت الأميرة من جديد . لقد تأخر الوقت على النوم الآن ."

"لم تجب سؤالي بعد ."

" تعلمت قراءة لغتنا في المدرسة ، ولكنني تعلمتُ قراءة الفرنسية من جدي والتحدّث بها من دبلوماسي فرنسي أقصَّ له شعره بانتظام وبتقاسم الإعجاب بروايات مسيو بلزاك . "

" روايتي المفضلة له هي أوهام ضائعة . "
بدأ يستعيد ثيابه ويرتديها على عجل .

" أحيانًا يمكن أن تصير الروايات الفرنسية وسيلة إلهاء رهيبة . أنا أنصح بقراءة أعمال فيلسوف اسمه أوغست كونت ، فلديه الكثير ليقدمه إلى هذا البلد . يمكنه أن يمنع اندفاع مستقبلنا نحو هاوية بلا قرار . " ثم انسلَّ سليم خارج الغرفة دون عناق عاطفيٍ أخير .

غطيتُ نفسي وأسرعتُ إلى النافذة . كانت خيوط الفجر الأولى شديدة الوهن قد بدأت تغيّر لون السماء ، ورأيتُ سليم يسير عبر الحديقة . لا بدّ أنه استشعر نظرتي نحوه لأنه استدار فجأة وتطلع نحوِي . قذفت له قبلة ، فابتسم ومضى .

لطالما ظننتُ أن عواطف سليم قد تخرج عن نطاق سيطرته ، وأنه ربما يشرع في الغناء تحت نافذتي عامدًا ، لكي يجرّني أمام عائلتي . غير أن ثباته أدهشني . أدركتُ أنني أنا التي استولت عليها حالة هياج واضطراب . برقت في خاطري صورةٌ بدنه العاري وسرعان ما أحسستُ بوَهْنٍ من فرط اللذة .

(١٠)

مأساة يونانية في قونية؛
أمينة تصل إلى المنزل؛
ونيلوفر مفتونة بإسكندر باشا

استيقظتُ على ضجيج عويل النساء . للوهلة الأولى ظننتُ أن الصوت جزءاً من حلمي ، لكنه أخذ يزداد ارتفاعاً وكان حلمي خالياً من أي كوارث . أي مصيبة حلت بنا؟ هل مات أحد؟ وثبت خارج الفراش ، وألقيت بثياب الأمس المطروحة على جسدي نصف النائم . أول فكرة خطرت لي أن شيئاً رهيباً قد حدث لإسكندر باشا .

هرعتُ أنزل الدرج ودخلت غرفة الاستقبال الواسعة والخالية من الأثاث تقريباً والتي نادراً ما نستخدمها ، ووجدتها ممتلئة بالوجوه الحزينة . كانت أمي تبكي وهي تحتضن أمينة وأورهان . حدث شيءٌ ما لديميتري .

ركضت أمينة نحوي ، فرفعتها عن الأرض . لم تقل كلمة ، فقط وضعت ذراعيها حول عنقي وأخذت تبكي . سرتُ نحو أورهان . كانت الدموع تبلبل وجهه هو الآخر ، غير أنه خطأ متراجماً حين حاولتُ أن أخذه إلى حضني . رمقني بنظرة غاضبة .

قال بصوتٍ كسيرٍ: "ربما لو بقينا في قونية لما تجرأوا على قتل أبي ."

"ماذا حدث؟" تساءلتُ دون أن أوجه كلامي لشخص محدد بينما شرعت الدموع تغمر وجهي . وضعت أُمِّي إصبعاً على شفتيها . لم يكن الوقت المناسب .

تعلقتُ أمينة بي بقوة أكثر . أخذتها إلى غرفتي بالأعلى . كانت تسافر طوال الليل ومنهكة القوى . مسدت وجهتيها وقبلتها وأرقدتها على الفراش .

"أتريدين بعض الماء؟"

أومأت ، ولكن في البرهة القصيرة التي احتجتها لأرفع الدورق وأصب الماء وأملاً القدح وأعود لها كانت قد استغرقت في النوم . برفق ، خلعت حذاءها المغبر وجورها من قدميها . غطيتها بغطاء خفيف وجلستُ بجانبها لأشبع من النظر إليها . لم أرها لمدة شهر كامل . بدت السكينة على وجهها ، وكنت على وشك النزول للطابق السفلي حين ظهرت أُمِّي على مدخل الباب . حين رأت أمينة نائمة أشارت إليّ لألحق بها .

ذهبنا إلى الغرفة المجارة ، والتي لم تستخدم منذ مائة سنة على الأقل ، وجلسنا على الفراش بعد أن رفعنا عنه الأغطية .

"أين أورهان؟"

"أخذه صديقك سليم في تمشية على البحر . الصبي يحبه ، وأفترض أن هذا أمر طيب ."

"أمي!" ، قلتُ في شبه صباح . "هذه ليست اللحظة المناسبة . ماذا حدث؟ أيمن أن يتفضل عليّ أحد ويخبرني بما جرى لديميتري المسكين؟"

كانت قصة حزينة . سادَ الاضطراب قونية ، بهدف طرد اليونانيين المتبقين خارج المدينة . كان المحرضون واقعين تحت تأثير حركة تركيا الفتاة ، والتي ترى جميع اليونانيين عملاء لبريطانيا وروسيا وفرنسا . كان هؤلاء هم الأشخاص الذين يريدون أن يصنعوا مرةً أخرى إمبراطورية نقية وحديثة . لم يكن عدد اليونانيين المقيمين في قونية كثيراً ، مقارنةً بسميرنا وإسطنبول ، غير أن أتباع تركيا الفتاة أرادوا جذب الانتباه ونيل الإعجاب . بعثوا رسلاً إلى جميع الأسر اليونانية يتوعدونهم إذا لم يجمعوا متاعهم الضروري ويغادروا المدينة فسوف يتم الاستيلاء على منازلهم وتُصادر بقية ممتلكاتهم . غادر الجميع ، عدا ديميتري . رفض أن يفترق عن كتبه .

بلغه الرسول بخطابي إليه في اليوم التالي مباشرةً . قرأه بعناية ثم أخذ أمينة إلى منزل جيران أتراك . احتضنها وقبّل مقلتها ثم جبينها . ثم جلس وكتب ردّاً على رسالتي ، وأسلمه للرسول ، لكنه أخبره أن عليه الانتظار حتى الصباح التالي ليعود بصحبة أمينة . توصلّ الجيران إليه أن يأخذ الطفلة ويحضرها بنفسه إليّ ، لكنّه أبى .

في تلك الليلة دخلوا المنزل في صمت ونحروا رقبتهم . بقيت كتبه بلا مساس . كان ديميتري هو القاتل الوحيد . أسلمتني أمي رسالته ، بكيت من جديد بينما أفضّ ختمها . كان من العسير أن أتخيل أنه قد رحل إلى الأبد . إن كان بي أي حب له فلم يكن بالغ العمق ، ولكنه كان رجلاً صالحاً وأباً محباً كما رددتُ لأسرتي بلا كلل . جعلني التفكير في طفليّ أبكي بصوتٍ

مرتفع . أخذتني أمي إلى صدرها وراحت تمسّد رأسي حتى تعافيت . بعد أن شربتُ بعضُ الماء قرأتُ الرسالة الآتية من قونية .

زوجتي العزيزة ،

لقد بلغتُ نهاية المطاف . المستقبل يهددني والماضي قد أدانني من قبل . زعران المدينة وأشقياتها، ممن يرتدون الآن ثياب تركيا الفتاة، يزعمون مناصرتهم لأفكار الإصلاح والتحديث . والحقيقة أنهم لا شيء أكثر من مجموعة مجرمين يرغبون في احتلال منازلنا ورفع مكانتهم في المجتمع . كما تعلمين فإن هذا المنزل متواضع ، غير أن عائلتي عاشت هنا لأكثر من مئة عام . في داخلي شعور ارتباط قوي بهذه المدينة وبهذا المسكن . أرفض أن يكنسوني بعيداً عن هنا مثل قطعة من قمامة قدرة . إذا حاولوا تنفيذ تهديدهم فعلاً فسوف أنظر في عينيّ قاتلي مباشرةً ، بحيث يمكنه أن يتذكر وجهاً واحداً على الأقل من وجوه ضحاياه . أخشى المستقبل يا نيلوفر . الطوالع والدلائل لا تُبشر بأي خير . من يطردوننا خارج ديارنا الآن سوف يدمرون كثيراً مما كان طيباً في الإمبراطورية .

لا أتمنى أن تعتبري نفسك مسئولة على أي نحو عن القرار الذي اتخذته . لقد أدركتُ منذ وقت طويل أننا لسنا أنسب شخصين لأحدنا الآخر . لقد كنتُ الضفدع الذي بقي ضفدعاً ، فيما كنت دائماً الأميرة . طالما اعتقدتُ أنه لولا طباعك المتكبرة لكنت عدت إلى منزلك قبل مولد أورهان بفترة طويلة . أحسبُ أنك أدركت في مرحلة مبكرة للغاية أن زواجنا كان خطأ ولكنك لم تستطعي الاعتراف بهذا لوالديك . حكمَ عليك كبرياؤك بأن تقضي حياتك معي ، ولا بدّ أنها كانت حياةً لا تُطاق . لطالما

شعرتُ بأن هذا هو الأمر، ولكنني لم أستطع قط أن أرغم نفسي على النطق به في وجهك . كم ألمني هذا .

أعرف أنك فخورة بطفليتنا مثلي تماماً . أشعرُ بيؤس بالغ لأنني لن أستطيع أن أتتبع قصة حياة كل منهما بينما يكبران أو أن أحمل أطفالهما بين ذراعيّ، لكنني أعرف أنهما سيُكونان في أمان معك . إن لم يكن ما أطلبه كثيراً للغاية، فأرجو أن تتحدثني إليهما عن أبيهما أحياناً . وحين يكبران بما يكفي ليفهما أرجو أن تشرحي لهما أن أباهما مات دون مساسٍ بكرامته وشرفه، وأنه رفض أن يعيش في ظل الخوف .

ذات مرة بدأتُ أحكي لأورهان قصة جاليليو، لكنني توقفت لأنه كان أصغر من أن يقدّر المعضلة . كان جاليليو يدرك أن الحقائق التي اكتشفها ذات شأن عظيم للغاية، لكنه ما إن هدّدوا حياته تراجع عنها وتنكر لها بمنتهى البساطة . لقد أحسّ أن الأمر لا يستحق التضحية بحياته سواءً كانت الأرض هي التي تدور حول الشمس أم العكس . وربما يكون قد أحس أيضاً أن الأهم بالنسبة له أن يعيش وأن يعمل بحيث يمكن لتلاميذه أن ينشروا الحقيقة من بعده . رفضي الإذعان والخضوع مسألة سياسية . أخبرني أورهان وأمينة بأسفني، ولكن ليس هناك من سبيل آخر أمامي في الحقيقة .

ديبيري .

حين ذهبتُ لأغسل آثار الدمع عن وجهي شرعتُ أمني في قراءة الرسالة . كان نبأً منه أن يعفيني من كل مسئولية، لكنني كنتُ أعلم أنني لو أحببته لما كان تخليّ عن حياته بهذه السهولة . كان لغضب أورهان ما يبرره . لو أنني بقيتُ معه في قونية لما وقع شيءٌ من هذا . لقد اتخذ قرار موته دون

مشاورة أي شخص آخر . كان شيئاً لا يُمكن الإقدام عليه إلا داخل قلب صامت ، ولا يُمكن السماح للعقل بالتدخل . لو أن حياته العاطفية لم تشكّل كل هذا العبء عليه ، أو بتعبير آخر لو لم يكن ما تجرّعه من ألم أمام قراري بالانسحاب من حياته تماماً أشدّ من احتمالها ، لكان ما زال حياً . لم يرغب في الاعتراف بذلك لنفسه أو للطفلين ، لكنني كنتُ أعرف أنها الحقيقة . لم يحتمل الألم اليومي للحياة وكانت معاناته له بلا جدوى بما أن الأمل نفسه قد تبدد . لم يكن هناك شيء يمكن له أن يفعله بوسعه أن يُعيدني إليه . وفجأة مرّت بخاطري فكرة رهيبة فصرخت ، فهرعت أُمي إلى جانبي .

"ماذا لو أن رسالتي إليه هي ما دفعته إلى التهلكة؟"

"اطردي من عقلك تلك الأفكار يا نيلوفر . الواضح من رسالته أن تصرف على هذا النحو بدافع من معتقداته ."

"أنت لم تعرفيه قط يا أُمي . الأمر ليس كذلك . لقد قرر أن يموت لأن الحياة من دوني لا تستحق عيشها ."

"لا تعذبي نفسك يا بُنتي . فكّري في طفليك . لا بدّ أن يؤمنا بما ورد في هذه الرسالة ، فقد كانت هذه أمنيته وثمة غاية نبيلة فيها جديرة بالإعجاب ."

"ألم يكن هو من اعتدت تسميته بمعلم المدرسة اليوناني القبيح الهزيل يا أُمي؟"

"وقد كان كذلك أيضاً ، لكن حتى القبيحين يمكنهم أن يتصرفوا بنبل ."

انطلقت ضحكتي رغم حزني . أفاقني طرقٌ على الباب ، خشية أن يكون أحد الطفلين ، لكنه كان بتروشيان .

" إسكندر باشا يود أن يراك يا حضرة الهانم . "

ذهبتُ إلى غرفته ، غير أنها كانت خاوية . كان إسكندر باشا جالساً إلى مكتبه في المكتبة القديمة . كانت غرفة قديمة جميلة ، تكسو جدرانها الألواح الخشبية وتكاد أرفف الكتب أن تلمس السقف المرتفع . أغلب كتب الأدب باللغة التركية والعربية والفارسية والألمانية والفرنسية . اختلطت الأعمال الكلاسيكية لثقافتنا دون صعوبة بموسوعات عصر التنوير الفرنسي . حين كان البارون مُعلماً خاصاً هنا ، ساعد في تحديث مجموعة المقتنيات . وامتلاً الرفان الفارغان القريبان من السقف بالروايات الفرنسية وكتب الشعر والفلسفة الألمانية .

كثيراً ما أخبرنا حسن بابا أنه توجد ثلاثة نسخ من القرآن في المكتبة يرجع تاريخها إلى القرن التاسع وأن قيمتها لا تُقدَّر بثمن . هذا هو المكان الذي كنا نُستدعى إليه عند معاقبتنا ونحن أطفال ، وربما كان هذا عاملاً في نفورنا من القراءة . كانت المكتبة اليوم مغمورة بضوء الشمس ، ما جعلها تبدو دافئةً ودودة .

كان إسكندر باشا يكتب في دفتر سميك ومغلف بالجلد ، يومياته التي يدون فيها تدويناً جديداً كل يوم ، ولا بدّ أن عدد تلك التدوينات قد تضاعف منذ أن انقطعت سهرات سمرنا كل مساء . صار ذلك جزءاً من روتينه الجديد بعد إصابته بالجلطة . بوسعه الآن أن يسير دون استخدام عصا ولم يعد يظهر على جسده أي أمارات على العجز . التفت حين دخلتُ

ونهض عن مكتبه ليرحب بي . فتح ذراعيه على اتساعهما فارتميتُ بينهما وراحت الدموع تتسابق على وجهي مجدداً . ربّت وجهي وقبّل رأسي . لم أستطع أن أتذكر متى كانت آخر مرة منحني هذه العاطفة الرحبة . بدت فكرة أنه على شفا الجنون تحوّفاً في غير محله بالمرّة . لو دلّت حادثة الصورة الفوتوغرافية على أي شيء ، فلعلّها أعادت إلى السطح من جديد إنسانيته التي كانت قد غاصت بعيداً .

دفتره الناطق ، كما أسماه بتروشيان ، كان في جيب روبه المنزلي . تناول ذراعي وأخذنا نسير عائدين إلى غرفته . بعد أن جلسنا ، جنباً إلى جنب على الأريكة ، أخرج دفتره الصغير . وكتب فيه : "صغيرتي نيلوفر ، التي صارت أرملة ، أريدك أن تعرفي أنني أحببتك على الدوام . لا أهمية لشيءٍ آخر . "

" هل كنت تعرف دائماً؟ "

ابتسم وأوماً .

" ولكن كيف؟ "

كتب : " لك عينان خضراوان وشعر أحمر ، على خلاف أمك وعلى خلاف كل شخصٍ آخر في عائلتنا في حدود ما أتذكر . وقد تيقنتُ حينما كنت تضحكين وأنت طفلة ، كانت ضحكك غاية في اللطف وكانت تجعل والدتك سعيدة جداً . كنتُ واثقاً أنها تُذكرها بحبيها المفقود . لم أكرث أدنى اكرث . لقد كنت طفلةً جميلةً وكنتُ فخوراً أن أَلعب دور أبيك . لقد ارتكبت خطأ واحداً كبيراً في حياتك حتى الآن ، ومع ذلك ، وعلى الرغم من رأيي فيه ذات يوم ، فإنني أشعرُ بأسفٍ بالغ لموت مُعلم المدرسة ديميتري

في مثل تلك الظروف . لقد انهارت الحضارة العثمانية ، وهؤلاء الساعون
لملء الفراغ يتصورون أن بوسعهم أن يعوضوا بالعنف ما يفتقرون إليه من
ثقافة . تحدّثي إلى خليل في هذا الأمر ذات يوم . أعتقد أنه يهون من تقديره
للمسألة . "

تحدّثت إلى إسكندر باشا في ذلك المساء لساعات عدة ، وللمرة الأولى
شعرتُ أنه يعاملني كند له . أخبرته بأنني وقعتُ في حيرة وارتباك حين
كشفتُ لي أمي عن أبي الحقيقي ، غير أن معرفتي بالأمر قلّت أهميتها بعد
مرور بضعة أيام . كتب رداً عليّ إن الأهمية التي يربطها الناس بصلة الدم
ترجع بدرجة كبيرة إلى قوانين الميراث ولا ترتبطُ كثيراً بالعواطف الأصيلة في
نفوسهم . وأضاف مازحاً إن سلاطيننا من هذه الناحية أبدوا جموداً عاطفياً
مثيراً للإعجاب ، حيث كانوا يأمرّون بشنق أبنائهم الذكور حتى الموت ،
باستثناء خليفتهم المختار ، بجبل من حرير - وكان لاختيار الحرير أهمية
بالغة حتى لا تتدنس الرقبة الملكيّة بقماش خسيس النوع قبل أن تنقصر ،
ويبقى الأهم من ذلك لكي لا يُسْفح الدم الملكيّ على أيدي سيّافين عاديين .

سألتُ إن كان جميع أفراد العائلة يعلمون بمسألة أصولي ، فهزّ منكبيه في
إيماءة عدم اكتراث وكتب أنه لم يناقش الأمر مع أي شخص وحين أعربتُ له
والدة خليل وزينب عن شكوكها على فراش موتها لم يتجشّم عناء الردّ عليها
حتى . ثم ألحّ عليّ أننا استنفدنا موضوع مولدي هذا وأنه لا يتمنى أن يناقشه
معي بعد ذلك أبداً . لقد كنت ابتته ولا أهمية لأي شيءٍ آخر .

في محاولة جريئة لتغيير الموضوع طرحتُ عليه سؤالاً لا يربطه شيء
بحدِيثنا مطلقاً .

" هل سبق أن قرأت أي كتاب لأغوست كونت؟ "

بدا أن السؤال قد صدمه حقاً، فكتب بطريقة مضطربة: " لماذا؟ لماذا "

تسألين؟ "

" سألني عنه أحدهم؟ "

" من؟ " كتب.

" أعتقد أنه ربما كان سليم. "

رقت نظرة عينيه في الحال. " قرأت شيئاً له، ولكن حسن بابا قد صار من أتباعه المخلصين لفترة قصيرة، حين كنا في باريس. نسي المتصوفة واعتنق الفكر العقلاني. بل إنه حتى بدأ يرتدي ثيابه على طراز السوق من الفرنسيين. غير أن ذلك كله اهترأ وباخ بعد أن عدنا إلى إسطنبول. لهذه الإمبراطورية طريقة غريبة في أن تزيج جانباً جميع الأفكار المصقولة في رؤوسنا كما لو كانت مجرد نسيج عنكب. سوف نتحدث عنه غداً. ربما لدى البارون الكثير للغاية ليدلي به في هذا الشأن. رتبي للقاء يجمعنا كلنا بعد العشاء، ولتناول موضوعاً جاداً على سبيل التغيير وأخبرني بتروشيان أن يحرص على حضور كل من حسن بابا وحفيده. إنني فخورٌ للغاية بطريقة اضطلاكك بإدارة شؤون هذا المنزل. لا بد أن أمك استراحت. "

امتلاتُ بمحبة عميقة نحوه، محبة لم أشعر بها من قبل. فلقد تبدد تماماً الشخص النائي المجافي الذي كنتُ أعرفه طوال عمري، والذي كنتُ كثيراً ما أرتعب من ثورات غضبه. حلّ محله رجلٌ دافئ وكريم يتحلى بتفهم عميق لا بدّ أنه كان موجوداً هناك على الدوام. جميعنا قادرٌ على ارتداء

قناع، لكننا بقيت تحتة على ما نحنُ عليه حتى لو لم نكن نتمنى أن تقع أعين الآخرين على تلك الحقيقة. كنتُ على ثقة من أن إسكندر باشا قد عاد إلى ذاته الحقيقية. لعلهُ عثر على السلام الداخلي أخيراً. جلستُ هناك لبرهة قصيرة، أرمقه صامتة. ثم قبّلت يديه وغادرت الغرفة.

ذهبتُ أبحث عن طفليّ اليتيمين. كنتُ على وشك الخروج من المنزل والبحث عنهما في الحديقة حينما سمعتُ ضحك أمانة. كان كلاهما في غرفة أمي سارة. كانت إحدى الخادמות تعلمُ أمانة حيلًا يمكن فعلها بقطعة خيط ويدين فقط. أمّا سارة فقد عقصت شعرها المغطى بمعجون الحناء. كان مشهداً مألوفاً للغاية عندي. كان أورهان يتطلع من النافذة.

"أظن أن علينا أن نترك جدتكما بمفردها بينما تعمل على صبغ شعرها ليعبر في مثل لون شعري. تعالاً معي."

تعني كلاهما للخارج دونما تدمر. أمسكت أمانة يدي بقوة ونحن نخرج من المنزل. أخذتُهما إلى شرفة صغيرة وظليلة تقع تحت شرفة غرفة إسكندر باشا. كانت الشمس مستعرة، ولا وجود لنسيم بالمرّة، وكان البحر الخامد الصامت مثل لوحة بألوان الزيت، حبيس طبقة ضباب خفيفة سببتها الحرارة باهرة الضوء. الضجة الوحيدة التي أتذكرها من ذلك الأصيل الساكن كانت الصيحات المتنافرة للنوارس.

جلستُ أنا وطفلاي الحائران على أريكة طويلة. كان غضب أورهان قد تبخّر. تركني أَلف ذراعي حوله ولم يعترض عندما قبّلت خديه. لم نتحدث لوقت طويل. كنا معاً ولا أهمية لما دون ذلك. فقط جلسنا ونظرنا إلى البحر.

كان من العسير خرق الصمت. يختبرُ الأطفال الصغار موت أحد الأبوين أو الجددين على نحو مختلف. الأمر بعيد عنهم للغاية بحيث يصعب عليهم فهم مدى حسمه ونهائيته. أتذكر وقت وفاة أم خليل وزينب. كانت لطيفة معي على الدوام، تعاملني كما كانت تعامل طفليها تقريباً. ساءنا جميعاً موتها فجأةً هكذا، لكنني لا أذكر أن أحداً منا بكى. بدا الأمر غير حقيقي. أعرف أنني كنتُ لأود أن يتحدث معنا عن الأمر إسكندر باشا، أو سارة أو بتروشيان أو أي واحد من الكبار، أن يخبرنا بما حدث ولماذا، لكنهم لم يفعلوا قط، فلعلهم افترضوا أنه ما دامت مشاعر الأطفال غير مكتملة النمو فمن الممكن تركهم للتعافي بالاعتماد على أنفسهم.

بدأتُ أتحدثُ إلى طفليّ. أخبرتهما كم كان ديميتري أباً مُحباً ولهذا السبب سوف أعتزّ بذكراه دائماً. تحدثت عن الرسالة التي كتبها لي وأخبرتهما أن بوسعهما قراءتها متى شاءا، ولكنهما قد يفهمانها أفضل بعد بضع سنوات من الآن. لم أكذب ولم أبالغ. لم أرغب في أن أكون غير أمينة معهما ولو بأهون قدر. ليس من السهل مناقشة أمر موت أب مع أطفاله الصغار. لاحظ أورهان أنني على شفا البكاء وعمل على إلهائيّ.

"يقول سليم إن الرجال الذين قتلوا أبي همَج أحظ من الحيوانات. ويقول إنه سوف يتم العثور عليهم ومعاقبتهم قريباً جداً. أهذا صحيح يا أمي؟"

"لا أدري يا صغيري. أشك في ذلك عن نفسي. إننا نعيش أياماً متقلبة للغاية. النظام القديم الذي عهدناه طوال أعمارنا يموت الآن، والسلطان لم يعد ذا نفوذ وقدرة والإمبراطورية التي يتحدث عنها بتروشيان

قد صارت هي نفسها الآن حكاية خرافية . كل شيء يضيع من دون أن يحل محله أي شيء جديد . وهذا ما يحول كثيراً من الأشخاص العاديين إلى معتوهين وقتلة . لا يعلمون ماذا ينبغي لهم المستقبل ، ويجدون أن الأسهل إلقاء اللوم على كل شخص عدا من يستحقون اللوم فعلاً . ليس بوسعهم فعل أي شيء إزاء السلطان أو القوى العظمى التي تفكك دولتنا . فهم بلا حول ولا قوة في مواجهة عدوهم الحقيقي ، وقتل بضعة يونانيين يجعلهم يشعرون بشيء من الرضا . ومهما كان ما سيحدث لهؤلاء الذين قتلوا أباك فلن يعيده إلى الحياة من جديد . أتفهمني يا أورهان؟ "

" أفهمك طبعاً . لست غيبياً . ماذا سيحدث لكتب أبي . هل أحرقتها الهمج كلها؟ "

" نعلم أن جميع كتبه سليمة ، بما فيها كل تلك الدفاتر التي اعتاد أن يكتب فيها كثيراً ونسخ من جميع تقاريره عن المدارس التي كان يفتش عليها . لم يمس منها شيء ، وسوف تُحفظ من أجلكما . "

سألت أمينة : " وأين سنعيش الآن؟ "

" في إسطنبول ، في منزل لم يره أي منكما من قبل . المنزل الذي نشأتُ فيه . "

" أهو كبير مثل هذا المنزل؟ "

" كلاً يا أمينة ، كلاً ، ضمنتها قريباً مني . " أصغر كثيراً ، ولكن لا تقلقا . فهو كبير بما يكفي لكي يحظى كل منكما بغرفة تخصه . "

كان حسن بابا يقترب منا فبدأ أورهان يضحك .

"أمينة" ، قال وهو ينظر إلى أخته نظرة عفرته . "انتظري وانتظري ماذا أفعل . سوف أضحك هذا العجوز لكي تري أنه لا يوجد في فمه ولا سنّة واحدة ."

سألت أمينة : " وكيف يأكل إذن؟ "

كان حسن بابا مرتدياً سروالاً نظيفاً وقميصاً واسعاً . حلق ذقنه وغطى رأسه الأقرع ، على غير العادة ، بطاقة من قماش أسود . لم يسبق لي أن رأيته يضعها من قبل ، لكنها كانت مألوفة لي بصورة غامضة . دفعت صورته الطفلين للابتسام .

"إنها تشبه الطاقة التي رأيناها في ذلك العرض الضاحك للحمار في قونية ، تتذكرين يا أمينة؟"

كانت ذاكرة أورهان دقيقة . انفجرت ضحكات الطفلين ، وكبحت جماح ضحكي ببعض الصعوبة .

شرح العجوز يتحدث بصوت كالعويل : "بارك الله فيكم يا ابنة إسكندر باشا وحفيده . سوف يحفظكم الله . أي مصيبة حطت على أهل دارنا . الهمج والغوغاء يتجمعون في كل مدننا . إلى أين سينتهي هذا؟"

انتهى من عزائه ، ومسّد رأس كلا الطفلين .

"يا حسن بابا" ، قال أورهان بوجه جاد تماماً . "أخبرنا بحكاية كبير الوزراء الذي كان له خصيتان مربعتان ."

تظاهرتُ بعدم سماع قوله ، لكنه جعل العجوز يضحك ونظرت أمينة في ذهول إلى فمه الخاوي . انطلق كلاها يركضان بعيداً ليضحكا منفردين .

سعدتُ بأنني صرتُ وحدي مع العجوز. أخبرته بحديثي مع إسكندر باشا في وقت سابق من اليوم وكيف أدهشني ما لقيتهُ منه من دفء وبساطة. بالطبع لم أذكر موضوع أبي. ابتسم حسن بابا وأوماً في حكمة.

"كان دائماً هكذا حينما كان طفلاً وشاباً. لكن موت زكية هانم هو ما بدّل كل شيء. في البلاد العثمانية كان يجيد لعب دور السيد النبيل القوي. وكان على الحال نفسه حين كان يلعب دور الأب الشديد غير المتهاون مع أي عصيان، ذا النظام اليومي الثابت الذي لا رجعة عنه. ما أعجز عن فهمه هو كيف استطاع أن يواصل هذا طوال كل ذلك الزمن الطويل. أعرف أنه غالباً ما أرهقه. أحياناً حينما كنتُ أحلق له، وهو ما كنتُ أفعله كل صباح كما لعلك تذكرين، كان ينظر إليّ ويغمز بعينه. ذلك وحسب، دون ابتسامة، ودون أن ينبس بشيء قد أردده في المطبخ وقد يُردّ من جديد إلى المنزل، لكنها غمزة وحسب. كانت هذه هي الرسالة الوحيدة التي أرسلها إلى العالم الخارجي.

"كان الحال مختلفاً حينما كنا في باريس. كان يعود ليشبه ذاته القديمة بدرجة كبيرة ورغم أنه كان يرتدي في المناسبات الرسمية المعطف والقبعة، فمن تحت تلك الثياب لم يكن إلا درويشاً، يسخر من جهلهم باستمرار، لكنه يتجرّع المعرفة أيضاً. جميعاً فعل ذلك - لكن ليس المعرفة فقط. لقد كان قبو نبيذ السفارة العثمانية في باريس يُعدّ الأفضل في أوروبا كلها. وتلك النسوة الفرنسيات كن يتوددن إليه كما لو كان جواداً فحلاً بديع الجمال. كن يتظاهرت بالبراءة ويسألن عن أحوال السلطان، قائلات: "إكسلانسي، هل صحيح أن السنيور الكبير ما زال محتفظاً بحريم يضم

عشرين امرأة؟" وكان إسكندر باشا يفرد قامته بقدر ما يستطيع، ويعقد ذراعيه ويجيئهن بصوت عميق: (عشرين فقط يا مدام؟ هذا أقل حتى من النساء في حريمي أنا. أمّا سلطاننا، أدام الله عليه ملكه ووهبه القدرة على الجماع كل يوم، فتحت يده ثلاثمائة وستة وعشرين امرأة لتلبية رغباته. امرأة جديدة لكل يوم من السنة باستثناء شهر الصيام، حين يفضل عليهنّ غلماناً من اليمن.) وكن يتظاهرن بالصراخ والإغماء، لكن هذا لم يكن إلا غطاء لإخفاء شغبهنّ ولهفتهن المتوقدة الكامنة تحت فساتينهن الطويلة. اغفري لي يا نيلوفر هانم، لقد نسيت نفسي.

ابتسمت. "يا حسن بابا، لقد بلغت من السن والحكمة حداً يتيح لك أن تقول ما تشاء على الدوام في حضوري أو في حضور أي فرد آخر من هذه العائلة. لم أعد أميلُ للرسميات أو الكلفة شأن إسكندر باشا تماماً. ما تقوله إنه كان يعود إلى ذاته الحقيقية حين كان يسافر خارج البلاد، ولكنه بمجرد العودة للديار يتحوّل إلى شخصٍ مختلف تماماً. ألم يتسبب هذا في شيءٍ من الاختلال العقلي؟"

استغرق العجوز في التأمل.

"لم يسبق لي قط أن فكرتُ في ذلك، ولكن ربما وقعَ هذا وربما كانت حادثة الصورة الفوتوغرافية هي التجلّي الأول لذلك الاختلال. ليكن الله في عوننا. ليحفظنا الله. لكل أولٍ آخر."

(١١)

سارة تحكي حلمها للمرأة الحجرية،
مشيرة ذكرياتٍ أخرى ويضع مرارات

(ليلة أمس رأيتُ سليمان في حلمي مرةً أخرى بعد عشرين سنة تقريباً، يا امرأة يا حجرية . هل تذكرين المرة الأولى التي أتيتُ فيها إلى هنا؟ كنتُ ما أزالُ صغيرة السن، أسهرُ على قلبي الجريح وطفلتي في الوقت ذاته . كانت نيلوفر ابنة سبعة أو ثمانية أشهر . أتذكر أنني أتيتُ إلى هنا وبكيتُ لدى قدميك . أعلمُ أنك بلا قدمين ، ولكن إن وُجدا فلا بد أن يكونا حيثُ بكيتُ ذلك اليوم . حسبتُ أنني سمعتك تتحدثين ، فقد سألتني صوتُ عمّا أَلَمَّ بي وأتذكر قولي: " لقد هرب الإنسان الذي أحببته بعيداً . " وعندئذٍ همس صوتك بشيء غاية في الحزن والجمال معاً: " الحب هو شوق الناي للبقعة التي اقتلعت منها قصبته . حاولي وانسي . " وقد حاولت ، لكنني لم أستطع النسيان قط . ومع ذلك ، فقد صرتُ معتادةً على غيابه . لا يمكن للزمن أن يداوي جراحنا الداخلية تماماً أبداً ، لكنه يهون الألم .

تحوّل حبي كله نحو بُنيّتي ، نيلوفر . حينما كبرت كانت تضحك كما اعتاد سليمان أن يضحك تماماً عندما نحتلي ببعضنا بعضاً . ضحكة عميقة

حلقة منطلقه . لا أستطيع أن أصدق أنه يضحك على ذلك النحو مع أي شخص آخر، لكنني أخدع نفسي على الأرجح، فمن يلقي الخيانة في الحب كثيراً ما يسقط فريسةً لتضليل الذات .

لم يكن حلمًا لطيفًا الذي زارني ليلة أمس، يا امرأة يا حجرية، ولم يكن ينقطع، بل ظلّ متواصلًا معظم الليل، أو هكذا بدا لي . وحينما أيقظني في النهاية كنتُ في حالة اضطراب عظيم، بدني مغطى بالعرق وحلقي جاف تمامًا فتجرعت إبريقًا كاملاً من الماء .

في الحلم ظهرَ سليمانى مختلفًا للغاية، يا امرأة يا حجرية، بحيث لم أطق النظر إليه . شابٌ شعره وتصلب جسده النحيل الذي كنتُ أحب ليونته الأنثوية، وصار الآن منتفخًا وقبيحًا . تلك كانت الصدمة الأولى . كان عاريًا في فراش مع امرأة في عز الشباب، لا يمكن أن تكون تجاوزت الرابعة والعشرين أو الخامسة والعشرين . لا بدّ أنها كانت إحدى نماذج رسمه، لأنه كان ثمة قماش كانفاه غير بعيد عن الفراش واستطعتُ حتى في حلمي أن ألحظ تطابق النهود بين الرسم والأصل . لم يسؤني وجود تلك الفتاة بالمرّة، فقد فضّلت أن يكون مع أي واحدة غير زوجته .

ثم اقتحمت الغرفة امرأتان أخريان في حلمي . أفترض أن البدينة القبيحة منهما كانت هي زوجته وأن الأخرى صديقة أو أخت لها . صرختنا عند رؤية العاريين . تناولت زوجته فرشاة رسم وبدأت تجلد بها سليمان، وأحضرت صاحبته فجأة زجاجة وشرعت تصب ما فيها من سائل على نموذج الرسم، فصرخت المخلوقة المسكينة مُلتاعة . ما زال بوسعي أن أسمعها وأن أرى وجهها المشوّه، وقد عميت إحدى عينيها وهرعت عارية

خارج الغرفة . وبينما يحدث هذا كله ظل سليمان راقداً بلا حول . لم يساعد الشاب أو يحاول ويمنع الآخرين من إيذائها . فقط عندما توجهت نحوها وفي أيديهما السكاكين صرخ عندئذ منادياً باسمي ثلاثاً : " سارة! سارة! سارة! " عند هذه النقطة قمتُ جالسةً في فراشي وأنا أرتجف . لم يكن الفجر قد طلع بعد .

لم أكن يوماً من المتطيرات أو المصدقات بالعلامات ونذر الشؤم ، يا امرأة يا حجرية ، غير أن هذا كان حقيقياً للغاية . أنت تعرفيني حق المعرفة ، ولكم تحدثنا منذ أن أتيتُ إلى هنا أول مرة رغم إقرارى بأنني تجنبتك خلال السنوات القليلة الماضية . لكنّ هذا الحلم صار حجراً رازحاً على فؤادي ، وإنه لنذيرٌ بكارثة . أشعر أنه في محنة أو لعلة موشك على الموت . كما تعلمين ، لم أنسَ سليمان قط ، لكنه خيبَ أمني فيه كثيراً ، وفي أعماق نفسي لا أستطيع التخلص من الشعور بأن أبي دفع له مالا كثيراً جداً ليعينه على الاستقرار في نيويورك وعلى التخلي عني .

المسكين سليمان ، لطالما كان مزعزعاً مفتقداً للأمان ، فقد هجره أبواه ، كلٌ بطريقته . وكم تاق إلى أن يكون جزءاً من أسرة وابتغى دائماً إرضاء الآخرين وتلقي ثناءهم في المقابل . لم يكن هكذا معي قط ، ولكن هذا التوق المكتوم لنوعٍ من التقدير كان مغروساً في طبيعته .

لو أنه مكث في إسطنبول لعام واحد آخر ولم يهرع إلى نيويورك ويتزوج من أول امرأة تضع عيناها عليه ، لكنتُ أخبرته عندئذ أن لنا ابنة جميلة وأن جميع المخاوف الخاصة بأبنائنا كانت بلا أساس . ولو كان ما زال على حبه لي لكنتُ سألتُ إسكندر باشا حُرّيتي وهربتُ مع سليمان إلى

دمشق أو أي مكان آخر حيث يمكننا أن نبدأ حياةً جديدةً . لعلّ أبواي عندئذ سيوجدان الفضيحة غير محتملة ، ولعلّ أبي يفقد بضعة مرضى من الأثرياء ، غير أن شيئاً من هذا ما كان ليؤثر على قراري بأي وجه .

كان حبي له قوياً للغاية ، لكنه اختار الفرار . قال إن لم يكن يطيق مجرد فكرة العيش في إسطنبول من دوني ، وأنه يفضلّ الموت على رؤيتي في مكان عام بصحبة رجل آخر ، لكنّ هذا كله لم يكن إلاّ براهين على أن حبه لم يكن عميق الجذور . قال إنه لا يستطيع الإقامة في أي من الأراضي العثمانية لأنه حيثما حلّ المرء بموضع في الإمبراطورية المتفسخة سيظل على الدوام في إسطنبول . وبالعون الكريم من أبي استقر رأيه على نيويورك .

لنا بعض أقارب من العائلة هناك ، ولكنهم اندجوا كثيراً في مهجرهم إلى حد أنهم أصبحوا يستصغرون شأن أولئك الذين استقروا هنا ، وفي نظرهم كنا في غاية من التخلف ، لكنّ ذلك لا يمنع ترحيبهم بخطابات الائتمان الواردة من شركة عم أمي . فرغم كل شيء ثروتنا مقبولة على خير نحو . كم دفع أبي لسليمان؟ لم أرغب في أن أعرف قط في ذلك الحين ، غير أن هذا السؤال أخذ يضايقني الآن ، ولن يرحل عني . إن أوراقه ما زالت هناك في المنزل .

تحاشيتُ منزل طفولتي لزم من طويل . كان ألمي هائلاً ، يا امرأة يا حجرية . اعتدتُ أن أبكي وأن أدعو الله ملتمة قوة داخلية تكون لي عوناً على النسيان ، لكن كلما ذهبتُ إلى البيت كنت أسمع صوته يهمس لي : " سارة ، أنت بمفردك؟ هل خرجوا جميعاً؟ أذهبُ إلى غرفتي أم غرفتك؟ " آخر مرة ذهبتُ فيها إلى البيت كانت عند وفاة أبي ، وهي المرة الأولى التي لا أسمع فيها همس سليمان في أذني .

بعدها بعدة أشهر أطلعتني أمي على الرسالة التي تلقتها منه . لم يأت على ذكري فيها بالمرّة، ولو على من سبيل المجاملة . لعل ضميره يؤنبه ، فالإحساس بالذنب ، كما تقول لي ابنتي نيلوفر ، يمكن له أن يصبح عاطفةً نقي بها نفوسنا أو نخدعها بها . عجزت عن ذكري في رسالته ، وأثر بدلاً من ذلك أن يكتب عن تقديره الهائل لأبي وكيف أنه لن ينسى أبداً ما لاقاه في أسرتنا من طيبة ومودة . طيبة ومودة ، شعرتُ بالغيثان يكاد يغلبني . وقبيل نهاية الرسالة كتب أنه متأكد إن أمي سيسرّها أن تسمع أن زوجته حبلت مرة أخرى . ولعلّ أمي سرها ذلك حقاً . لم تتجاوز يوماً حقيقة أنني كنتُ طفلتها الوحيدة ، وأنها أخفقت في أن تنجب ولدًا ليوصل طريق أبي في مهنة الطب . وكما يمكنك أن تتخيلي ، يا امرأة يا حجرية ، لم تتسم مشاعري بالود والدفء لدى قراءتي هذا . الخنزير ، أتذكر أنني هكذا حدثتُ نفسي . كم خنزيراً صغيراً سوف تنجب له قبل أن تموت؟ إن نيلوفر تي الوحيدة تساوي عشرة أضعافهم جميعاً .

سوف أعود إلى منزلي بعد أن ينقضي هذا الصيف الغريب يا امرأة يا حجرية . سوف أقرأ جميع الرسائل ، أريد أن أعرف بالتحديد كم قطعة من الفضة أخذها لينساني . وهل أعطى والدى فاتورة مقابل الطيبة والمودة؟ للأسف ، بلغت أمي من الكبر ما يعجزها عن تذكر أي شيء . أوشكت ذاكرتها أن تمنحني تماماً . لا تتعرّف عليّ في بعض الأحيان . ماذا عليّ أن أصنع يا امرأة يا حجرية؟ أحتاج أن أعلم إن كان بخير . لا أقدرُ على المكوث هادئة حتى أتبين الأمر . سوف أكتب إلى عمي سفره في إسطنبول لكي أرى إن كان يستطيع إرسال برقية على الفور . لقد أدّى سليمان ، في ما مضى ،

بعض العمل من أجل فرع عملهم في نيويورك وسوف يكتشف عمي إن كان كل شيء على ما يرام أم أن مخاوفي كان لها ما يبررها .

ما أغرب الأحلام . لماذا يتسلل حلمٌ كهذا إلى رأسي؟ لماذا نرى ما نراه في أحلامنا؟ أهنالك إجابة بسيطة أم أنها مسألة لا حل لها كما كان أبي يقول؟ أتذكره يقول لضيوفه في إحدى المآدب أن هناك طبيب في باريس ، وآخر في فيينا ، على ما أظن ، قام كلاهما بعمل كثير حول الأحلام . هل سبق وأن سمعت بطبيب فيينا ذاك يا امرأة يا حجرية؟ لا أستطيع أن أتذكر اسمه بالضبط .

لعلّ هذا الحلم قد ترك أثراً أشد مما يمكنني أن أتخيل .

لزم من طويل ، حينما كان إسكندر باشا يأتي إليّ في الليل ، كنت أغمض عينيّ وأفكر في أن سليمان ما زال معي . لم يكن بوسعي فعل هذا طيلة الوقت ، لأن إسكندر باشا رجل جسيم وليس من اليسير احتمال وزنه ، ولكن عند بلوغ نقطة يذوب فيها الالتحام إلى لذة خالصة كانت الصورة التي تشرق في عقلي هي صورة محبوبي الدمشقي المفقود . بهذه الوسيلة كان يمكن لي أن أتمتع بالتجربة ، وأحفظُ حبي لسليمان مع ذلك . صارت زيارات إسكندر باشا لي أقل فأقل بمرور الوقت ، حتى بضعة أسابيع مضت . ومن جديد أشرقت صورة سليمان في عقلي ، أمّا الآن فأمامي معضلة حقيقية جداً . لقد أفسدَ هذا الحلم كل شيء . لا يمكنني أبداً أن أتخيل سليمان القديم مرة أخرى ، فإن صورة الحلم القاسية قد سطعت وغلبت . ربما سوف يتوجب عليّ الآن أن أفكر في إسكندر باشا ، هو دون سواه؟ ما تقع عليه عيني منه لم يعد مزعجاً كما كان فيما سبق . تبدّل فيه شيءٌ ما .)

(١٢)

محمد والبارون يتجادلان حول التاريخ الإسلامي، ومحمد
يخرج مهزوماً؛ إسكندر باشا يستعيد قدرته على الحديث،
لكنه ينسب الفضل لأوغست كونت دون الله

"يدهشني حقاً نقص معرفتك بهذا الجانب ذي الأهمية الحاسمة من
تاريخ دينكم وثقافتكم."

بدا البارون مغتاضاً. كان ثلاثتنا في المكتبة، ننتظر قدوم الآخرين.
إسكندر باشا، الذي دعا إلى هذا اللقاء، قرر أن يتمشى قليلاً بعد تناول
العشاء. كان الجو جميلاً ومُنعمشاً في الخارج، وهيمنت روائح الليل الزكية
عبر نوافذ المكتبة المفتوحة على اتساعها.

حين دخلت الغرفة كان العم محمد والبارون يصيحان في وجه أحدهما
الآخر. تجاهلا وصولي، لكنهما خفضا صوتيهما. يرتديان اليوم قميصين
بلون كريمي وسروالين أبيضين، رغم أن العم محمد، على عكس صاحبه،
استجاب للطقس واستغنى عن رباط العنق الحريري.

"وإذن؟"، واصل البارون. "أمازلتَ مُصرّاً على أن الأمويين والعباسيين لم يكونا إلا فريقان متنافسان في صراعٍ على السُّلطة ولا شيء أكثر من هذا."

"نعم"، أجاب محمد بصوت صارم. "إن معرفتك أنت بالإسلام مأخوذة من الكتب، أيها البارون. لكن معرفتي أنا عن خبرة مباشرة."

"أدرك الأمر كله الآن، لقد انكشف كل شيء فجأة أمامي"، أجاب البارون مستظرفاً. "لقد كنت تقدم نفسك فعلاً لو أنك عشتَ في دمشق في القرن الثامن. يمكنني أن أتصورك مع ريشتك ورقوقك، عاكفاً على تدوين ما كان يقوله قادة الفريقين المتنافسين لبعضهما بعضاً ومُحصياً عدد الجثث في الشوارع بمنتهى الدقة."

"إن طريقة (برهان الخلف)^(١) هذه لن تفلح هذه الحالة يا بارون. فلتسخر كما تشاء، ولكن أن تصعد أمر الأمويين والعباسيين إلى درجة روح العالم فهو ما لن يجدي ببساطة. كان يمكن لفيورباخ أن يعبطك على مؤخرتك للجوئك إلى التهكم عند فشلك في الجدل."

دقّ البارون بعصاه الأرضية الخشبية غاضباً. "ما يذهلني ليست سذاجتك يا محمد، لكنه عنادك وغرورك. فحينما تعوزك المعرفة في موضوع محدد ويحاول صديق قديم وعزيز أن يبدد سحب الجهل المتكاثفة فوق حاجبك المرفوع، فعلى الأقل ينبغي أن تجامله بالاستماع إلى حجته كاملة. سيكون هذا مفيداً. وما إن يستنير عقلك فعندئذ لك مطلق الحرية في الاختلاف معه."

حان دور العم محمد في التجهم . " ليكن الأمر كما تهوى يا بارون ،
فهذا هو الحال دائماً . "

تجاهل البارون النبوة المشاكسة . " أنصت يا محمد . لقد كانا فريقين
متنافسين . بالطبع كانا كذلك ، ولكن ماذا الأساس الذي ارتكزت عليه
عدواتهما؟ السُلطة؟ نعم ، ولكن لم؟ دعنا لا ننسى أن آلاف الأرواح التي
ضاعت في هذه الحرب الأهلية . أمّا أنا فأرى الصراع برمته مجابهةً بين القوى
المضمحلة للعرب ، الذين تلاعبوا بالإسلام منذ موت رسولكم ، وبين
القوى ، كيف عساي أن أقولها؟ القوى الكوزموبوليتانية للإسلام ، الأكثر
عالميةً وتنوعاً . لماذا سُحقتُ الخلافة الأموية بمثل تلك الضراوة؟ تم الفتك
بكل ذكر حيّ منهم إلا واحداً . إنني أؤكد لك إن فرار عبد الرحمن كان
إحدى معجزات الخيال . كان قائداً سياسياً ذا موهبة غير عادية وقد أظهر
مبادرة رائعة في التوجّه نحو إسبانيا . وما إن صار بمأمن في قرطبة حتى نادى
به العامة خليفة لها . غير أن نداء الجنود وهتافهم له كأن العامل الحاسم وقد
أعلنوا الولاء له لأنهم كانوا عرباً . متفقين؟ جيد . سأتابع .

" كان الصراع على الخلافة في قلب بلاد العرب ما بين القلة الحاكمة
من العرب وقاعدتهم دمشق ، يمثلهم الأمويون ، وبين العباسيين الذين
ظاهرهم كلٌّ من الفُرس والأتراك ، بمن فيهم أجدادك أنت يا صديقي
العزیز ، والأكراد والقوفاز والآراميين والأرمن ، إلى آخره . كان هؤلاء هم
المتحولين حديثاً إلى الإسلام ، ولكن أعدادهم لم تكن بالقليلة ، غير أن
الأمويين رفضوا في عجرفة الاعتراف بهذا التفوق في العدد وأبوا أن
يشاركوهم السلطة من أجل المصلحة الأعم للإسلام ، ولم يكن معنى هذا

إلا ضرورة نحو الأمويين تماماً. كانت الحاجة ماسة إلى شريعة جديدة لأن الإسلام قد صار ديناً عالمياً، غير أن غرور العرب لم يتسامح مع التسويات والترصيات.

ارتعشت أنف العم محمد هوناً ما وهو يكافئ البارون بابتسامة تنازل. "ومع ذلك، أليس مما يدعو للتأمل أن الخلافة في قرطبة تحت سيطرة نفس العرب المغرورين وقصار النظر كانت أكثر تقدماً بما لا يُقاس من دولتك العباسية الكوزموبوليتانية تلك؟ كان الأمويون في إسبانيا أكثر تسامحاً وأقل تساهلاً مع أي خزعبلات تصدر من جانب رجال الدين. وكثيراً ما أتهم فلاسفة الأندلس بالهرطقة والزندقة في بغداد، وحُظرت قراءة كتبهم على طلاب العلم."

أجاب البارون: "صحيح تماماً، غير أن الظروف في الأندلس كانت مختلفة تماماً. لقد تصدّى الأمويون هناك للمسيحية، لقد كانوا يجاربون على الحدود بين ثقافتين، واحتاجوا فلاسفتهم لمساعدتهم في كسب مؤمنين جدد بالإسلام، ولم يكن هذا ممكناً ببساطة هناك تحت ظل السيف. تطلب الموقف انتصارات فكرية. وإنني، كما تعرف، منحاز حدّ التطرف إلى فلاسفة الأندلس، فلولاهم ربما اتخذ عصر النهضة في أوروبا شكلاً مغايراً. لكن يجب أن نفهم أنهم قد أتيح لهم اكتساب تلك العقول النيرة فقط لأنهم كانوا في مواجهة خصم فكري له شأنه متمثلاً في الكنيسة الكاثوليكية. وعندما قرر الأساقفة أنه ليس من الممكن هزيمة العدو بالجدال والحجة دعوا إلى الحرب المقدسة ومنح البابا أوروبا محاكم التفتيش. كل هذا يثبت يا محمد أن الأفكار الجديدة تشهد أحسن ازدهارها إذا ما انخرطت في صراع ضد

الأفكار التقليدية البالية . غالباً ما يسفر امتزاج العناصر عن جديدٍ أصيلٍ ومدهش . "

" كان العلماء الكاثوليك حريصين عندما حكموا على الثقافة الإسلامية بالإعدام حرقاً في غرناطة في القرن الخامس عشر . فقد استبعدوا من النيران مخطوطات الطب والكتب العلمية الأخرى ، والتي كانوا بحاجة إليها لاستمرارهم . هل أفنعتك يا عجوزي العزيز؟ "

نظر العم محمد إلى صاحبه ورفع حاجباً واحداً . دائماً ما أثارت قدرته هذه حسدي . فسرها قائلاً لي إنها فن لا يُمكن تعلّمه .

" ربما لم تقنعني تماماً أيها البارون ، ولكنك دفعتني إلى التفكير بكل تأكيد . "

" إنها تلك الانتصارات الصغيرة التي تثري حياة المرء " ، هكذا غمغم البارون بينما دخل أبي الغرفة ، وعلى جانبه كلٌ من خليل وسلمان .

تبع الأب وابنيه جدٌ وحفيده . لا بدّ أن حسن بابا وسليم كان ينتظران بالخارج عودة أبي قبل أن يدخلوا المكتبة . لا يستطيع حسن بابا أن يتغلّب على سنوات من حكم العادة ومازالَ محتفظاً بوضع الخادم في حركاته وسكناته ، غير أن سليم لم يكن يعاني مثل تلك المحاذير . فقد سار إلى المكتبة مرفوع الهامة بصورة طبيعية . تسارعت دقات قلبي إذ رأيته . ابتسم ، فرقت له عياني . نظرت في أنحاء الغرفة عرضاً لأرى إن كان انتبه لنا أي شخص . اتخذ أبي موقعه المعتاد على المقعد ذي الذراعين الأقرب من النافذة . دخل بتروشيان حاملاً إبريقاً كبيراً ممتلئاً بعصير برتقال طازج . تبادل

محمد والبارون نظرات سريعة، في غير تصديق أنهما سوف يُحرمان من الخمر هذا المساء. لكن قلقهما كان سابقاً لأوانه، فسرعان ما دخل حفيد بتروشيان بكوؤس لم يسبق لي أن رأيتها في المنزل، ممتلئة بالشامبانيا والنيذ. سرّ لمرآها الصديقان.

بدأ العم محمد قائلاً: "حسناً يا إسكندر، لماذا اجتمعنا هذا المساء؟ أي مباحج في انتظارنا اليوم؟"

لم يجب أبي. لوح بعصاه نحو خليل.

"كان لقاءنا الليلة فكرتي أنا"، كان صوت خليل خفيضاً، مما حدا بحسن بابا، الذي يصبح أكثر صمماً بمرور كل يوم، أن يقترب من المتحدث ويرهف أذنه السليمة باتجاه الصوت. "خلال الأيام القليلة الماضية كنتُ أبحثُ أموراً ذات شأن مع أبي وأخي، اللذين يساورهما القلق حول مستقبل إمبراطوريتنا."

قاطعه البارون: "أي مستقبل؟ إذا كنا سنتحرى الصدق في حديثنا فدعونا نواجه الواقع."

ابتسم خليل. "بارون باشا! لقد سرقت الكلمات من على لساني. لأن الإمبراطورية لم يعد لها مستقبل فإن علينا أن نتحدث، وليس ذلك فقط، بل أن ننهض للفعل. لستُ إلا جندياً بسيطاً. لستُ فيلسوفاً في التاريخ أو مفكراً سياسياً، ومع ذلك فقد أدركتُ أننا إذا لم نفعل شيئاً، إذا اكتفينا بالجلوس ساكنين ومشاهدة بلدنا وهو يؤكل، فسيكون كل شيء قد ضاع. سوف يستيقظ شعبنا ذات يوم ليجد نفسه وقد صار مثل سلطانه،

تستعبده بريطانيا وفرنسا وروسيا وألمانيا الجديدة . ومن حُسن حظنا أن تلك القوى ليست على وفاق، وأن كلٌّ منها تريدنا أن نبقى أحياءً لكي تمنع خصمها من الانفراد وحده بالتهامنا . هناك اضطراب عميق في صفوف الجيش، والضباط الشباب يرغبون في التحرك فوراً . يتطلعون إلى أن يخلعوا السلطان ويؤسسوا جمهورية . "

صمتَ برهة ليرى إن كان أحدنا قد أبدى رد فعل . صفق محمد بيديه في حبور .

" هذا ما كان يجب أن يحدث يا خليل، لكننا تأخرنا مائة عام عن اللحظة المناسبة . كان علينا أن نتعلم من فرنسا في وقتٍ أسرع من ذلك . "

قطبَ حسن بابا وهز رأسه . " لن ينجم عن ذلك أي خير . ليس من الممكن لذبابة أن ترفع نسراً وتطرحه أرضاً . "

خالفه سليم الرأي . كانت المرة الوحيدة التي تحدث فيها ذلك المساء . " لم ينطق خليل باشا إلا بالحقيقة . إنما نحن النسرياً حسن بابا، والسلطان وحاشيته الفاسدة مجرد ذبابة . ما هم إلا طفيليات، قصّوا أجنحتنا واعتاشوا علينا لقرون . الآن نبتغي استرداد أجنحتنا وما من علوٍ شاق لا يسعنا بلوغه . "

ابتسم أخوأي . ناوشتني رغبة في تقبيل شفيته .

تحدّث سلمان، الذي لم يسبق لي أن رأيتُ عينيه بهذا التوقد والانتباه منذ وصوله إلى هنا أول مرة . " إنني أتفق مع الشاب سليم، وأتفق مع العم محمد أنه كان علينا أن نتحرك منذ مائة عام . لكن دعونا لا ننسى أن الفرنسيين، أيضاً، ظلّوا يلعبون مع تاريخهم لعبة الكراسي الموسيقية . لقد

أعدموا الملك وتوجوا نابليون، ثم أسقطت إنجلترا والنمسا نابليون فاستعاد الفرنسيون ملكهم. ثم ثورة أخرى تعطينا جمهورية أخرى ونحصل على نسخة زائفة من نابليون، الذي يسمي نفسه بالثالث، وهكذا تستمر فقرات السيرك. عندما نتحرك - ولا بد لنا من ذلك - فلنعمل بحيث لا نُبقي على خط رجعة بعد ذلك أبداً. لقد تركنا أولئك السلاطين الملاحين للتعفن والانحلال لزمن أطول مما يجب. فليأخذوا صناديق جواهرهم وليذهبوا للعيش على شواطئ الريفيرا الفرنسية. "

كان إسكندر باشا يعيرُ للحديث أذنا صاغية. دق بعصاه في رفق على الأرضية مطالباً بالانتباه، وعندئذ حدث ما أذهل جميع الحاضرين، إذ شرع يتحدث بلسان متلثم وصوت خفيض. لكنه كان حديثاً مع ذلك! لقد استعاد لسانه. نهضنا جميعاً في اللحظة ذاتها، وقد ارتسم الذهول والسعادة على كل وجه، واتجهنا نحوه. لمعت الدموع في عيني حسن بابا إذ ألقى بذراعيه حول إسكندر باشا.

" الحمد لله . إنها لمعجزة ، لا أقل من ذلك . كيف يمكن هذا؟ "

فقال البارون: " ما زال الجسد البشري لغزاً مُستغلقاً، إذا استطاع أن يسير من جديد، فإنني أفترض أن لا داعي لدهشتنا حين يستطيع التحدث من جديد. هذا حدثٌ جديرٌ باحتفال حقيقي. "

أخبرنا إسكندر باشا بأن مجلس جميعاً. كان الاستماع إليه يتحدث من جديد شيئاً خيالياً، وكان من العسير عليّ كبح سعادتي العارمة. قلتُ لنفسني إن أول شيء سأفعله في الصباح التالي أن آخذ أمانةً إليه فتسمع صوته متحدثاً إليها. "

" أرجوكم " ، قال بصوت أجش قليلاً ، " لقد فكرتُ أن أبقى صامتاً وأن أعلن استعادة قدرتي على الحديث غداً ، لأن ما تناوله اليوم أهم كثيراً من حياتنا الخاصة . دعونا نواصل . ليست المسألة التي نواجهها هي السلطان أم الخليفة ، فذلك كله مضي وانقضى ، لكن ما الذي سنملاً به المكان الشاغر وهل سنحظى بمكان ما أم أنهم سوف يمزقونا شرائح رقيقة ويتقاسموننا فيما بينهم؟ لقد استعدتُ قدرتي على الحديث منذ يومين حين سألتني نيلوفر ما إذا كنت سمعتُ عن أغوست كونت . وكم اطمئنتُ حين علمتُ أنها سمعت به من الشاب سليم ، والذي ، على ما أعلم ، ما كان ليصل إليه إلا عبرَ حسن بابا . بعد أن غادرت نيلوفر الغرفة ، رددت شفتاي اسم أغوست كونت ولدهشتي أدركتُ أن بمقدوري النطق . فكما ترون ، كان كونت إذن ، وليس الله . لذا يا عزيزي حسن ، من الآن فصاعداً أريدك منك أن تقول " الحمد لكونت " ، أو " أشهدُ أن لا كونت إلا كونت ، وأنا جميعاً رُسلًا لكونت . "

ضحك الجميع ، حتى حسن بابا ، الذي لم يستطع مقاومة الغمغمة بتحذيرات جادة . " أول ما تفعله بلسانك بعد أن تحرك أن تنطق بالكُفر . احذر أن يُسلب منك مرة أخرى . "

" بمناسبة الألسنة يا أبي " ، قال سلمان وعيناه تومضان . " أتذكر القول المنسوب إلى يوسف باشا ، صاحب الرفعة الذي ابتنى هذا المنزل البديع؟ " هزَّ إسكندر باشا رأسه .

" ذات يوم ، وفدَ من إسطنبول نفرٌ من الحاشية لزيارته . أحضروا معهم الهدايا وتساقط الكلام المعسول من ألسنتهم بسهولة كبيرة . أدرك

يوسف باشا أنهم لم يأتوا إلا ليتجسوا عليه لصالح السلطان، فقد أراد حاكم الدنيا أن يعرف هل شعر صاحبه القديم بالندم فيمكن عندئذ أن ينتهي منفاه. غير أن أفراد الحاشية هؤلاء كانوا يخشون من نفوذ جدنا وأرادوا أن يحولوا دون وقوع هذه المصيبة. في البداية أبى يوسف باشا أن يستقبلهم، لكنه بعد كثير من الاستعطاف والتوسلات سمح لهم بالدخول إلى مكتبته، هذه الغرفة ذاتها التي تجتمع اليوم فيها كلنا. ألقى عليهم نظرة ضارية وأنذرهم إن هم لم يكرروا كلماته ذاتها بالحرف الواحد على مسمع السلطان فسوف يحرص على أن يلقوا عقاباً شديداً. ارتجف هؤلاء الزوار قليلاً، لكنهم أومأوا في خضوع. عندئذ قال لهم: (أهلاً وسهلاً بكم اليوم زواراً، غير أن عندي لكم نصيحة مهمّة. إذا كنتم تثمانون حياة سلطاننا وخليفتنا فاعملوا بها لحظة رجوعكم. كما تعلمون جميعاً، فقد حظيت بمحبة السلطان منذ أن نشأنا معاً، وإني ليساروني قلقٌ حقيقي بشأن صحته. فيما أن ألسنتكم تمضي وقتاً طويلاً للغاية في لعق مؤخرته، فإنني أخشى أنكم قد تعدونه بمرض خطير. لقد بحثُ الأمر مع طبيبي وهو يصرُّ على أن حاشيةً في مثل مكانتكم العظيمة لا بدّ من ختان ألسنتها على وجه السرعة. "

لم أرَ قط إسكندر باشا يضحك بهذه الطريقة مُطلقة الزمام كما فعل تلك الليلة عند سماعه مزحة سلمان. حتى البارون فقد رزأته لبرهة عابرة.

سلمان أيضاً قد تغيّر، وبدا شأنه شأن أبيه شخصاً مختلفاً تماماً تلك الأيام. حين وصل إلى هنا أول الأمر ترك الانطباع بأنه يعاني قنوطاً داخلياً دفيناً، وكان كيانه كله أصيب بعدوى الاستهتار وكلبية من أغلظ نوع. بدا كأن محنة أبيه ثم تعافيه أشعلت من جديد شيئاً في داخله أو ربما هي نقاشاته

المديدة مع خليل أو ربما لعب الأمران دوراً في مداواة نفسه. مهما يكن السبب، فالثمرة هي المسرة والبهجة. يوم أمس قضى فترة الأصيل كلها يلاعب طفليّ، دون أن يأتي على ذكر أطفاله هو ولو مرة واحدة.

تنحى البارون فساد الصمتُ الغرفة مجدداً.

"لقد طرح إسكندر على ضباطك سؤالاً مهماً، يا خليل. ماذا يكون بعد السلطان، وأين؟ أخشى أنكم ستفقدون كل شيء. في نهاية المطاف، قد لا يتبقى بين أيديكم سوى إسطنبول والأناضول. أتوافقني؟ هل أنتم مستعدون للقبول بدولة مبتورة ولكنها محكمة البنيان؟"

قال خليل: "كلاً! لن نخسر الحجاز أو سوريا. أما مصر فقد ضاعت بالفعل، ومحمد عليّ، والينا الألباني عليها، حقق مراده وسيطر بكواته على الأقاليم، لكن الأسطول البريطاني يحكم قبضته على البحر ومن تكون له السيطرة على التجارة وحده من يقرر كيف تُصنع الدول الجديدة. لا بد لنا من الاحتفاظ بدمشق مهما كلفنا ذلك."

أجابه البارون: "لا يؤمن التاريخ بعبارات مثل (لا بد) يا رجلي العزيز. سوف تعتمد أمورٌ كثيرة على البريطانيين، وأعتقد أنهم يريدون كل شيء، فالمنطقة بكاملها طريق يفضي إلى الهند، أعز وأعلى مقتنياتهم. وهناك أيضاً قد أخفق أباطرة المغول التعساء في وضع أسس مستقرة، ولا تختلف القصة كثيراً عن الموقف هنا كما قد يحسب المرء. ذلك الضعف في فن السياسة كامنٌ في القلب من دينكم. ولسوف نرى إن كنتم ستحتفظون بالحجاز ودمشق أم لا تفعلون. أما القبائل فسوف تقف في جانب من يوفر لها مالا أكثر ومتاعب أقل. تكمنُ مشكلتكم الحقيقية في إسطنبول، قلب ما

تخلف من الإمبراطورية. فإن لم يُصنع أي تاريخ حيث تكونون، فإنكم
تسون ما التاريخ. لا تعرفون إلى أين تولون وجوهكم. انظر إلى إيطاليا
وألمانيا في الفترة الطويلة السابقة على توحيد كل منهم كدولة. هذا هو
المصير الذي أتنبأ به للإمبراطورية العثمانية ما لم تتحرّكوا. "

قال خليل: "السبيل الوحيد لإنقاذ شيء ما هو التقدم والنظام. هذا
سبب في أن كتابات كونت مثيرة لاهتمامنا. إنه يدعو إلى مجتمع عقلاني دون
أن يكون للدين أي دور في تصريف الدولة وأمورها. "

قال العم محمد: "صحيح تماماً. لكنه، إن لم تخني الذاكرة، أراد أن
يخلق ديناً علمانياً، وهو ما يُعد عندي تناقضاً صريحاً. من الصحيح أنه دعاه
دين الإنسانية، لكنه أراد أن تكون له كنيسة ذات شعائر وطقوس وكهانة من
العلماء. إن أسلاف حسن بابا القرامطة كانوا أكثر تقدماً في بعض النواحي،
على الرغم من تعلقهم بديننا. نعم، طرح كونت بعض الأفكار النيرة، غير
أنه أيضاً مشوّش الفكر ولو قليلاً جداً. "

ضحك البارون متفقاً. "عند كونت، أفضل ثلاثة قديسين للعلمانية
من أجل كنيسته الجديدة هم يوليوس قيصر، وجان دارك، ودانتي. أولهم
طاغية، والثانية امرأة ريفية ضللتها الأوهام فأرادت أن تكون مقاتلة وثالثهم
شاعرٌ فحل. يسرني أن كونت كان يقدر الكوميديا الإلهية، ولكن المؤكد أنه
من المستحيل أن يُنتظر منا أن نأخذ هذا الرجل مأخذ الجد. وقد فعل ما يفلح
فيه جميع المشعوذين الموهوبين فجذب أتباعاً عديدين، غير أن أكثر ما كتبه
ليس إلا هراء حسن النية. "

"وقد قال أيضاً إن رجال البنوك سيحكمون المجتمع ذات يوم وإن أوروبا بكاملها ستوحد في جمهورية غربية يديرها أصحاب البنوك"، هكذا أضاف محمد في إزدراء. "ماذا كان يدور بخلده عندما خطت يده كل هذا الهراء؟"

"لقد انعزل كلاكما عن العالم أكثر مما يجب"، قال إسكندر باشا. "حينما كنتُ في باريس، اعتدتُ أنا وحسن التنكرُ في هيئة مختلفة وحضور اجتماعات المتمردين المغالين في التطرف. وكانت أفكار كونت شائعة للغاية في ذلك الحين، وكان يعتبر نصيراً مخلصاً للتنوير. لقد توصلَ كثيرون إلى أفكار من أجل توفير بديل ما للدين. ألم يجرب رويسير أيضاً شيئاً ما؟ والملك المغولي أكبر حاول وضع دين جديد في الهند، من بين كل الأماكن. ومن قبله بزمن بعيد، في القرن الرابع عشر، أرادَ سلطاننا بايزيد الأول تحقيق الوحدة بين الإسلام واليهودية والمسيحية. كانت أسماء أولاده موسى وعيسى ومحمد. وحين حاول أن يكسب موافقة البابا نيكولاس على هذه الفكرة حاولوا هم تحويله إلى المسيحية. فأدرك حينئذٍ أن حلمه كان مستحيلًا وانصرفَ عنه تماماً."

قال البارون: "صحيح، ألم يكن السلطان بايزيد الأول هو من ادعى امتداد نسبه إلى بريام ملك طروادة؟"

ضحك إسكندر باشا: "أيها البارون، قبل أن نمضي أكثر من هذا في مناقشة نزوات الرجال الذين حكمونا لقرون عديدة، اسمح لي أن أطرح عليك سؤالين. إذا تحركنا وأنشأنا جمهورية جديدة، فهل ستكون بروسيا حليفًا لنا أم خصمًا؟"

"تقصد ألمانيا، ونعم، ستكون حليفاً لكم، حتى ولو لم يكن ذلك إلا لتحويل دون أن تصيروا نقطة عبور لأصحابنا الإنجليز مشتعلي الطموح، ممن لا يألون جهداً لينكروا علينا حصتنا من التجارة. إنه يعتقدون أن العالم ملك لهم، وهو وهمٌ مدمرٌ كما تكتشف جميع الإمبراطوريات عاجلاً أو آجلاً. وثمة أمرٌ آخر يصب في مصلحتكم، وهو أن قيصرنا الشاب فيلهلم الثاني صوفي لدرجة التعصّب. لهذا السبب وحده ربما يكون ميالاً نحو إسطنبول، غير أنه أيضاً بيدي حماسة بالغة بالهوس الديني والحربي متمثلاً في أوبرات رجل فظيع يُدعى فاجنر، يكتب موسيقى لا تقل رداءة عن ذوقه في الثياب إذ يضع على رأسه بيريه سخيّف ويرتدي سترة مخملية. إن إمبراطورنا الشاب له عقل محموم النشاط، ما يحرمه النوم لليال أكثر من اللازم، متخيلاً نفسه بارسيفال^(٢). أظن أنه سوف يشن حرباً ضد شخص ما، والاختيار بين الأعداء محدود. فهل سيهاجم ابن عمه الروسي أولاً أم ابن عمه البريطاني؟ وعندما تشتعل نيران تلك الحرب سيكون بحاجة إلى حلفاء. فهل في هذا جواب لسؤالك؟ حسن."

شرح محمد يضحك دون صوت قبل أن يتحدث. "لا أقاسم البارون نفوره من موسيقى فاجنر. تروق لي بنيتها، رغم أنني أقر بأنها موسيقى بحاجة إلى تركيز خاص، أكثر مما تتطلبه الألحان البسيطة لأولئك الإيطاليين حسني النوايا بسطاء العقول. فإن كلاً من بوتشيني، وفيردي، والعزيز دونزيتي باشا بارعون بما فيه الكفاية، ولكن بنية موسيقى فاجنر تدعوك للتفكير. وإذا كان البارون جاداً فهو قد -"

رمى البارون صاحبه بنظرة استهانة تامة ورفع يده ليسكته. "في وقت آخر يا محمد. الآن، ما طبيعة سؤالك الثاني يا إسكندر باشا؟"

"لقد سفّهت من ولعنا بكونت وإني لأقدر كثيراً لميلك للريبة . لا يخلو أحد من نقاط الضعف يا عزيزي البارون . ما يلفتنا نحو كونت ليس قائمة قديسيه العلمانيين ، بل عقلانيته الراسخة . كان رجال الدين هم من زودوا سلاطيننا بالسلطة الأخلاقية لإعاقة التقدم لزمن طويل . ولا جدوى من ضرب رأس واحد فقط ، بينما الوحش الذي نواجهه مزدوج الرأس . كما ترى أمام خليل معضلة حقيقية ، فبعض أتباعه ذوو حمية وسريعو الغضب للغاية . بينما يتطلب الموقف أن تتعلم فن الصبر . ولكن من أجل تهدئتهم لا بدّ أن يمتلك المرء خطة إرشادية طويلة المدى يكون لها فرصة في النجاح . لقد أتى إلينا طلباً للعون لأن الأسبوع القادم سوف يزوره سبعة من أولئك الشباب المشتعلين . إن الخيارات التي أمامنا تتجاوز ترف السجال الفكري المطمئن بين جدران هذه المكتبة . إن حياة آخرين مرهونة بالنصح الذي سنقدمه لابني . لقد بلغ غاية السعادة حين رُفِعَ إلى رتبة الجنرال ، غير أن لم يدرك قط أنه ذات يوم سوف يطالبه رجاله بشن حرب على العدو الذي في الداخل ، بما في ذلك نفس الأشخاص الذين جعلوا منه جنرالاً . لو كان أبي في موضعنا لنصحنا إما بتسليم الخونة أو بالاستعفاء من الخدمة والاستجمام بضعة أشهر في الإسكندرية . قبل بضع سنين ، وبوصفي رأس العائلة وأحد أعمدة الدولة ، كان من الممكن لي أنا أيضاً أن أقول له شيئاً شبيهاً ، غير أن تلك الأزمنة قد ولّت أيها البارون . والآن ، أتدرك مقدار المجازفة؟"

استغرق البارون في التفكير . أدرك أن تلك ليست أمسية مخصصة للحديث البار ، حيث يمكن لذكائه الحاد أن يغلبنا جميعاً . أكّد خليل على ضرورة وإلحاح ما قاله أبوه للتو .

"فإن لم يكن كونت ، فمن يكون إذن؟ هيجل؟"

"لا ، لا . ليس هيجل بكل تأكيد . " تبدلت نبرته . لم يعد يحاول إثارة الإعجاب ، لكنه صار أميل للتأمل . " أحسبُ أن رجل الساعة بالنسبة لضباطك هو شخص لن يسمعوا به أبداً ، فضلاً عن قراءته . أفكر في إيطالي يدعى نيكولو ميكافيلي . إنه مفكر له شأنه في أمور السياسة وإدارة الدول . وإنكم في أمس الحاجة إليه هذه اللحظة . "

قال محمد : " ما أسخفك أيها البارون ، بالطبع سمعنا عن ميكافيلي . لقد جرى تبادل قوي بين العثمانيين وإيطاليا عصر النهضة . أكنت تعلم أن السلطان قد طلب من ليوناردو ومايكل أنجلو تصميم جسر يمر فوق البوسفور؟ "

" هذا حديث جاد يا محمد " ، كانت نبرة البارون باردة . " فلنؤجل أمور التسلية واللهو ، مهما كانت سارة ، إلى يومٍ آخر . إن لم يتغير أي شيء سريعاً هنا فقد تفقد حتى بوسفورك الحبيب . ربما قد سمع كثيرون عن ميكافيلي ، ولكن كم عدد من قرأه ، وكم عدد من فهم ما كان يكتب عنه منذ كل تلك السنوات؟ أي شخص حاضر هنا إلإي؟ كلاً ، هكذا اعتقدت ، لا يدهشني هذا . كان من الممكن أن أكون مثلكم تماماً لولا أن تتلمذتُ على أيدي أتباع مدرسة هيجل . ولم أقرأ ميكافيلي إلا لأن هيجل كتب عنه باحترام كبير في نصه الشهير لعام ١٨٠٢ (حول الدستور الألماني) . كان مقال هيجل ذلك هو ما جعلني أرغب في قراءة عمل من كان موضع هذا الإعجاب الهائل . "

قال خليل نافذ الصبر : " سوف ندرس بدقة أي الكتب علينا قراءتها أيها البارون ، ولكن ما عليك أن تشرحه الآن : لماذا هذا الإيطالي ولماذا الآن؟ "

قال محمد: " لقد ثقلت هذه الليلة على صدري إلى حد يفوق طاقتي، لست واثقاً من قدرتي على البقاء ساهراً للاستماع إلى المحاضرة التي يتأهب البارون لإلقائها حول ميكافيلي. إن رجال خليل يعدّون لثورة وليس لدينا ما نقدم لهم سوى الأفكار. "

حدجه البارون بنظرة متفرسة. " ربما يجب عليك يا محمد أن تأوي إلى فراشك مرتدياً منامتك الحرير فاقعة الحمرة، لتحلم بمايكل أنجلو يرفرف فوق البوسفور، بينما أمكث أنا هنا مع خليل لأعوانه على إنقاذ بلدك. بدون هدف ينهض على الأفكار فلا جدوى من أي تمرد أو ثورة. "

لم يغادر الغرفة أحد. تبادلتُ نظراتٍ مختلطة مع سليم. الذي استغرق بكيانه كله في حديث هذا المساء.

" أنا واثق أنني أرغمتُ محمد وإسكندر على قراءة مقال هيجل ذلك عندما كنتُ معلماً شاباً في منزلكم بإسطنبول قبل تلك الدهور. هل يمكن لأي منكما أن يتذكر الجملة الافتتاحية؟ "

أشاح محمد بصره في قرف. رفع إسكندر باشا يده كما لو كان تلميذاً في فصل.

قال البارون: " جيد، قل يا إسكندر. "

"*Deutschland ist kein staat mehr.* "

" برافو عليك "، قال البارون، متخيلاً أنه عاد معلماً مرة أخرى. ذلك صحيح. (*Deutschland ist kein staat mehr.*) ألمانيا لم تعد دولة. الإمبراطورية العثمانية لم تعد دولة. إيطاليا لم تعد دولة. كان

ضرورياً أن تولد دولة جديدة وتمضي للأمام. إن أمير ميكافيلي هو الدولة. يرى فيلسوف السياسة، هذا الإيطالي العظيم، واقع إيطاليا كما هو وليس كما قد يتخيله البعض. يرى بلداً منشقاً ومقسماً، معرضاً على الدوام لهجمات القوى الأجنبية. ليس الأمر نفسه تماماً، غير أنه لا يختلف كثيراً عن الإمبراطورية المنشقة والمقسمة، التي تواجه اعتداء الدول الأجنبية. تكمن عظمة ميكافيلي في هذه الحقيقة: إنه لا ينقلبُ راجعاً إلى التاريخ، إلى الأزمنة الغابرة، من أجل أن يخطط مستقبلاً جديداً. بل يرى الحاضر كاملاً ويفهم أنه يلزم شيءٌ جديد... "

واصل البارون على هذا المنوال لساعةٍ بالتمام والكمال.

عندما انتهى الحديث كان الليل يوشك أن ينتصف. كان الجميع متبهين، عدا حسن بابا، الذي أخذه النوم، وأنا. كنتُ أعرف أن عليّ أن أبقى متيقظة لأن هذه لحظة ذات أهمية. كان التاريخ يُصنع في حضوري. لكن كان ثمة أمر آخر يقيد من ميولي الطبيعية، فلو أنني أغلقتُ عينيّ لما عاد بوسعي أن أرى سليم.

صار هذا المنزل الجميل المعزول فجأةً ودون إنذار جزءاً من عالم كبير. لم نعد نختبئ من قبح الواقع الذي يواجهنا بالخارج. عبارة واحدة من أقوال ميكافيلي استعملها البارون مراراً - "من الشر ألا نسمي الشر باسمه" - ظلت تتردد في رأسي طوال السهرة. أحياناً حينما كان البارون ينتقل إلى مستوى نظري بدرجة أكبر كانت هذه العبارة الصغيرة تظل تعاودني. كان يمكن لها أن تصدق على أي شيء، وليس فقط على عالم السياسة.

في وقت تال من تلك الليلة كنتُ نائمةً نومًا خفيفًا حينما سمعتُ الباب يُفتح . دون أن أكون واثقة إن كان هذا جزءاً من حلمي أم لا ، رأيتُ جسداً مألوفاً يخلع ثيابه ويندسّ في فراشي . في البداية ، ظننتُ أنه لا يزال حُلماً ، غير أن الشيء الصلب الذي نخزني وأثارني تحت خصري كان واقعياً وحقيقياً للغاية . وكجني سليم ، فتحوّلت أضغاث أحلامي إلى وجودٍ كله نعمة خالصة .

(١٣)

سلمان يتفكر في الحب ويتحدث عن المأساة التي لطخت
حياته؛ وقسوة الخيانة التي لاقاها من مريم، ابنة حامد بك
تاجر الماس القبطي في الإسكندرية.

(هل أنا حقاً الرجل الوحيد الذي يمثل أمامك، يا امرأة يا حجرية؟
حينما أخبرتُ أختي زينب بجأتي للحديث معك أظهرت عدوانية
واستخفافاً وهي تقول: "لماذا تنتهك الموضع الذي كان مزاراً مقدساً لنساء
هذا المنزل؟"

كان عليّ أن أذكرها في صرامة بأننا، حينما كنا أطفالاً، لم يقتصر الأمر
على الفتيات وحدهنّ، عند الاختباء وراء الصخور واستراق السمع إلى النسوة
الشاعرات بالذنب من أمهات وعمّات وخادمات. كنتُ أنا وخليل دائماً هناك
كذلك. ابتسمت حينما سمعتُ هذا ولانت قليلاً، وهكذا أتيتُ إليك، بعد نحو
خسة وعشرين عاماً، بعد أن صرّحت لي أختي على مضض.

وإذا ظننت أن هذا الرجوع الرائق إلى جانبك دليلٌ على أنني عدتُ من
جديد ذلك الفتى خالي البال كما كنتُ أيام صباي، فستكونين مخطئة. إنني

إنسان معذب، يا امرأة يا حجرية. على مدى السنوات الخمس الماضية عانت روحي ليالٍ مظلمة أكثر من الاحتمال.

لطالما علمنا حسن بابا أنه لولا تجربة الإنسان للظلمات لما أدركَ أبداً قيمة النور كما يجب، غير أن هناك وجهاً آخر لهذه البصيرة السديدة. ماذا لو أن الظلام لم يتبدد قط وأمسى النور ذكرى بعيدة؟ لقد سمعتُ أن الشمس في بعض الأجزاء من العالم تكاد تختفي تماماً خلال فصل الشتاء، وأن كثيراً من الناس هناك لا يهتمون هذا فينتحرون. الأمر ذاته صحيح بالنسبة للظلمة الداخلية التي يمكنها أحياناً أن تخنق الروح.

بما أنك لم تسمعي حكايتي قبل هذا، فأحسبُ أن عليّ أن أبدأها من أولها. لن أحكي طويلاً عن أُمي، التي ماتت وهي تجلبني إلى هذا العالم. لا بد أن آخرين ذكروها لك وأخبروك كيف أن موتها قد قلبَ كيان والدي تماماً. من أجل أن يتجنب التفكير فيها تحوّل إلى شخص يعجزُ عن التفكير فيها بالمرّة وعن الانجذاب إلى شخص يشبهها. لدى كلِّ منا غريزة التخفي وراء الأقنعة وتحويل الذات. تمنحنا معرفتنا بقدرتنا على هذا بعض المسرة وتعيننا على خداع الأعين المتطفلة. غير أن والدي، لسوء الحظ، اشتطّ في خداع الذات إلى حد أنه هو نفسه بدأ يؤمن بهويته الجديدة، وعانيتُ أنا لهذا أكثر من الجميع. لم أكن بالنسبة لإسكندر باشا سوى تذكير مزدوج بها وبسبب موتها غير المتعمد. ما لا يعرفه أخي وأختاي أن أبي حينما كان يراني بمفردي وأنا طفل كثيراً ما كان يرفعني عن الأرض ويقبلُ وجنتي في عاطفة كبيرة. لطالما علمت أنه يجنبي، غير أن جانباً آخر بداخله تمنى معاقبتني وإذ كبرتُ فقد كبرتُ معي أفعال التحدي والعصيان في وجه

استبداده التافه بأهل بيته فتدهورت علاقتنا . منذ سن الرابعة عشر فما بعدها رغبتُ في الهرب بعيداً عن هذه العائلة . حسدتُ أُمِّي ، لأنها كبرت دون أسرة ، ونشأت روحاً حرة ، أكثر حرية من أي منا .

بمجرد أن سنحت لي فرصة غادرتُ إسطنبول وبعد ترحال لمدة عام ، انتهى بي المطاف في الإسكندرية . قضيتُ عدة شهور في القدس ودمشق والقاهرة ، ولكن لم تجذبني أي من تلك المدن إلى الإقامة فيها . غلب الطابع الديني على القدس أكثر من اللازم ، والمدينتان الأخريان ، على مفاتهما ، كانتا مفرطتين في الضجيج وفي البُعد عن البحر . وكنتُ أتخسّر على افتقادي للبحر ذات يوم ، حينما قال لي بك شاب متغطرس : " إذا كانت زهرتنا الإسطنبولية الرقيقة الشابة تذبل بعيداً عن نسيم البحر فلم لا يذهب ويقيم في (إسكندرية)؟ عن نفسي ، لا أستطيع احتمالها لأكثر من أسبوعين كل صيف ، ولكن لا جُنّاح على الذوق العثماني . اذهب وأقم في منزلي ما طابت لك الإقامة ، يا سلمان باشا ، وإذا راق لك المدينة فلتجد لنفسك مكاناً تعيش فيه . "

هكذا استقر بي المقام في مدينة تحمل اسم أبي . هل من الممكن أن يُغرم المرء بمكان ، يا امرأة يا حجرية؟ نعم ، ممكن ، فقد جربتُ هذا . اعتدتُ أن أمشي لساعات كل يوم ، إلى أن صرتُ أعرف كل ركن في الإسكندرية . ولكي أهرب من ضجة الصباح كنتُ أبتعدُ عن المدينة وأجد لي ملاذاً قريباً من البحر . في إحدى جولاتي رأيتُ خوراً صغيراً للغاية فصار هذا الموضع لي كن خلوتي الخاص والحميم . كنتُ أذهب إلى هناك في الساعات الأولى من النهار ، قبل أن تطلع الشمس وتجعل التطلع إلى السماء مستحيلاً . لم

يكن لي صديق في تلك الأيام إلا نسخة من أعمال فيرلين . كنتُ أهدقُ في البحر ، وأحلم بالسعادة ، وأفكر في حياتي وأحياناً أتسلى بكتابة شعر رديء . أحد أسهل الأمور في هذا العالم ، يا امرأة يا حجرية ، كتابة الشعر الرديء . هل سبقَ وأن أخبرك أي شخصٍ بهذا؟

أهم شيءٍ أنني قد عثرتُ على ما كنت متعطشاً له طوال كل تلك السنين . كنتُ بمفردي . فالعزلة ، كما تبين لي ، لا غنى عنها للعقل حتى يدرك مقدار قوته . من الصحيح أن عيش الوحدة له مثالبه ، يرضينا عدم تعرضنا للأذى الذي قد ينجم عن تواصلنا مع آخرين ، لكن هذا الرضا أحياناً ما يطمسه الحزن الذي قد يستحوذ عليها لأننا لا نملك إلا أنفسنا . غير أن هذا كان شيئاً مختلفاً عن العزلة التي فُرضت عليّ بعد ذلك ببضعة أعوام . إن ما عانيته من إحساس بالخسارة حول حياتي إلى عناء لا ينقطع من الشعور بالوحدة . حتى في صحبة أصدقائي ، فضلاً عن الغرباء ، كنتُ أشعرُ بوحدة تامة ونهائية .

بدأ ما معي من مال يتناقص . وكما هو الحال على الدوام ، كانت استجابة عمي كمال سخية . قبل أن أرحل جعلني أقطع له وعداً بأنني إذا ما لاقيتُ ضيقاً مادياً أن أتواصل معه هو وألاً أقلق أبي . وقد وافقَ هذا خاطري تماماً . أرسلتُ برقية إلى عمي كمال ، فليسد طوالعنا وافقت إمبراطوريتنا على إنشاء نظام التلغراف . بعدها ببضعة أسابيع رستُ إحدى سفنه في ميناء الإسكندرية ، وجاءني قبطانها ومعه رزمة صغيرة مختومة . شكرته وضايفته ببعض القهوة وسألته إن كان على علم بخط عمي كمال المقبلة . وانددهشتُ حينما أبلغني بأن عمي كمال يتأهب لزيارة اليابان وتأسيس مكتب لشركته في طوكيو .

في الدقيقة ذاتها التي غاردني فيها فككتُ الرزمة، وكم أسعدني أن أجد فيها ماسة غير مصقولة متوسطة الحجم، ملفوفة بنسيج قطني. تساءلتُ عندئذ عن سر ولع عمي كمال بي إلى هذا الحد. لم أحاول قط أن أكتسب تعاطفه معي. كان له ثلاث بنات، كلٌ منهن أقيح وأغبي من أختيها، وهكذا فلعلني كنت ابناً بديلاً له. كانت هناك تلمحيات أخرى، غير أنني أوضحتُ لزوجته، تمام الوضوح أنني لستُ مهتماً بالمرّة أن أتخذ أياً من بناتها زوجة لي. ضحك عمي عندما بلغه هذا.

كما كان هناك رسالة ضمان اثتمانية لرجال البنوك الذين يعملون لحساب عمي في القاهرة، وخطاب مُقتضب يوصيني فيه بأن عليّ أن أستخدم الماسة كرهن للاقتراض وألاً أبيعها، تحت أية ظروف، دون أن أستشيرهُ أولاً. أرسل إليّ اسم رجل سكندري، "تاجر ماس صغير ويعتمد عليه"، وأخبرني أنه كثيراً "ما عقدتُ معه صفقات. وهو قبطي، لكنه جدير بكل ثقة وصديق قديم للعائلة. اذهب إليه إذا ما واجهتك أي عقبات." كان قد أخبرني بهذا كله قبل أن أغادر إسطنبول، ولكن بما أنه لم تكن لدي أي خطط حينذاك لزيارة الإسكندرية، فإنني لم أبدأ اهتماماً. وحينما وصلتُ إلى هنا أخيراً تذكرتُ صديق عمي، لكنني نسيتُ اسمه وأحسستُ أنني لو أرسلتُ إلى مكنتي القديم لأطلب منهم عنوانه، لربما أثقلني هذا بأعباء اجتماعية مضجرة. فبقيتُ بعيداً عن الناس. ما كنتُ لأسمح لشيء بأن يكسر عزلتي. لا شيء عدا الافتقار للمال.

لم يعد من الممكن إرجاء الرحلة إلى المنزل لوقت أكثر، فذهبتُ إلى هناك ذات يوم مباشرةً من خلوتي على الشاطي ففتحتُ لي الباب أميرة من

أميرات الجن . تدافعتُ ضحكاتها بمجرد أن رأته . كان الرمل ما زال عالقاً في ثيابي وشعري ، وفي قدمي صندل وبين يديّ نسختي المهلهلة من فيرلين . تلعثمتُ قائلاً : " هل أتيتُ إلى المنزل الصحيح؟ " ، عاجزاً عن منع عينيّ من التجوال على كامل جسدها . " هل يعيش حامد بك هنا؟ "

أومأتُ ودعتني لدخول المنزل . كانت ذات شعر عميق السواد ، وبشرة زيتونية ، وعينين صغيرتين ، مما جعلني أتساءل ما إذا كانت أمها يابانية . كانت ترتدي ثوباً أوروبياً كشف عن الأجزاء الدنيا من ساقها ، غير أن ما سرّني أكثر من سواه كان ضحكاتها وحقيقة أنها كانت تسير حافية .

قالت : " لقد فاجأتنا بزيارتك . أبي يستحمّ الآن . ألسنّ سلمان باشا؟ كنا نتوقع حضورك منذ فترة . هل تحب أن تشرب شيئاً؟ أتمنى أن تتناول الغداء معنا . أستأذنك الآن ، إذ عليّ أن أبدلّ ثوبي . أرجوك ، اعتبر البيت بيتك . "

هذه المرة ضحكتُ أنا . اختفت دون أن تسألني تفسيراً لمرحي . أتعرفين لماذا ضحكت ، يا امرأة يا حجرية؟ كان منزلهم أغرب ما يكون بالنسبة لي . لقد عشنا في إسطنبول في منزل يعود إلى القرن الثامن عشر ، وهنا ، في قصر يوسف باشا الصيفي على البحر ، يفقد الزمن كل معنى له . أما ذلك المنزل في الإسكندرية فقد كان سابقاً زمنه بكثير . لم يسبق لي أن رأيتُ مثل هذا الأثاث الأنيق في إسطنبول ، ولا حتى في منزل آل براجاديني . فهم أيضاً فضّلوا العيش في الماضي ، ولكن هنا كانت أحدث موبيليا من إيطاليا . كانت هناك في الردهة خزانة صينية كبيرة . كل شيء كان جديداً ، وبينما أتأمل معجباً زخارف وزينة الجدران نزل حامد بك من

الطابق العلوي في بدلة حريرية وحيّاني بكل مودة. لا بدّ أنه كان يناهز الستين من عمره، غير أنه موفور الصحة لأبعد حد ونحيف القوام بدرجة مدهشة، على خلاف أبي وعمي الذين كانوا يقفون جميعاً إلى جانب البدانة المهيبة.

رأيتُ أنه قد يكون من الأفضل أن نُنتهي أمور العمل قبل تناول الغداء. أريتُه الهدية المُرسلة من عمي. أخذها إلى مكتبه وفحصها تحت مجهر. "حجرٌ جيد جداً. أحسبُ أنك تود أن تستخدمه في جمع بعض المال لتنفيذ مشروع ما تعدّ له في الوقت الراهن؟" كان مشروع عمي الوحيد هو أن أتمتّع بحياتي حتى الثمالة ولم أكن أريد المال إلا لهذا السبب، وهكذا فقد أمأت مبتسماً. "إنني أثقُ في كمال باشا أكثر مما أثقُ في ابن أمي وأبي. لم تكن بحاجة لأن تُريني الماسة. كم تريد أن تقترض؟" قلتُ رقماً دونما تفكير، فأخبرني بأن أعود إليه في اليوم التالي لاستلام المبلغ.

حينما نزلت ابنته لتناول الغداء كان قد طراً عليها تحوّل تام. بدت رزينة، وكانت أقل استرخاءً بكثير وترتدي ثوباً أصفر يوافق الأصول ويلمس ذيله الأرضية، وفي قدميها الآن صندل جلدي، وهو ما ضايقتني كثيراً لأنه أخفى قدميها. وإن بدا على وجهها أي تعبير فالخزم والصرامة. تمنيتُ أن يكون حضور أبيها هو السبب الوحيد وراء تغييرها.

"هذه بنتي، مريم. إنها تتولى تدبير شؤون هذا المنزل منذ غياب أمها."

لم يُقل شيء أكثر من هذا عن الأم وسوف تمر عدة شهور أخرى قبل أن تخبرني مريم بالقصة كاملة. كان حديثنا على الغداء مهذباً. لم يكن

لساني طليقاً في العربية كما أن حامد بك ومريم لا يعرفون شيئاً من اللغة التركية، فانتقلتُ تدريجياً إلى الفرنسية، فتبدى السرور على وجهها جلياً. لم تتح لها الفرصة قط لممارسة وإتقان معرفتها باللغة وسرّها أنني أجيد الحديث بها.

يا امرأة يا حجرية، أعلمُ أنه لا شيء يُفاجئك أو يصدّمك، ولذلك أتى إليك كثيرون ومثلوا بين يديكِ عبر القرون وأفضواً بمكنون أفئدتهم.

في ذلك اليوم ذاته، وبينما أتناول الغداء على مائدة أبيها كضيف مكرم، سقطتُ فريسة هذه المخلوقة. من المستحيل أن يخطط المرء للحب كأنه ينظم دفتر حسابات، لا يمكن لأحد أن يقول لنفسه: إن هذه الفتاة تليبي جميع الشروط التي وضعتها لكي أقع في الغرام. فهي جذّابة القسمات، حسنة الحديث، بغير اندفاع بالكلام في غير موضعه، كما أنها ستحظى ببائنة محترمة، وسوف تنجب لي أطفالاً أصحاء. وعلى هذا كله، فسوف أعمد إلى الوقوع في غرامها.

لقد عرفتُ تجاراً يكيلون الحب تماماً كما يفعلون مع تجارتهم؛ وأطباء يقيسون نبضهم ليتأكدوا من أنهم قد عشقوا حقاً؛ وفلاسفة لا يتوقفون عن الشك في غرامهم؛ ومزارعين يظنون أن الحب ينمو ويستوي كالفواكه على أشجارها؛ ورجسين متفخين بذواتهم ليس بمقدورهم أن يحبوا شخصاً آخر غير أنفسهم. لا تسيئي فهمي يا امرأة يا حجرية، فأنا لا أقول إن الحب لا يصير أكبر وأعمق وأقوى بمرور السنوات. ذلك كله صحيح، ولكن من أجل أن يحدث فمن المهم الصورة التي عليها يبدأ وينشأ. حسب كتابي أنا فليس سوى بداية واحدة حقيقية، وكل ما سواها زيف باطل. لا بدّ أن

يصعقنا الحب كالبرق . ذلك ما وقع لي منذ ثمانية أعوام في ذلك الأصيل
الصيفي اللطيف وأنفاس البحر تهيمُ في جنبات منزل التاجر القبطي حامد
بك . كانت مريم بالكاد في الثامنة عشرة ، وكنت أشرف الثانية والثلاثين .

عدتُ في اليوم التالي لأتسلم المال . فتحت لي الباب امرأة عجوز يتدلى
من عنقها المعجد صليبٌ مُنذر ، وأبلغتني بصوت رسمي أن حامد بك قد
سافر إلى القاهرة في عمل ، وأنه سيغيب هناك لعدة أيام . كان قد ترك لي
مظروفاً ، هو ذلك الذي تسلمني إياه الآن ، ورجتني أن أعود من جديد بعد
عشرة أيام ، حين يكون سيدها قد عاد من المدينة . لا بد أن الحيزبون قد رأت
أمارات الخيبة والحسرة تملو وجهي ، لأن هذا انعكسَ في لمحة سرورٍ من
جانبها . وقفتُ هناك يائساً بلا حراك .

قبل أن أستطع التفكير في شيء أقوله كانت مريم تدخل المنزل راکضةً
من الشرفة ، وهي متقطعة الأنفاس قليلاً ، ولكنها ، شكرًا للسماء ، حافية
القدمين . ذاب قلبي لدى رؤيتي قدميها .

صاحت في العجوز : " ألم أخبرك أن ترسلي إليّ عند وصول سلمان
باشا؟ " رفعت الخادمة منكيها استهانة وغادرت الغرفة .

التفتت مريم نحوي . " دعك منها ، يا سلمان باشا . إنها قليلة الذوق
ومفرطة في مخاوفها . لقد عاشت مع أسرة أبي منذ قرون ويطيب لها جداً أن
تتصرف بفظاظة . وكانت تكره أُمي . ألا نذهب للجلوس على الشرفة؟ هل
تحب أن تأخذ عصير ليمون طازج؟ ألم تحضر معك أي كتب فرنسية؟ ما لك
لا تتوقف عن الضحك؟ "

ليس بي طاقة لأن أعيد معايشة التجربة بكاملها من جديد، ولا حتى من أجلك، يا امرأة يا حجرية. إن لبعض الذكريات من النقاء والعدوثة ما قد يدفعني للبكاء، وقد يصيبني الضعف وأحبها مرة أخرى دون أن أجنبي من هذا كله غير الخسران. سيكون مثل السقوط في الهاوية، ولكن دون الارتطام بالأرض - أسوأ كابوس ممكن. أنا عاقد العزم، مهما كلفني الأمر، على تجنب هذا البلاء. لذلك، ولذلك فقط سوف أسرع من وتيرة هذه الحكاية.

امتدت إقامة حامد بك في القاهرة لأكثر من أسبوع. كنا نلتقي أنا ومريم كل يوم، ولكن ليس بعد الغروب أبداً. منعت الحيزبون ذات الصليب هذا بكل وضوح، وأحسّت مريم أن تحدي هذا الحظر سيكون حماقة لا داعي لها. وأينما كنا في ذلك المنزل الكبير كنتُ أبدأ بالشعور أننا تحت المراقبة، وبدأت مريم تشعر بالأمر ذاته. كنا نحتق. فأخبرتها بشأن ملاذي السري. اتسعت عيناها أمام فكرة المغامرة. استدعت ماريما، وهو الاسم الذي تعمدت به الحيزبون، وأمرتها بأن تعد لنا بعض القهوة وبينما هي في المطبخ هربنا من المنزل مثل لصين وقد دسنا جيداً كتبنا الفرنسية تحت الإبط. مريم أيضاً أغرمت بذلك التجويف الصغير المظلل، حيث صرنا بمفردنا تماماً.

باح كلُّ منا بحبه للآخر في ذلك اليوم. أقرتُ هي أيضاً أن رؤيتها لي والرمل عالق على شعري قد تركت أثراً عظيماً عليها، ومع ذلك فإنها كانت واثقة أن رؤية أعمال فيرلين معي هي ما كان لها أثر البرق عليها. تبادلنا القبلات والمداعبات. طرحنا عنا ثيابنا وسبحنا في البحر. جففنا

أنفسنا ورُحنا نقرأ لأحدنا الآخر . تمتعتُ بكل جزء من جسدها أتى وصفه
في هذه الأبيات من إحدى قصائد حب لفيرلين ، بعنوان " الربيع " :

الفخذان رائعان ، النهدان ناهضان ،
الظهر ، الخصر والبطن ، كلها
وليمة للعينين ولليدين الفضوليتين
وللشفاه ولجميع الحواس؟

زادت القصيدة من إثارتنا ، غير أنني لم أحظَ بها ، على الرغم من أنها
كانت مستعدة للتضحية بعذريتها وكنْتُ عندئذ في قبضة شغف مُستعر .
كنت أتوجَّع توقُّاً لها ، وخصيتاي تؤلماني ، في لهفةٍ يائسةٍ لإطلاق
مُدخراتهما ، غير أنني قاومتُها .

لماذا؟ لأن جماعها سيكون انتهاكاً لحسن ضيافة أبيها . أليس غريباً ، يا
مرأة يا حجرية ، كيف تنغرس عميقاً في عقولنا كل العادات والتقاليد العتيقة
وكم يكون من العسير اقتلاعها منها؟ ثار غضبها حين أفضيتُ لها بهذا
وأخذت تلعن جميع الباشوات والباشوية وتعلن نفسها مواطنة حرة في
جمهورية الغرام . أصبحت قاسية في سخريتها ، كما دفعتني للضحك كثيراً .
لم يسبق لي قط أن التقيتُ شخصاً مثلها .

عندما رجع حامد بك إلى الإسكندرية ، وقبل أن تتمكنَ ماريًا من
صب السم في أذنيه ، طلبتُ منه يد مريم للزواج . أخبرتُ حامد بك أنني لا
أريد أي شيء آخر ، فلم أكن مشغولاً ببياتنة من ماله لابنته . سوف نتزوج
ونعتمد على أنفسنا . اعتقدتُ أنه قد يطلب مني الانتظار عاماً أو ستة شهور
على الأقل ، وأن أقيم خلالها في مدينةٍ أخرى لكي أحدد ما إذا كانت

عاطفتي حقيقية أم عابرة، غير أنه لم تساوره مثل تلك الشكوك. " لقد شعرتُ منذُ اليوم الأول الذي تناولتَ فيه الغداء معنا أنك أنت ومريم سوف تتوافقان على أحسن ما يكون. لكم موافقتي ومباركتي. وأنا قبطي، كما تعرف، وأود أن يتم الزواج في كنيسة. وحينما تأخذها معك إلى إسطنبول يمكنك أن تقيم مراسم أخرى. "

أترع قلبي بالفرحة حدّ أنني ضحكت. " يا حامد بك، سوف أتزوجها في أي موضع كان. كما تعرف، أنا لستُ مؤمناً. لا وزن عندي لأية مراسم فعلية. "

لم يرغب حامد لك في إرجاء الأمر. لم تكن بي أي رغبة في إخبار أي فرد من أسرتي، باستثناء العم كمال. كانت البرقية التي أرسلتها إلى مكتبه حازمة في نقطة واحدة فقط، أخبرته أن ذلك الخبر يخصّه هو وحده. لم أكن أرغب في تلقي رسائل من أي شخص في إسطنبول. أرسل إليّ برقية تهنئة وكتب إنه تقبلَ رغبتني في الكتمان، لكنه في المقابل أصرّ على أن المنزل الذي كنت أشتريه لا بدّ وأن يكون هدية زفاف مشتركة بينه وبين حامد بك. تقبلت طيبتهما، يا امرأة يا حجرية. فعلى كل حال، فقد كان ما يقدمانه لي مجرد منزل، وليس قطعَ جمال. ومع ذلك، فقد رفضتُ في صرامة العرض الخاص بأن نصحب ماريًا معنا لتدير شؤون المنزل، فبعض التضحيات غير مقبولة بكل بساطة.

وفي غضون أسبوعين صرتُ أنا ومريم معاً. كانت هناك أوقات من سعادة حقيقية لكلينا، ولكن الآن حين أرجعُ النظر للماضي، وحتى إلى تلك الفترة الباكِرة فإنني أتذكر مواقف بدت حينها نافهة بل صيبانية.

لكل منا جوانب مختلفة من شخصيته، يا امرأة يا حجرية. وسيكون مجافياً للطبيعة ألا يكون الأمر كذلك، غير أن مريم كانت امرأة ذات تناقضات غائرة. بطريقة ما، أعتقد أنها كانت تفضل حقاً ألا يسمح حامد بك لنا بالزواج، ففي نظرها سيكون هذا امتحاناً لحبي لها. فهل كنتُ سأهرب معها عندئذ إلى جانب ما آخر من العالم؟ ولم يكن لإجاباتي المؤكدة عليها إلا أهون الأثر ما دام لا سبيل أمامها للتيقن بالتجربة العملية. في أوقات أخرى كانت تقول: "كم أكره أن أراك سعيداً هكذا معي. تعجبني أكثر حينما تكون حزينا". لم أفهم قط سبب ذلك، وحينما سألتها في ذلك فيما بعد أنكرت تماماً أنها قد قالت هذا على الإطلاق.

كان قد مرّ وقت طويل بعد انقضاء مباحث العرس حينما فسّرت لي سبب تعجّل حامد بك على هذا النحو. كان يعلم أنه لو طال أمد الخطبة، فسوف يكون من العسير، إن لم يكن مستحيلاً، منع أمها عن الحضور.

كانت أمها، آرابيلا، ابنة مالك مزرعة إنجليزي من عشيقته الصينية، التي عاشت في المستعمرة البريطانية في جزر الملايو. لم يكن والدها متزوجاً، فاعترف بنسبها إليه، وتربّت في منزل المزرعة، ولكن بدون أمها، التي كانت تراها مرة أو مرتين كل أسبوع. فيما بعد تم إرسالها للدراسة في بريطانيا. أحبّت مريم أمها وكرهتها، والكلمات التي كانت تحكي بها القصة عكست هذه الثنائية.

في طريق عودتها من لندن استسلمت آرابيلا لنزوة ملحة بأن تشاهد أهرام الجيزة. أوبرق قبطان السفينة إلى سنغافورة فوافق أبوها. نزلت عن السفينة في الإسكندرية، وكان لأبيها أصدقاء هنا وقد أبلغهم أن طفله

العنيدة في طريقها إليهم . استقبلها في الميناء زوجان عجوزان (توفيا الآن) . كانت دائماً طفلة مدللة وتأخذ كل شيء كحق لها دون امتنان . في صورتها الفوتوغرافية تظهر كامراً إنجليزية . في الحياة الحقيقية كانت بشرتها أدكن بدرجة طفيفة ، لكنها لم ترغب قط في أن تعتبر هجيناً من جنسين مختلفين . ولهذا فإن ما جرى في مصر قد أذهل الجميع .

وقعت عينا حامد بك عليها في حفل عشاء خاص ، حيث صرحت برغبتها في رؤية أبي الهول . عرض أن ينظم لها رحلة ومرافق خاص . لكنه كان قد فتن بها وراح يتبعها في كل مكان . ما زال حامد بك حتى الآن رجلاً جذاباً ، فلا بد أنه كان قبل عشرين عاماً شاباً لا سبيل لمقاومته . أطراها اهتمامه بها ، وتسلت بنكاته ، وانبهرت بشروته وانجذبت إلى جسده . تقدم لها فوافقت . أرسل أبوها برقيات عديدة لمنع الارتباط ، غير أنها لم تكن قاصراً وكانت ذات مزاج يميل للعصيان والتحدي . أخبرها مضيفاها بأنها لا يمكن أن تتزوج مصرياً ، فتركت منزلها معلنة للجميع أنها نصف صينية وفخورة بذلك . كان الجميع يعرفون ، بطبيعة الحال ، لكن ذلك لم يذكر علناً بما أن كل شيء فيها بدا إنجليزيّاً تماماً .

ثم ظهرت مشكلة أخرى صغيرة . كان حامد بك ينحدر من عائلة قبطية يمتد نسبها إلى ألف عام خلت ، وكانوا مستائين بالفعل من أنه سوف يلوث الدماء النقية للعائلة بالزواج من امرأة إنجليزية ، وأجهشت أمه بالبكاء حينما أخبرها فخوراً أنه ، هو أيضاً ، كانت ستتأبه الشكوك ، لو أن آرابيلا كانت إنجليزية خالصة ، غير أن حقيقة أنها نصف صينية قد طمأنته للغاية .

بالنسبة لجلدة مريم ، لم يكن للصينيين وجود فيما عدا كونهم شخصيات مرسومة على الحواجز التي اشترتها ذات مرة من متاجر الأثاث

الإيطالي، وأغلب الظن أنها اعتقدت أن الجنس الصيني بكامله ليس إلا اختراعاً كوميدياً. انتابَ حامد بك غضباً شديداً، وصرخ في وجه أمه. ثم هدأ وألقى عليها محاضرة حول الحضارة الصينية. لقد اخترعوا البوصلة، والبارود، والطباعة، وهلمّ جراً.

تزوجا بسرعة، وولدت مريم، ثم انتابَ أمها الضجر. كان حامد بك كثير السفر في تلك الأيام. وراحت هي تعيش حياة يعوزها الهدف، كانت تقرأ قليلاً، ولم تول أي اهتمام بمصر أو بتاريخها وسرعان ما بدأت تسخط من حقيقة أنها لم تعد تدعى إلى المنازل الأوروبية. وسرعان ما بدأت في رؤية مجموعة جديدة من الناي، كانوا أوروبيين من غير الموظفين الرسميين وكانوا يجتمعون في ناد محدد، ولكن أغلب الوقت في بيوت بعضهم، فيشربون الجن ويلعبون الورق. وذات يوم التقت برجل إنجليزي كان في طريقه إلى الهند، وتركت زوجها وابتها دون إخطار مقتضب حتى. كانت مريم في الحادية عشرة في ذلك الحين، كتبت إليها أمها ذات مرة تقول إنها لم تحب حامد قط، غير أن ذلك الشغف الحقيقي كان تجربة رائعة، والذي تمنى أن تكتشفه مريم بنفسها ذات يوم. لم ترها مريم مرة أخرى، رغم أن الاثنتين تبادلتا الرسائل وكانت آرابيلا ترسل لها نقوداً كل شهر. وقد أُنجبت مرتين آخرين، لم تطلب مريم رؤية صور الطفلين قط، خشية أن يغضب ذلك حامد بك.

كان شهودها لانهار أبيها أمراً غير محتمل، فقد أصبح مجرد ظل. كانا يأكلان معاً، يناقشان الكتب، يقابلان الأصدقاء، غير أن البهجة كانت قد انتزعت من حياته تماماً. بقيت غرفة آرابيلا على حالها كما كانت يوم رحيلها، وظلّت ثيابها في الخزانة لسنوات عديدة. الثوب الذي كانت مريم

ترتديه يوم قابلتها أول مرة، والذي أعجبني كثيراً، كان ثوب آرايلا. فيما بعد أفرغت مريم الغرفة من محتوياتها، ووهبت معظم أشياء أمها، واحتفظت لنفسها بالقليل منها ثم اتخذت من الغرفة مكتبة. قالت لأبيها إن الكتب هي الشيء الوحيد الذي لا يمكن أن يذكره بزوجته، فابتسم.

ثم ذهب مع كمال باشا في رحلة طويلة إلى اليابان، ثم عاد رجلاً مختلفاً. لم يكن لدى مريم أي فكرة عما حدث وما عايشه هناك، لكنه عاد أقرب كثيراً إلى سيرته الأولى. وبدأ يتسليان في منزلهما مرة أخرى. حاولت ذات مرة أن تتحدث إليه عن أمها، فارتسمت خطوط الألم على وجهه وهمس لها بأنها قد ماتت منذ وقت طويل. لم تفتح مريم الموضوع مرة أخرى بعد ذلك.

الجانب الذي تصدمني غرابته من هذه القصة، يا امرأة يا حجرية، لا يتعلق بحامد بك، فمشاعره كانت طبيعية. المفاجأة الوحيدة في حالته أنه لم يتزوج مرة أخرى. ما حيرني كان رد فعل مريم نحو أمها. كان في نبرتها على الدوام مزيج من الغضب والإعجاب، لقد بُذت، وهو ما أغضبها، ولكن أمها قد فضلت الحب والشغف على أي كل ما سواهما، فأرغمت مريم نفسها على الإعجاب بهذا الجانب من أمها. أحسب أن هذه كانت الطريقة الوحيدة لتستطيع التعامل مع الخيانة.

فكرة أن امرأة قد فعلت هذا بطفلها الوحيدة كانت أنانية إلى حد يتجاوز التوبة والتطهير، كانت فكرة تطرأ عليها ولكنها دائماً ما تطردها من عقلها. كانت النتيجة تناقضاً عميقاً في شخصية مريم. نما بداخلها خوفٌ حقيقي من الالتزام. تجربة فقدانها لأمها في سن صغيرة خلقت فيها جرحاً

عميقاً لم تختف ندوبه قط . بالنسبة لي ، الشخص الذي لم يعرف له أمماً قط ، كان من غير المعقول ألا تبدي طوال حياتنا معاً أهون رغبة في رؤية أمها مرة أخرى . كنت أكثر فضولاً منها وعرضتُ عليها أن آخذها إلى الهند ، لكنها غضبت مني بسبب هذا الاقتراح . وقالت إنه سيكون تصرفاً ينم عن خيانة أبيها ولسوف يعاني أكثر مما يحتمل شخصٌ في حياةٍ واحدة .

بعد مرور سنة ونصف كانت لم تحمل بعد وقد أحزنها هذا للغاية . رغبت في الأطفال لأسباب أكثر مما لدى أي امرأة عادية في مكانها . أن يكون لها أسرتها وأطفالها من شأنه أن يساعدها على نسيان ما فعلته بها أمها ، وصارت في غاية من القنوط فأثر هذا على علاقتنا .

قالت لي ذات يوم : " لعلّ العيب في بذرتك . عليّ أن أعثر على رجلٍ آخر . " ، وكانت تشرع في البكاء بعد أن تتفوه بعبارات من هذا القبيل ، وتحتضني في حنان وتتوسل طلباً للغفران . لم أكن غاضباً في ذلك الحين ، يا امرأة يا حجرية ، ولكن حزين فقط . أن يجد المرء امرأة يحبها كل هذا الحب حتى تصير جزءاً من كيانه ويعتاد أن يقاسمها كل شيء - الأفرح والأحزان والانتصارات والهزائم والأوقات الحلوة والمرّة - أليس أمراً نادراً للرجال كما هو للنساء أيضاً؟

وحدث أنها حملت بطفل في عامنا الثالث معاً ، ثم حملت مرة أخرى في العام التالي . نادراً ما رأيتها على هذا القدر من السعادة . استغرقت تماماً في طفليها وكانت تأخذهما لزيارة حامد بك كل أسبوع ، وأحياناً يقضون اليوم كله في البيت الكبير . وتناقص اهتمامها بي بقدر معتبر . أتذكر ذات مرة حينما مرّ عمي كمال بالإسكندرية وحلّ بنا ضيفاً ، وقد طاش صوابها تماماً

حينما قبل الطفلين وأعطى كلاً منهما صرة صغيرة للغاية من العملات الذهبية . وحينما راح يتحدث إليهما بحنان بالغ كعم لأبيهما لاحظتُ عندئذ وجهها . وحين قال الم كمال : " جدكم إسكندر باشا سوف يسره كل السرور أن يراكما ذات يوم " ، رأيتُ وجه مريم يسود غضباً وغادرت الغرفة ساخطة . كانت حيرتي صادقة تماماً ، كان لغزاً لا تفسير له .

بعد أن رحل عمي كمال حاولتُ أن أناقشها في مسلكها ، غير أن ملاحظاتي لم تفلح إلا في إثارة خطبة مطوّلة في قدح وذم عائلي . أرجعت السبب في مسلكها إلى أنها لا ترغب أن يستولي على طفلها باشاوات إسطنبول ؛ وكيف يسود التفسخ والجنون نسب عائلي ، وراحت تلتفك شكاوى أخرى عديدة . مع الوضع في الاعتبار اغترابي عن عائلي ، وجدتُ مسلكها مثيراً للشفقة ومبالغا فيه .

حتى في هذه المرحلة رحّتُ ألتمس الأعذار لمسلكها الطائش . أقنعتُ نفسي أنها فقط تميل إلى تملك زائد عن الحد بسبب فقدانها لأمها ، وهي الآن في غاية الخوف من أن تفقد طفلها . ومن يدري حتّى متى كان يمكنني أن أوصل خداع نفسي ، يا امرأة يا حجرية ؟ لكنّ القدر أخذته الشفقة بي .

ذات يوم ، وبينما أتمشي كعادتي اليومية على البحر في ساعة الأصيل ، اقتربت مني امرأة أوروبية ترتدي ثوباً أسود وتضع على رأسها قبعة بحجاب ينسدل على وجهها . كانت تعاستها جلية ، وسألتني إن كنتُ أنا "السنور" سلمان باشا ، نسيب حامد بك " . فأكدت لها شخصي ، وعلى ذلك ألحّت في الحديث معي في أمر ملح وعاجل . طلبتُ منها أن ترافقني إلى موضع من المتزه يكون أقل ازدحاماً . جلسنا فشرعت تبكي . ما زالت تلك الذكرى

تغمني ولن أطيل الكلام عنها . لكنها أخبرتني بالحقيقة، يا امرأة يا حجرية ، رغم أنني لم أصدقها تماماً في ذلك الحين . ربما أبدو هادئاً الآن بينما أحدثك عن هذا كله ، ولكن حينذاك ما أخبرتني به جعلني تواقاً للموت . اسودَّ وجه السماء والبحر ، واستحال السائرون أمامنا ظللاً . وتبلد عقلي كأنه شل . أخبرتني السيدة الإيطالية بأني لستُ والد طفليّ ، وأن زوجها كان والدهما الحقيقي . واتضح أنها متزوجة من ابن صانع الأثاث الذي يلبي احتياجات أثرياء القاهرة والإسكندرية . وهما من صنعوا أثاث منزل حامد بك ، فتذكرتُ الآن الشاب ، ماركو ، الذي أخذ قياسات فيلتنا والذي قد زار منزلنا مراراً حتى انتهى العمل .

وصفتُ زوجته بكل التفاصيل الأليمة كيف أغوته مريم واختطفته منها . عرفت بالأمر لأنها أفضت بشكوكها لحميها ، الذي أبدى الدهشة ، وكلف نجاراً عجوزاً أن يتتبع ابنه خلسةً . اعتادا أن يلتقيا في وقت مبكر من فترة بعد الظهر في موضعي السري الصغير المجوّف ، حيث تذوقنا أنا ومريم لأول مرة أهدنا الآخر . صرختُ عالياً حين سمعتُ هذه الجزئية . لا بدّ أنها مضتُ بعيداً في خستها وحقارتها لكي تتخذ هذه المجازفة ، مع علمها أنني كثيراً ما أذهب إلى هناك لأقرأ وأكتب . أكانت تتمنى أن أراها؟

قام والد ماركو بإرغامه على الاعتراف بهذا وبكل جزئية أخرى . تم إرساله أولاً ليعترف أمام القس ، ثم أجبر على السفر ليعمل في متجر عمه في جنوه كتكفير عما فعل . أخبرتني زوجته بأنها وابنتاه يتجهزون للحاق به في غضون شهرٍ . كان يتظاهر الآن بالندم والتوبة وادّعى أن مريم هي مَنْ بادرتُ نحوه وفتنته ، فصار عبداً لأهوائها . لم يرها قبل أن يغادر ، لكنه

أخبر أباه أنها أرادت منه أن يمنحها طفلاً آخر. أشارت زوجة ماركو إلى مريم كامرأة سائبة ومجنونة وقالت إنها جاءتني بالحقيقة لأنها سمعت أنني أيضاً كنت أعاني. شككتُ أن يكون هذا هو دافعها الحقيقي، لكنني استأذنتها في الانصراف بعد أن تمنيتُ لها كل الخير في المستقبل.

لم أعد أذكر أي شيء عما فعلت بعد هذا اللقاء. حينما وصلتُ البيت كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل. ذهبتُ إلى غرفتي وغرقتُ في فراشي. كانت في غرفتها ولكن غير نائمة. هل سيصدمك، يا امرأة يا حجرية، أن تعرفي أن حبي لها كان من القوة حتى في تلك المرحلة بحيث كنتُ مستعداً أن أغفر لها؟ فعلى كل حال، كانت بذرتي هي التي أخفقت في التبرعم والنمو. قلتُ لنفسي إنها إذا كانت راغبة في الإنجاب بهذه اللهفة المستميتة، فأى شيء آخر كان بيدها أن تصنعه؟ أتت إلى غرفتي مرتدية عباءتي الحربية الرمادية القديمة وسألت عن تأخرى بالخارج حتى هذا الوقت. نظرتُ إلى وجهها ووجدتُ نفسي في قبضة غضبٍ عارم. أردتُ أن أضربها، ولكني أمسكتُ زمام نفسي.

"مريم، أعرف أننا استعنا بأفضل صنّاع الأثاث في المدينة ليزودونا بالموائد والمقاعد والأسرة. لكنني لم يكن عندي أي فكرة أنك طلبتِ من نجارهم، ماركو، أن يزودك بالأطفال أيضاً."

نزلت عليها صاعقة، يا امرأة يا حجرية. شحب وجهها وبدأت ترتعش. حدثتها من جديد. "لو كان يمكنك فقط أن تري وجهك الكاذب المنافق في المرأة! أترتعشين من الخوف والذنب؟ أحسن! قبل أن أنتهي منك..."

توقفت لأنها شرعت في النحيب، وكان منظر دموعها يترك فيّ على
الداوم أثراً عميقاً. توجهت إليها وأخذت أريّت على وجهها. كان رد فعلها
على لمستتي كما لو كنت مصاباً بالجذام. طرأ على وجهها تحوّلاً تاماً. لم
أعد أتعرف فيها على المرأة التي أحببتها. تبدت على محياها ابتسامة غريبة
مزدرية، ابتسامة المتصر. كانت في الحقيقة سعيدة برؤية بؤسي، مسرورة
بأنني عانيتُ المذلة والخيانة. نظرت إليّ في اشمزاز حقيقي، وقالت: "لم
تعد بي مشاعر نحو منذ زمن طويل عدا التقزز والاحتقار. ليس فقط لأن
بذرتك عقيمة لا تطرح، لكن حبك قد أضحى عقاباً لي. كان عليّ أن أعتق
نفسي منك ومن قيود هذه العيشة."

لم يغمض لي جفن تلك الليلة. قسوتها الخالية من ذرة شفقة أو رحمة
تركتني بلا خيارات. فكّرت في الطفلين الجميلين اللذين أعشقتهما، كان من
العسير التفكير في أنهما لا يتيمان إليّ. كنتُ أتوق لرؤية وجهيهما الوداعين
لمرة أخيرة، لكنني قاومت رغبتني. حزمتُ حقيبة سفر صغيرة وخرجت من
البيت مع أولى بشائر الفجر.

كانت الشوارع خالية. والضجة الوحيدة كانت تصدر عن النوارس
التي تنبش البقايا بحثاً عن طعام. كانت السماء البديعة حمراء عند الحواف
وتشربت بالورديّ في بطاء. لم يسعني إلا أن أقارن جمال الطبيعة بقبح ما
فعلته مريم بجياتي. سرتُ حتى منزل حامد بك، فتحت الباب ماريا
الحيزبون، وهي تقبض على مسبحتها. وللمرة الأولى نظرت إليّ في إشفاق
وربتت على ظهري بينما أدخل الردهة. لعلّه الألم المحفور على وجهي هو
ما أثار إشفاقها، ولعلها كانت تعلم. نزل حامد بك من الطابق الأعلى،

وبنظرة واحدة إليّ أدرك ما قد وقع . احتضنتني في حنو وأمر ماريّا أن تعد لنا بعض القهوة .

جلستُ على أريكة كبيرة ، الأغلب أن إطارها الخشبي قد نُحِته ماركو بيديه ، وحكيتُ على جامد بك القصة بكاملها ، تماماً كما أحكيها لك ، يا امرأة يا حجرية . لم أخف شيئاً ، ولم أراع مشاعره . أنصت إليّ في صمت تام ، ثم قال : " طلعت البنت لأمها ، بالضبط . غادر الإسكندرية اليوم يا بُني ، واعتبر مريم ماتت . سوف يلزم بضعة أعوام ، لكنك ستبرأ . سأحرص على أن إنهاء جميع شئونك . لا أدري ماذا سيكون من أمر مريم ، لكنها ما زالت ابنتي وسوف أتكفل بعيشها . ربما ستعود للإقامة هنا مع طفليها . لا تدع هذا يشغلك بعد ذلك ، واعتبر نفسك حراً من أي مسؤوليات واصنع حياتك من جديد في مكان آخر ، يا سلمان باشا . " بعد أن قال هذا عانقني من جديد . كان في عينيه حزن بينما نفترق وغمغم ببضع كلمات كما لو كان يحدث نفسه تقريباً : " كيف لزوجة أمير أن تصير محظية لنجّار . ؟ "

تركت الإسكندرية في اليوم التالي على متن قارب متوجّهاً صوب الشرق . أمضيتُ عاماً في طوكيو ، والتي كانت شديدة الاختلاف عن عالمنا بحيث ألهمتني عن الألم والحزن اللذين خلّفتهما في الإسكندرية . للعقل قدرة على إقصاء غير المرغوب فيه من الأحوال إلى أشد تجاوبه سرية وخفاءً . لم أبرأ تماماً قط . أحياناً ما تعود إليّ ذكريات من تلك الأيام الأولى للسعادة منهمرة كالغيث ، لكنني أكافحها وأطردها بعيداً بأن أتذكر بشاعة الأسبوع الأخير أو بالكلمات القاسية التي شرعتها في وجهي لتفتك بجنبا .

كان عمي كمال أيضاً في ذلك الجانب من العالم، موسعاً من أسطوله التجاري، ومفتتحاً مكاتب جديدة في طوكيو وشنجهاي، وملتمساً السلوى بين أذرع عشيقاته العديداً. التقيت واحدةً منهم في طوكيو. فقد قرر أنه لا يجب أن يكون هناك أسرار بيننا وعرفني عليها. كانت حسناء، وفي الظاهر تبدو مذعنة خاضعة في الكيمونو الحريري الأحمر ذي النقوش البديعة.

أعدت وجبة من أجلنا، وقد أصبت بالذعر، بكل صراحة، حينما جلست متربعة معنا على الأرض، لكنها لم تمس طعامها حتى أطعمت عمي كمال بنفسها. أدت هذه المهمة بغاية الرقة والكياسة. ولم يهرب السمك قط من العصي الصغيرة وهي تغمسها في صلصة لذيذة ثم تضعها في فم عمي. فهتمتُ سر قضاائه كل هذا الوقت الطويل في الشرق. لم يكن يوماً سعيداً مع زوجته. كيف يمكن لهذا الرجل الوسيم الشغوف بمباهج الحياة وزينتها والمترع بحسية شبة أن يتخذ زوجةً بلا خصال مكافئة له؟ ولم يفهم قط حيرتي أمام اختياره لها، فكان يقول، بلمسة من غيظ، "أتظن أنني كنت لأوافق على الزواج إن لم تكن بائنتها كافية لتمويل شركتي للشحن؟ طالما عشقت السفن والبحار. وهكذا فقد قلتُ لنفسي إذا كان عليّ أن أتزوج هذه القزمية البشعة وأن ألقحها بنطفتي، فلا بد أن أتأكد أن وسائل الهرب متاحة على مقربة مني على الدوام. هناك أوقات يا سلمان، يُضطر فيها المر للتضحية بسعادة بعيدة من أجل مكسب قريب. الذي يضايق حقاً أن كل بناتي قد ورثن عن أمهن الشكل والحجم والغباء. سوف يتطلب ثلاث ثروات صغيرة، بائنة لكل منهن، لإزاحتهم من المنزل. أعني، يمكنك أن تتخيل أي شخص، وأعني بالفعل أي شخص، قد يميل قلبه إلى

أي واحدة منهن؟ المؤسف أنني أحب إسطنبول أكثر من أبيك ومن عمك الآخر. إسكندر يعشق باريس، ومحمد محبوب برلين. أنا ما زلتُ وفيًا لإسطنبولي، لكن جمال المدينة صار مرتبطًا في ذهني بذلك القبح الذي لا نهاية له والذي ينتظر ملاقاتي وتحيتي في داري. وهكذا فإنني أهرب، وكما ترى فأنا سعيد هنا. أفضل طوكيو على شنجهاي. هنا أستطيع أن أغمر نفسي في المناظر الطبيعية البديعة، أما شنجهاي فهي أكثر ضجيجًا وقذرة مما يحتمل، كما أنني لا أشعر بالأمان مطلقًا في شوارعها."

كنت أتوق لزيارة الصين، يا امرأة يا حجرية، لأسباب عديدة، غير أن عمي كمال اقترح عليّ أن أعود إلى إسطنبول. قال: "إنهم منشغلون عليك، يتصورون أنك لا تزال في مصر. أعتقد أنك بحاجة إليهم ولو قليلاً الآن. ليس بوسع العزلة أن تعينك أكثر من هذا. ويمكنك دائماً أن ترجع إليّ فيما بعد. لقد كنتَ مثل ابن لي على الدوام، ولكن الآن فقد صرنا صديقين أيضاً وهذه متعة نادرة في هذه المرحلة من عُمر المرء."

أخذت بنصيحته وعدتُ إلى إسطنبول، وكنتُ هناك حين أصيب أبي بجلطة فهرعت إلى هنا مع خليل. أتذكرين خليل حينما كان صبياً صغيراً؟ كله عفرته. من كان يتخيل أن يصبح جنرالاً؟

حين أتيتُ إلى هنا أول الأمر كانت أختنق في قبضة كآبة غالبية وعاجزاً عن التركيز في أي شيء، ولكن على الأقل تبددت الغيوم، يا امرأة يا حجرية. لم يسبق لي أن كنتُ قريباً من أبي إلى هذا الحد كما نحن الآن. أحب طفلي نيلوفر، وقريباً سأروي لها قصتي، لكي تعرف لماذا لا أتحدث عن "طفلي". أما عن الجنرال خليل باشا، فماذا عساي أن أقول؟ فهو

وحده، من بين الناس جميعاً، من استطاع أن يبعث فيّ من جديد حماس الشباب للسياسة والتاريخ. إننا على حافة تغيرات كبرى، يا امرأة يا حجرية. قد يصير كل شيء مختلفاً. حالة الجمود التي وسمت حياتنا دائماً قد تتبدد أمام موجة مد الإصلاح. في أوقات مثل تلك يمكن للمرء أن يدرك أن في الدنيا مباحج أخرى غير مسرّات الحب والالتحام بالمحبوب.

كل شيء سيتغير، يا امرأة يا حجرية، وسوف يتغير قريباً، لكنني أرجو أن تبقي دائماً لتهبي الراحة لهؤلاء ممن يصعب عليهم معالجة آلامهم في صمت.

(١٤)

نيلوفر يغلبها الشوق إلى سليم وتقرر الزواج منه؛
البارون يرفض مناقشته، كتاب ستاندال عن الحب

بلغ إسطنبول نبأ استعادة إسكندر باشا لصوته بمعجزة ما وأنه بوسعه
التكلم الآن دون عائق. فبدأت تتواتر إلى هنا الرسائل والخطابات من
أصدقاء ومسؤولين رسميين بوتيرة مزعجة. رأي البعض في تعافيه عمل
الرعاية الإلهية الخفية والقادرة على كل شيء، وآخرون شعروا بأنه فالٌ
قوي.

أرسل كبير الوزراء بنفسه رسولاً مخصوصاً منه برسالة تهنته لإسكندر
باشا على تعافيه ويدعوه، بالنيابة عن السلطان، لحضور حفل في القصر
بمجرد عودته إلى العاصمة. انتهت الرسالة بالجملة التالية: " لا أشط أنك
سوف تتسلى بأن تسمع أن النمساويين يواجهون مشكلات خطيرة في
صربيا. حينما أبلغتُ جلالته بذلك ابتسم وقال: (أعان الله هؤلاء الصرب
الكفرة على دحر جنود الإمبراطور فيعودوا إلى فيينا مقهورين.) أخبرته أن
هذا القول سوف يروق لك ويمتهدى الكرم سمح لي بأن أكرره عليك. "

بعد أن قرأنا جميعاً الرسالة بالتناول، نهض سلمان واقفاً وبدأ يحاكي خنوع الوزير ومذلته بصورة مبالغ فيها وبإيماءات فاحشة بدرجة طفيفة، شائعة بين متملقي ومداهني السلطات العليا، فيما يواصل طيلة الوقت تكرار العبارة الأخيرة المرة بعد الأخرى. شرع جميع الحاضرين في الضحك، باستثناء زينب. فقد كان زوجها يعمل في القصر سكرتيراً، وكان وفيّاً لسادته، كما افترض الجميع. حتى إذا كان يشمئز سراً مما يجري حوله فإنه لم يطلع زوجته على ذلك. صارت زينب أشدّ حذراً وقلقاً مما يدور في هذا المنزل. أعتقد أن هذا هو السبب وراء قرارها بالمغادرة فوراً إلى إسطنبول - أو لعلّه كانت تفتقد أطفالها ورأت أنه ما دام إسكندر باشا قد تعافى تماماً فلا داعي لبقائها أكثر من هذا.

سافرت في اليوم التالي بعد وداع حار. احتضنت خليل بمودة زائدة، وهمست في أذنه بكلمات تحذير ونصحة بتوخي الحرص في أي شيء يضطر إليه مهما كان. إن زينب، من بيننا جميعاً، الأسهل إرضاءً. كانت سعيدة بزوجها، الذي نراه كلنا بليداً مملأً إلى حد يفوق الاحتمال والذي كان صلعه المبكر مثار تسلية عظيمة لأبي. كانت سعيدة بأطفالها وبيتها، بل إنها كانت متسامحة مع حماتها، التي تعتبر على نطاق واسع إحدى أشد نساء إسطنبول ميلاً للأذى ونفث السموم. وشاع عنها أكاذيبها الكيدية في كل مكان حتى صار الناس في السوق الكبير يضربون المثل باسمها في الإفك والافتراء. ولكم كرهها أصحاب الحوانيت لأنها كانت تظل تساموم وتساموم لفترة طويلة بعد أن يكونوا قد خفضوا لها السعر لأدنى حد ممكن. حتى أخي خليل، أحلم الرجال وأرقهم، سُمع يقول إنه سوف يساهم بمبلغ سخّي لتكوين صرة نقود ثقيلة تُعطى لبضع قطاع الطرق من أجل أن يختطفوها

ويضيّعونها في ألبانيا . ما أصابه بالذعر وجلب السرور لأبي أن نبأ قوله هذا قد سرى في المدينة ، فتلقّى خليل ثلاثة خطابات من أئرى أصحاب الحوانيت يعرضون عليه دفع أي مبلغ من المال إذا كان سيضطلع بمسئولية إعداد عملية الاختطاف فعلياً . علمت زينب بهذا كله ، لكنها أثرت التحلي بصمت متحفظ يخالطه شيء من الحزن . كانت تعلم أنها لو انضمت إلينا لأصبحت الحياة في البيت غير محتمة . كان عليها أن تواجه هذه المرأة في كل يوم من أيام حياتها .

كنتُ منشغلة بهمومي الخاصة . فيما بدأ طفلاي يتجاوزان صدمة موت أبيهما ، بفضل حب أمي ، و خليل ، وأكثر منهما حتى أخي الحبيب سلمان ، صار ارتباطي بسليم عميقاً للغاية . لم يسبق لي من قبل أن عرفتُ شيئاً كهذا ومرت بي أوقات شعرتُ فيها بالخوف من حرارة العلاقة وفورتها . لستُ خائفةً منه ، بل من نفسي وكيف صرتُ معتمدة عليه . صرتُ أشتاقُ إلى حضوره ، وأحنُ إلى شغفه . كانت تمر أيام لا تتمكن فيها من اللقاء وأظل أفكر فيه طيلة الوقت . أحياناً ، لكي أؤكد لنفسي أنني أمسك بزمام الأمور ، كنتُ أهمله بقسوة تامة فتتخاصم . كان يستاء للغاية ويتجلى الكرب في تجهم وجهه . قد يبدو هذا قسوة من جانبي ، ولكن في بعض الأحيان كنتُ أفضل رؤيته حزينا على أن يكون سعيداً . كانت طريقتي الوحيدة لأؤكد سلطتي عليه . لا يمكنه بالمرّة أن يفهم أن المقصود من سلوكي هو أن أختبر نفسي وليس أن أختبره هو . هل أنا أحبه حقاً أم السر بيساطة في حضوره الحسي؟ كنتُ واثقة من أن حبه لي حقيقي ، رغم أنني لم أكن أعلم إلى أين قد يقودنا وإلى أي شيء سينتهي . لم أسبح قط في بحر حبٍ قبل ذلك وكنتُ مرعوبة من احتمال الغرق .

كان الطفلان وحدهما قادرين على تشتيت انتباهي، لا بدّ من أن أهبهما الحب والرعاية، وأن أضعهما في فراشيهما قبل النوم. في تلك اللحظات لم يكن لأي شيء آخر أهمية عندي. أورهان وأمينة أهم شيء في حياتي كلها. ولكن في الدقيقة ذاتها التي أتركهما فيها، يلجُ سليم إلى خاطري فوراً ويهيمنُ عليّ شوقي إليه.

لقد بقي هنا ثلاثة أسابيع بالفعل حتى الآن، وقد بدأ حسن بابا يتذمر ويعول، وقد وبّخه على إهمال صالونه في إسطنبول. وكان سليم يجادله بأن الطفلين تيتما حديثاً، وبأن أورهان، على الخصوص، بحاجة إلى رفقته. وكان هذا صحيحاً. صار أورهان شديد التعلّق بسليم وكان كلاهما يخرجان في نزعات طويلة كل يوم، فيما تهتم أُمي والخادمات بأمينة، فيصففن لها شعرها بأساليب عديدة مختلفة ثم يرينها المرأة ليحصلن على موافقتها. غير أن حسن بابا لم يقتنع وهدّد بأن يطلب من إسكندر باشا أن يأمر سليم بالعودة إلى إسطنبول.

أخبرني بهذا كله قبل بضع ليال. لم يشعر قط بأي خوف من انكشاف علاقتنا، لم يزعجه هذا الاحتمال بالمرّة. كانت الفكرة تضحكه ويقول لي إننا لو ضُبطنا في حالة تلبس، فلن يكون أمامي خيار آخر غير الزواج منه. لم أكن قد اقتنعت بعد أن هذا هو أفضل الحلول. فقد يكون رد فعل أورهان وأمينة سيئاً، وقد تبدي أمها رفضها. إن رومانسية فرار العاشقين معاً تبدأ في الذبول حين يكون في القصة أطفال صغار.

ماذا بوسعي أن أفعل في هذه الحالة؟ أعرف من تجربتي الشخصية مع ديميتري سيء الحظ، وكذلك من تجارب عدد من صاحباتي، أنه كثيراً ما

تلتهم نيران الشغف الهائلة نفسها بنفسها حتى تتبدد، أما الاثنان اللذان ظنا أنها حب عميق ودائم، فيجدان نفسيهما ذات يوم ولا شيء لديهما يمكن فعله أو قوله بعد أن استمتعا لفترة وجيزة بجسد أحدهما الآخر. وكم يقلقهما هذا الاكتشاف لأنهما طالما اعتقدا أن حبهما فريد وخاص، وأنهما ليسا كبقية الناس. وحينما يعترفان أخيراً أنه لم يتبق شيء، يفر كل منهما من الآخر ومن المكان الذي شهد مولد الحب، بأسرع ما يمكن لأي حوذي أن يحملهما في عربته بعيداً. وجميع الرسائل التي كتبت في وقت متأخر من الليل ولكن لم ترسل قط سيتم إحراقها على عجل. وإذا ما حدث، بعد مضي بعض السنين، أن تلاقت الوجوه بالمصادفة في زفاف أو جنازة أو متجر لشراء هدايا لأطفالهما أو لحبيب ما، فإن العاطفة الوحيدة التي يشعران بها هي الحرج.

أقول كل تلك الأمور لأقنع نفسي أنني هذه المرة يجب ألا أندفع إلى فعل أي شيء ومع ذلك فإني أعلم أن الأمر مختلف تماماً عما كان مع ديميتري، وأنتي لو دفعت سليم بعيداً فسأكون أعاقب نفسي لا أعاقبه هو. أشك في أنني يمكنني أن أشعر بمثل هذا الحب مع أي شخص آخر مرة أخرى. تمر بي أوقات أحرار فيها أمام ما بيديه من طمأنينة وهدوء إزاء وضعنا الراهن، فإن لديه أسئلة أخرى أهم عنده من حبنا، الغريب أنني وجدتُ هذا مطمئناً.

آخر مرة تضاجعنا ظل في فراشي بعد أن انتهينا، يناقش مخاطر القيام بتمرد عسكري ضد السلطان، إذا لم ينهض الناس العاديون للدفاع عن مصالحهم. لم أدر ماذا كان يقصد. نظرة الارتباك على وجهي أسكتته. أخذني بين ذراعيه في حنان وشرح لي مقصده. "يا نيلوفر، في عالمنا هذا

يوجد الأثرياء والفقراء . الفقراء كثيرون والأغنياء قليلون . ومصالحهما لم تلتق أبداً . كلٌ من الأثرياء والفقراء يرغبون في التخلص من السلطان ، ولكن ماذا سيحدث بعد أن ينجحوا؟ هل سنجد سلطاناً آخر سندعوه رئيساً ، ولكنه سيرتدي زياً رسمياً؟ أم سوف ننشيء حزباً كما لديهم في ألمانيا وفرنسا ليحارب من أجل الفقراء؟ "

لم يسبق لي قط أن فكّرت في مثل تلك الأمور ووجدتها مملة ، ولكن بالنسبة له كانت أشبه بمولدات جوفية للطاقة تشحن كل ذرة من بدنه بها .

ظلمتُ جالسةً لأكثر من ساعة بالخارج على الشرفة أراقب تقلب ألوان السماء ، بينما كان عقلي يدور في دوامة من الأفكار والاحتمالات . حينما غادرت زينب هذا الصباح بدأت السماء تمطر . حتى الآن ، ورغم أن السماء ظلت مغمّمة ، فإن شريطاً نحيلاً من الزرقة لاح في الأفق منذ الصباح وأخذ يتسع ويمتد مع مرور كل ساعة . بدأت السحب تتبدد الآن متخذة أشكالاً غريبة والشمس الغاربة عند حافة البحر تلون السحب بدرجات مختلفة من القرنفلي والأحمر والأرجواني . كان لذلك أثر حسيّ ، وفجأة جعلني هذا الجمال الطبيعي الفجّ أرغب في تقاسم حياتي مع سليم . وراحت الفكرة تزدادُ قوةً بالتدرّج ، حتى قمت لأبحث عن سلمان . وجدته يتمشى في القسم الأدنى من البستان ، حيث كانت توجد سلالم تفضي إلى البحر . كان هو أيضاً يتأملُ الغروب . لم أتريث للتفكير في الأمر . حكيتُ له قصة حبي بينما نسير صعوداً ونزولاً البستان المتدرج . لم يقاطعني ، ولا مرة واحدة ، بل انتظر حتى أنتهي من حكي كل شيء ، وهو ما فعلت ، بما في ذلك حقيقة أن سليم كثيراً ما يدخل المنزل بحثاً عن غرفتي وعن جسدي .

ابتسم سلمان وهو يضمني من كتفيّ. " أرى أنه من الخطر الاستمرار في الأمر بهذه الطريقة لوقت أطول. سأحدث إلى خليل لنرى إن كان صديقك الشاب يمكن أن ينضمّ إلى الجيش كضابط هذا الأسبوع. ثم سوف أتحدث إلى أبي نيابةً عنك ولا بدّ أن تخبري أمك في الوقت ذاته. أعتقد أننا بهذه العملية المزدوجة سوف نحرز نجاحاً سريعاً. ولكن أخبريني بشيء يا صغيرتي. هل أنت واثقة هذه المرة؟ "

أومأت. " عندما اختلينا أول مرة كان الأمر أشبه بصاعقة البرق تمر خلال جسدنا في الوقت ذاته. "

ضحك. " أنا أعرف شيئاً ما عن هذا البرق. لا بدّ ألا تدعيه يحرقك. وإياك أن تنسي أن تأثيره لا يكون مستديماً طوال الوقت. يأتي البرق بصور مختلفة وفي أوقات مختلفة. ويمكن ألا يصعقك أحياناً أيضاً. "

" أعرف ذلك ، أجبتّه. " ولكن معنا يصير أكثر شدة وعنفاً مع مرور كل يوم. ليس مجرد شغف عابر يا سلمان. إننا قريبان من نواح عديدة مختلفة، وهو مولع بسلمان حقاً. ثمّة توافق طبيعي فيما بيننا. أليس هذا شيئاً نادراً فعلاً؟ "

" نعم، هو كذلك، ولكن سيكون هناك توافق طبيعي وأنت لا تعرفين أي شيء عمّن يكون أغوست كونت؟ " قال يغيظني. " ربما عليك أن تغيّري عاداتك في القراءة. "

وعندئذ أطلعتني أخي على قصته. وحين انتهى رأى الدموع تنسال على وجنتي فضممني إليه.

" لقد توقفتُ عن البكاء منذ وقت طويل ، يا نيلوفر . ويجب ألا تبدأي أنت الآن . الحياة مفعمة بالألم والعناء ، ولكن دائماً ما يأتي الفرج . دائماً . ما إن يتوقف المرء عن الإيمان بهذا فقد قضى عليه بالهلاك . لقد كنتُ على حافة تدمير نفسي . بدا كل شيء مضيقاً غائماً ولم يعد بوسعي أن أرى خطوطاً واضحة لمستقبلي . كان حامد بك وعمي كمال هما من أنقذا حياتي . لا يسعني أبداً أن أرد لهما هذا الدين . والآن أنا في حالة من السلام مع نفسي وأنتظر في لهفة أن يتغير عالمنا . "

" ألا تفكر فيها بالمرّة؟ "

" كلا . "

" هذا يخيفني ، يا سلمان . كيف يمكن لهذا كله أن يتبدد هكذا بعد أن أحببتها ذات مرة حباً لا مزيد عليه؟ إذا كان الحب سريع الزوال ومؤقتاً إلى هذا الحد ، فأني أأمل يتبقى لنا؟ "

" لم يتبدد من تلقاء ذاته . لقد غرست خنجراً في قلبي . والحب نرف ببساطة حتى انتهى . تبقت الجروح لفترة طويلة ، ولكنها شفيت الآن . حينما أفكر في هذا الجزء من حياتي أشعر بالغضب من نفسي ، وليس منها . فإنني الذي أسأتُ الحكم عليها . تعلمين ، لدي ذلك الإحساس الغريب أنها كانت ستفعل الشيء ذاته حتى لو كان الأطفال من صليبي . كانت هناك مسحة من حب تعذيب الآخرين بداخلها . لا أتمنى لها أي أذى ، وبالطبع لهذين الطفلين المسكينين . الشخص الوحيد الذي أفتقده في الإسكندرية هو حامد بك . كم هو إنسان دمث وطيب ، وأتمنى أن يجد السكنينة الحقيقة أخيراً . لماذا يوجد في عالمنا كل هذا القدر من التعاسة؟ "

حينما يكون الإنسان سعيداً من المستحيل أن يجيب على أسئلة كتلك ،
فحركت الحوار نحو اتجاه آخر .

" سلمان ، هناك أمر آخر لا بد أن أسألك عنه . "

نظر إليّ وابتسم . " اليوم تم إعلانه يومَ انكشاف جميع الأسرار
العائلية ، فأسألي ما شئتِ وستسمعين مني الحقيقة تامة . "

" هل كنت تعلم بقصة أمي سارة؟ "

بدا على جبينه عبوسٌ قلق . " أعرف قصة أمك خديجة . "

" إنها القصة ذاتها . "

" لا أظن . "

" ولم؟ "

" لقد أحبّت سارة رجلاً آخر وقد هجرها . أمّا خديجة فهي أمك
وزوجة أبي . "

" أنت مخطئ ، يا سلمان . سارة هي أمي وخديجة هي زوجة أبيك . "

" لقد سمعت كل ذلك منذ سنين ، ولكن أبي أحبك كثيراً في
طفولتك ، فوَأدَ النميمة في مهدها . إحدى خادِمات والدَة خليل نشرت
شائعات مسيئةَ فصرفت من الخدمة . إن لم يكن إسكندر باشا راضياً لامتلاء
هذا المنزل بالحديث عنك وعن أبيك الحقيقي دون انقطاع ولكانت حياة أمك
بوَساً خالصاً . لكن ذلك لم يحدث قط . بدلاً من ذلك كنا محظوظين بأن
يكون في منزلنا طفلة جميلة وتبدو مختلفة للغاية . ما أحببناه جميعاً فيك كطفلة
كان شخصيتك القوية . أحياناً كنتُ أتمنى لو أن زينب تشبهك ولو قليلاً . "

إن تلك الفتاة تعلمت أن تعاني في صمت، وهو ما ليس طيباً لأي إنسان .
يكفي الحديث العائلي لهذا اليوم . سأذهب لأجد جنرالنا لمناقشة مستقبلك .
وعليك أن تذهبي فوراً إلى المكتبة وتدرسي بعضاً من كونت، فمن شأن هذا
أن يعزز سعادتك! "

كنا نضحك ونحن نتجه صوب المنزل . حط الظلام فجأة، غير أن
السحب قد تلاشت تماماً وأخذت النجوم تملأ سماء المساء . توقفنا لوهلة
أمام الباب وأخذنا نتأملها .

تنهدَ سلمان . " إن ذكرى واحدة فقط ستبقى معي على الدوام . حين
كنت أهربُ من الإسكندرية، متوجهاً إلى اليابان، بلغت سفينتنا خط
الاستواء . كانت ليلة دافئة، غير أن الوقت كان متأخراً للغاية وقد أويانا
جميعاً إلى مقصوراتنا . كان القبطان قد رأى المنظر مرات عدة، ولكن لا بدَّ
أنه كان هناك بعض الشعر يسكنُ روحه . أنزل المرساة وطلب منا الصعود
إلى سطح السفينة . لم يسبق لي في حياتي كلها قط أن رأيتُ السماء كما
كانت في تلك الليلة . كان الأمر حقاً كما لو أننا على حافة العالم . كانت
السماء مثل بحر من النجوم وكانت النجوم تتقلب وتتدرج من ورائنا
بسرعة لا تُصدق . أدركتُ عندئذ أن جراحي ستشفى . مقارنةً بالكون
الفسيح لا تُعد عواطفنا شيئاً مذكوراً . "

بعد بضع دقائق، وبمفردي، تأملتُ مأساة سلمان . كانت لها بعض
الجوانب ستظل تستحوذ على أفكارى لوقت طويل . انقلب كلُّ شيء في
حياته على غير ما يرجو، ومع ذلك، ورغم حزنه، فقد استرد حياته . وقد
عاد ليكون ذلك الشخص العطوف والكريم الذي عرفته في طفولتي . ماتت

أمه وهي تلده، ولم يكن بمقدوره أن يمنح زوجته أطفالاً. أكانت بذرته هي العقيمة أم ثمة شيء آخر، شيء دفين في أعماقه، أرغمه على التراجع؟ هل داخله الخوف من أن المرأة التي أحبها قد تموت هي أيضاً في أثناء الولادة؟ شعرتُ بالقنوط لحاله. تمنيتُ أن يلتقي بامرأة ما قد تجلب إلى حياة السعادة الحقة. أردته أن يحظى ولو بطفل واحد من صلبه. لم أحب فكرة أن يتقدم العمر بأخي الأعز سلمان فيصير عجوزاً ووحيداً. ثمة حدود للعزلة. ربما كنتُ مخطئة. ربما لا يريد رفقةً مستقرة ودائمة. ربما يودُّ أن يسير على نهج العم كمال ويبقى مرتحلاً ما تبقى له من العمر، روحاً حرة، يجد العزاء والسلوى حيثما أتيج له دون أن يشغل البال بماضٍ أو مستقبل.

بعد أن صار الطفلان آمنين في فراشيهما، ذهبتُ إلى غرفة أمي. أبلغتها بقراري بالزواج من سليم. لم يمس النبأ سكينتها.

"كنت أعرف أن هذا سيحدث. أرجو أن تكون هذه المرة أفضل لك، رغم أنك ما زلت صغيرة وقد تحظين بفرصة ثالثة."

حينما أدركتُ أنها جادة اندفعتُ في الضحك. "أقدر أن ثقتك بحكمي على الأمور قد اهتزت، يا أمي، ولكن أرجو أن تثقي فيّ ولو قليلاً. لن ألدغ من نفس الجحر مرتين. لقد فكرت في الأمر بجرص وطرحتُ على نفسي أشد الأسئلة فحسباً وتدقيقاً. لا أنجرف في هذا وأنا أسبح في غشية، رأسي وأفكاري صافية تماماً. أعرف أنني سأحظى بالسعادة مع سليم. أعرف هذا وحسب يا أمي. وأنا على ثقة هذه المرة."

"أرجو ذلك يا بُنتي. أنت لست بمفردك. هناك طفلان تتعلق حياتهما بقرارك. لا أريدك أن تكوني مثل الجمال الذي ذهب مطالباً بقرنين على رأسه وعاد بدلاً منهما وقد قطعت أذناه."

لم يسبق لي أن سمعتُ سارة تتحدث هكذا من قبل . " من أين أتيتِ بهذا، بحق الله؟ "

" اعتاد جدي أن يستعين بهذا المثل كثيراً جداً حين كانت أمي طفلة . كان عالماً تلمودياً وكثيراً ما يتحدث بهذه اللغة . لطالما ظهر ذلك الجمل في الحديث لمنع خالي من المجازفات المالية فيكتشف أن ماله قد نفذ . لم يجر الأمر على هذا النحو قط ، بالطبع . كان خالي سفره أحد أثري رجال البنوك الخاصة في أوروبا ، وكثيراً ما اقترض منه السلطان المال . "

" إذن فلن يبقى ثرياً لوقت أطول يا أمي . الأفضل أن تحذريه أن يسترد ماله وأن ينتقل إلى باريس أو نيويورك . "

" لماذا تقولين هذا الكلام؟ ليس هذا من شأني . والآن قول لي يا نيلوفر ، هل ستحدثين إلى إسكندر باشا عن سليم أم أفعل أنا؟ "

" إسكندر باشا عرف بالفعل وها هو قد أتى لكي يمنح بركته . " دخل أبي الغرفة ، وعلى وجهه ابتسامة كبيرة . احتضنني وقبّل وجنتي . " هذه المرة اتخذت قراراً جيداً . "

سألت أمي : " هل أنت واثق يا إسكندر؟ على الأقل كان اليوناني معلم مدرسة . "

ضحك إسكندر باشا . " سيكون لهذا الفتى شأن كبير ، فقط إذا تعلم أن يمسك لسانه وألاً يتوقع أن يسقط القمر في حجره بين عشية وضحاها . أنا مسرور بكل تأكيد . حسن بابا أحد أفراد الأسرة تقريباً ، وكما تعلمين ، كان مقرباً مني لسنوات عديدة . عندما بلغه الخبر بكى من الفرح . يا نيلوفر ، لا

بد من فضلك أن تنزلي للطابق الأسفل. إن أخواك يستجوبان سليم، والبارون ومحمد بدأ بالفعل الاحتفال بزجاجة أخرى وابتظرانك لتهنئتك. أحتاج للحديث مع أمك على انفراد."

كان الحديث محتدماً حين وصلت المكتبة، ولكن دخولي جمدهم جميعاً. نهض البارون ورفع نخبي أنا وسليم. اقترب حسن بابا وقبل رأسي. لف خليل ذراعيه من حوله وهمس لي.

"على الأقل ستكون جميعاً حاضرين هذه المرة."

لوّح سلمان من الركن. بدا على سليم الحرج البالغ وتجنبت عيناه عيني. إن سلوكه المبالغ في الثقة بنفسه قد تبدد مؤقتاً. لقد فاجأته. لم يصدق حقاً أنني سوف أتخذ هذه الوثبة بهذه السرعة. الآن صار في مواجهة القرار الذي اتخذته. كان البارون هو أول من تحدّث.

"عزيزتي نيلوفر، كنا نناقش موعد زواجكما. وثمة اختلاف كبير في الآراء حول هذا الموضوع وثار جدال عنيف قبل أن تظهر في المشهد مثل إحدى ربّات الإغريق. رأي محمد يميل إلى أكتوبر، كما يقول، وهو ما أتفق فيه معه، فهو شهر جميل في إسطنبول. سلمان لا يبالي. أما خليل فيفضل سبتمبر بما أن لديه مناورات عسكرية في شهر أكتوبر ويفترض بالطبع أن هذا الضابط المعاون الجديد سيكون إلى جانبه. فماذا تفضلين؟"

افترضتُ أنه ستكون هناك صعوبات عديدة لا بد من التفاوض حولها قبل الزفاف، ولهذا السبب لم أفكر في تحديد موعد. قررتُ أن أباغتهم جميعاً، بما في ذلك نفسي.

" ولم لا يكون مساء الغد في هذه الغرفة ذاتها؟ سأخبر الطفلين في الصباح. "

ابتسم العم محمد. " رائع. فعلى الأقل عندئذ، لن يُقلَق منامي في عز الليل كل يوم بينما يتسلل فتى مُستعر على أطراف أصابعه صاعداً إلى غرفة نومك. لتكن الليلة راحة وغداً نرقص ونغني. "

شعرتُ بأن وجهي يتضرج بالحمرة فنظرت في المرآة الكبيرة لأتأكد أن هذا هو حالي حقاً. كان البارون ومحمد على علم طوال الوقت. لا يهم مدى ضخامة المنزل، فلا يمكن الاحتفاظ فيه بالأسرار. كان سليم يقف بالقرب من النافذة. وإذ وقفت بجانبه تبادلنا النظرات وضحكنا. قاطع صوت العم محمد لحظتنا الصغيرة من الخصوصية.

" هل سبقَ وأن قرأت كتاب ستاندال (عن الحب)، أيها البارون؟ "

فقال البارون: " لا، ولا أنوي أن أقرأه. ويذهلني أنك قد أضعت وقتك على ستاندال. لقد كتبَ أكثر من اللازم وبسرعة أكثر مما يجب. كانت كتبه ممنوعة من دخول منزلنا في برلين. كان الروائيان الفرنسيان الوحيدان المسموح بهما في مكتبتنا هما بلزاك وفلوبير، ومن الاثنتين كان فلوبير هو العبقرى الحقيقي. "

تساءل سلمان: " وماذا عن رامبو وفيرلين، أيها البارون؟ أكان مسموحاً بهما في مكتبتكم؟ "

" كنتُ أتحدث عن الروائيين يا سلمان باشا، أوحث نبرة البارون بأنه اليوم ليس في مزاج مواتٍ للبحث معه. " وبالطبع كان الشاعران اللذان

ذكرتهما موجودين ، ولكنني أجد فيرلين أشد زخرفة مما يلائم ذائقتي . لقد أنتج الرومانسيون الإنجليز ، مثل شيلي وكيثس ، شعراً أفضل كثيراً . اعذر تحيز رجل عجوز يا سلمان ، ولكن نحن الألمان مددلون لدرجة رهيبه . فبعده جوته وشيلر وهولدرن وهابنه من العسير علينا أن نأخذ أي شويعر فرنسي مأخذ الجد . هناك بوشكين ، بالطبع ، وهو مسألة مختلفة تماماً ، رغم أنني أتساءل أحياناً كم من الموسيقى في شعره موروثه عن أسلافه الأفارقة وكم منه مُستهلم من الظلام البدائي اللعين الذين يُسمونه روسيا . "

قبل أن نتمكن من مناقشة استبعاد ستاندال من مكتبة البارون في برلين ، دخل إسكندر باشا الغرفة ليسأل إن كنا قد حددنا موعداً للزفاف . وكم تفكّه باقتراحنا أن يتم الحدث في اليوم التالي مباشرةً . عندما أدرك جديتنا احتفظ بوقاره والتفت نحو حسن بابا .

" هل نحتاج إلى لحيه ما لأداء هذه المهمة أم تستطيع أن تدبرك أمرك بمفردك يا حسن؟ أشك أن أياً من الحاضرين يحفظ العبارات والأدعية الخاصة بمناسبة كهذه . "

تكلم وجه حسن بالابتسامات . " أنت تعلم مثلما أعلم تماماً أنه لا قساوسة ولا رهبان في ديننا . والحقيقة أن بوسعهما الزواج دونما أية طقوس مما استحدث في الزمان القريب ، لقد اخترعت تلك الأمور بحيث يمكننا أن ننافس المسيحيين . فإن كان عندهم قساوسة لا بد أن يكون عندنا مثل ما عندهم . لا شقاق في عقيدتنا بين أمور الروح وأمور الدنيا . "

قال خليل : " كانت تلك مسألة خلافية كبيرة . "

" لا أريد مناظرة حول مسائل دينية هذه الليلة " ، هكذا قاطعه إسكندر باشا على الفور لكي يتد النقاش . " كل ما أريد معرفته من سيقوم بأداء طقوس الزواج ، إنها مسألة عملية . إذا كنا بحاجة إلى ذي حية فسيكون علينا أن نبعث رسولاً الليلة . "

قال حسن بابا : " سأزوّج هذين الصغيرين ، وبما أن لدينا شاهدين موثوقين فأنا لست بحاجة إلى شيء آخر . أقترح أن يكونا إسكندر باشا والجنرال خليل باشا هما الشاهدين . سيفي هذا بالغرض . "

ركضتُ لأخبر سارة بأننا اتفقنا على اليوم والوقت ، لكنها كانت قد استغرقت في النوم من قبل وراحت تغط بركة . ذهبتُ إلى غرفتي مضطربة المزاج قليلاً . كنتُ واثقةً من سليم ، ورغم ذلك كان ما زال هناك ما يضايقني . لماذا؟ لا بدّ أن أكون مبتهجة ، أترنم بأنغام نشوة لا نهائية ، مثل الطيور الشهيرة في شعر الصوفيين . يجري كل شيء بما توافق مع رغباتي . كنتُ متحيرة لأن أياً منهم لم يعترض على أصل سليم وشجرة عائلته . قبل عشر سنوات كانت ستصدر الفرمانات ، ولكانت الأعين المزدرية حطّت عليّ عبر مائدة الإفطار تتهمني بتلويث عائلتنا بالزواج من حلاقٍ ظلت عائلته تقص شعر عائلتنا لقرون . ما الذي بدّلهم جميعاً؟ هل ألاتهم تجارب الحياة ومرور الوقت - أم كان أمراً أكبر من كل تجربة فردية؟ أكان ذلك هو الانهيار الوشيك للامبراطورية والحضارة العثمانية التي ظللنا جزءاً منها لزمنا طويل للغاية ومن دونها سوف تبتلعنا دوامة من الظنون والالتباسات؟

أدركتُ الآن أن السهولة التي وافقت بها عائلتي على الارتباط هي سبب اضطرابي . ومهما كان السبب فقد كنتُ سعيدة وقد تبدل مزاجي .

كنتُ أتطلع من النافذة في شروق خفيف عندما أحسستُ بيدين رقيقتين تمسكان بنهديّ. صرخت فغطتُ أليداني فمي .

"سليم!"

"أكنتُ تظنّين أنني سيغلبنني التأثير بالعواطف بحيث أبقى بعيداً عنك الليلة؟"
"نعم."

"طيب، كنتُ مخطئة. فهل يسرك أنك كنتُ مخطئة؟"

"نعم. ولكنّ قبل أن تنضو عنك ثيابك أريد أن أعرف لماذا وافقت على الالتحاق بالجيش؟"

"لأيسّر الأمر على الجميع. يمكنهم القول إن نيلوفر قد تزوجت من ضابط تحت إمرة خليل. لهذا وقع أفضل من القول: (تزوج نيلوفر من حفيد الحلاق. نعم، وهو أيضاً حلاق وسيكون هذا ملائماً لنا للغاية، فمن الآن لن نحتاج إلى غريب ليؤدي عمليات الختان."

لم أستطع منع نفسي من الضحك، لأنه كان يحاكي صوت أُمي بإتقان تام، لكنني كنتُ أعرف بغريزتي أن هذه المزحة كان الغرض منها التموه على الحقيقة. لم يكن له أن يوافق على الالتحاق بالجيش لمجرد أن يحفظ كبرياء أسرنا. على العكس، كان يمكنه أن يستخدم تلك الكلمات ذاتها التي وضعها على لسان أُمي كلما كنا برفقة أحدهم فقط ليصدم مشاعرهم الحساسة.

"لا أصدقك يا سليم. أريد الحقيقة."

"يخطط الضباط لإزاحة السلطان، وحاشيته وبلاطه ورجال دينه وجميع ما لهم من مزايا، ومن يدري ما الذي سيسقط أيضاً حينما نُسقط

عرشه؟ ليس لدينا في بلدنا حزب سياسي مثل الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني أو الحزب الاشتراكي الفرنسي. ربما لن نحظى أبداً بمثل هذا الحزب، ولكن حتى يخرج حزبٌ ما إلى الوجود فإن الجيش هو المكان المناسب لي. "

صحتُ به: ولكن يا سليم، ماذا لو نشبت الحرب؟ قد تُقتل! "

ضحك: "إننا أضعف وأفقر من الدخول في حرب غبية، لن نحارب ضد الأعداء الأجبيين. إذا هاجمونا سوف نستسلم بهدوء وبسرعة. الحرب التي نخطط لها هي حرب ضد التقاليد والأفكار الظلامية في الداخل. لو استطعنا التخلص منها يمكننا عندئذ أن نشيّد قوانا من جديد. "

ارتاح بالي. لو أنه قد وافق خليل لمجرد أن يسعدني ويرضي أهلي لانتبأته نعمة ومرارة آجلاً أو عاجلاً. كان القرار قراره والمبررات تخصه وحده.

"الآن يمكنك أن تنضو عنك ثيابك لناوي إلى الفراش. "

فعل كما طلبت.

همس لي وهو يحيطني بذراعيه: "نيلوفر، غداً يوم له أهميته في حياة كل منا وأظن أن علينا الامتناع عن تغذية أهوائنا الليلية. فلنكتف بالرقاد هكذا لبعض الوقت ونلحم. ثم سأغادر حتى نستطيع كلانا أن ننام نوماً هنيئاً هذه الليلة. فما رأيك؟ "

وضعتُ يدي بين ساقيه وأحسستُ بصديق قديم ينهض ويقوم. "أخشى يا سليم أن عقلك غير قادر على التحكم بجسّدك. وهو أمر ليس في صالح ضابط شاب. "

شرح يضحك بينما سعت شفتاه نحو حلمتي صدري وأنا أعتليه.

(١٥)

نيلوفر ترسل سليم ليصفي أفكاره بالتحدث إلى المرأة
الحجرية؛ وتدهشه التجربة

(اسمي سليم، يا امرأة يا حجرية. أنا زوج نيلوفر الجديد وقد أرسلتني إلى هنا لأقابلك. حكّت لي عنك، عن الأسرار التي تحسبها، وعن تأثيرك على الناس، بمن فيهم بعض الأشخاص شديدي التحفظ إلى حد أنهم غير مدركين لمشكلاتهم. هل صحيح أن هذا المكان ظلّ لمئات السنوات مقصوراً على النساء فقط؟ ترى لماذا؟)

أعلم أننا نعيش في زمن لا يحظى فيه أحد بالأمان أو اليقين بشأن المستقبل، والرجال أيضاً بحاجة لأن يبسطوا مشكلاتهم وهمومهم. هكذا كان الحال في القرية التي وُلد فيها أبي. يتحدّث حسن بابا عن الأيام الخوالي في قريتنا، وكيف كان الرجال، في عشيات الشتاء، يجتمعون كل أسبوع ويجلسون في حلقة، وقد أحكموا لف أكتافهم ببطانيات، وأخذوا يدفنون أيديهم أمام النار بينما يفضون بمشكلاتهم لبعضهم بعضها ويتظنون أن يقدم لهم شخصٌ ما النصح الرشيد. في تلك التجمّعات، نادراً ما تداولوا

مسائل غلالهم أو نقص المياه في القرية أو جباة الضرائب الجشعين، ممن كانوا يصرّون أن يستولوا بدلاً من النقود على سلع أخرى، بما في ذلك الفتيات. لم تكن تلك مشكلات خاصة، بل كانت جزءاً من حياتهم اليومية.

كانت حلقات الشتاء تلك مخصصة لتناول مشكلات شخصية والرجال الأصغر سناً، الأشد حياءً من التحدّث ذات شتاء، قد يتجرّؤون رغم ذلك على الإفشاء بما لديهم بعد سنوات قليلة. يقول حسن بابا إنه لم يكن هناك موضوعات محظورة لأي سبب إلا أقل القليل.

كان أهل القرية خليطاً من الأرمن والأكراد، رغم أننا الترك كنا الغالبة. كان الأرمن يحظون ببعض أفضل الأراضي الزراعية، وفي العام الماضي، أحرق الأكراد بيوتهم وطردوهم خارج القرية، غير أن أحداً لم يُقتل والحمد لله. بعد طرد الأرمن انتهت عادة السهرات الشتوية بين الرجال. يقول جدي إن ما حدّث قد مرّق التآزر والتضامن بين أهل القرية وهؤلاء الذين بقوا لم يعد بوسعهم النظر في أعين بعضهم بعضاً. لقد اقترفوا شيئاً شنيعاً للغاية في حق رفاقهم من البشر، بحيث صار من العسير عليهم التظاهر أنهم يستطيعون حل مشكلات بعضهم البعض.

يدهشني أن يأتي أي شخص إلى هنا من الأساس يا امرأة يا حجرية. من بعيد تبدو صورتك مثل بقايا لإلهة وثنية، ولكن من موضع جلوسي هذا لست سوى صخرة عملاقة، كما أنه من غير المريح الجلوس على هذا الحجر. لا بد أن مئات المؤخرات اللينة وحسنة الحشو والتنجيد قد استقرت في هذا الموضع ذاته لسنوات عديدة. كان لا بدّ أن يعلن هذا الحجر وثيراً زلقاً ناعماً. ليس سهلاً عليّ أن أتحدّث إلى حجر. لم أجد ضرورة لذلك

قط، ولكن نيلوفر أرادت أن تشاركني إياك. الشيء الوحيد الذي لن أناقشه مع صديق مقرب أو مع جدي هو العلاقة الحميمة بيني وبين نيلوفر. هذا هو سرنا العزيز الغالي، وهو شيء جميل للغاية، حدّ أننا نناقشه بيننا كل يوم. وإذا حدث لسبب أو لآخر أنني لم أستطع أن أطلعها على بعض أشياء محددة، أرى أنك ستكوين ذات نفعٍ عندئذٍ، ولكن ليس الآن.

ثمة مشكلة واحدة صغيرة. لقد فوجئ أورهان الصغير حينما أخبرته نيلوفر بأمرنا وخلال الأيام القليلة الأولى بعد مراسم الزواج، صار مجافياً ومنعزلاً تماماً. رفض أن يتحدث إليّ أو أن يذهب معي في جولة سير على الجروف كما فعلنا كثيراً خلال النهار. إنه يتحسن الآن وأنا واثق أنه سيكون بخير. لا يعد سلوكه غير طبيعي. ما من طفل يود أن يرى شخصاً آخر يحل محل أبيه، حتى ولو كان أبوه متوفى. وإذا كان الأب حياً ويسوم زوجته وأطفاله سوء العذاب، يبقى من الصعب عدم الشعور بالولاء نحوه. حين كنتُ في مثل سن أورهان، كنتُ أسمع أبي أحياناً وهو يضربُ أمي، كنتُ أضع أصبعي في أذني لأطمس صرخاتها.

ذات يوم عدتُ إلى البيت على غير انتظار ووجدتُ أمي تضاجع رجلاً غريباً. حتى رغم علمي أن أبي كان رجلاً قاسياً، بقيت ساخطاً من وجود هذا الرجل. حينما غادر، انتابني غضب عارم نحو أمي. أسأتُ إليها فذرفت دموع الغيظ والغضب. كان وجه أمي مفعماً بالذعر. فكّرت أنني قد أخبر أبي. قالت إنني لو أخبرت أبي بأي شيء مما رأيت فليسوف يقتلها دونما شفقة. أرهبتني بخوفها.

صدّقتها، يا امرأة يا حجرية. كان أبي يزعم الإيمان بالفلسفة الصوفية، وكان بلا شك يتعاطى المخدرات، وينشد الأغنيات ويرقص طوال الليل،

ولكن هذا لم يؤثر قط على طبيعته الداخلية . ربما كان درويشاً ، غير أنه كان أيضاً رجلاً جاهلاً وعديم الرحمة . ربما ساءني أن أرى أمي مع رجل آخر ، لكن هذا لم يدفعني لحب أبي . بطبيعة الحال ، بقيت صامتاً وحتى يومنا هذا لم أفصح بهذه الحادثة لأي إنسان . لماذا أخبرتك ؟

في ذلك الحين أخذني أبي بعيداً عن والديّ ، برضائهما ، وبدأ يعلمني مجدية . تعلمت القراءة والكتابة ثم بدأت أنتظم في المدرسة . لم أر والديّ منذ ذلك الحين . مرت ثماني عشر سنة ولم يبديا أهون اهتمام بي . أعتبر حسن بابا هو أمي وأبي .

شيء واحد يقلقني ، يا امرأة يا حجرية . حين يعرف والدي بأمر زواجي من ابنة إسكندر باشا ، ربما يقرر استغلال ذلك لمصلحته . يمكنه أن يأتي إلى المنزل بحجة إبداء احتراماته ورؤية زوجة ابنه الجديدة ، ولكن في الحقيقة ، لكي يطلب مالاً . لم أذكر هذا لنيلوفر . ستضحك وتعتبرها مسألة بلا أهمية . لا بد أن تفهمي أنني لست خجلاً من فقر أبي ، بل من شخصه . إنه لمخلوق مثير للاشمئزاز وشريبر ولا أود أن يأتي إلى هذا المنزل أو يزورنا في إسطنبول . ذكرتُ هذا لحسن بابا . يزعجه الأمر هو أيضاً ، ولكنه الآن عجوز بلا حول ولا قوة . لم ينصحني بشيء ، ولكنه هزّ رأسه في يأس متطلعاً نحو السماء .

أعتقد أنني سأذكر أمي أبي لنيلوفر وأمها ، فقط تحسباً لمجيء هذا الرزيل في أثناء غيابي بعيداً عن العاصمة برفقة الجنرال خليل . في حالة إفاقة مما يتعاطاه قد يبدو بمظهر شخص طبيعي ، بل ساحر ، ولكن لا بدّ لهما من الاحتراس منه .

سأمضي الآن ، يا امرأة يا حجرية . إنني مندهش من أن زيارتي لك لم تذهب هباءً . لقد أفضيت لك بسرٍ وكان هذا عوناً لي . سيسر هذا فؤاد نيلوفر .

(١٦)

اجتماع لجنة الاتحاد والترقي لمناقشة مؤامرة للإطاحة بالسلطان؛
والبارون يكتشف وجود جاسوس؛
ونيلوفر تفضل أن تكون عثمانية على أن تكون تركية.

كُنَّا قد اعتدنا صحبة بعضنا البعض خلال الأسابيع القليلة الماضية بحيث أنني شعرتُ بدرجة طفيفة من الذهول عندما لاحظتُ أول الأمر ارتفاع الغبار في البعيد. كان من المُنتظر وصول هؤلاء الرجال على متون جيادهم والمتوجهين نحونا الآن، كان كلُّ من خليل وسليم يتوقعون مجيئهم بمزيج من الحماس والترقب. هرعت لأبلغهما باقتراب ضيوفهم ومضى ثلاثتاً إلى الشرفة الأمامية لرؤية قدومهم.

ضمّت العربة اثنين برتبة الجنرال، كان أحدهما قصير القامة للغاية. أما الضباط الشبان الأربعة، وكان أحدهم أصغر سنّاً بكثير من سليم، فقد كانوا يمتطون الجياد. قفزوا من فوق جيادهم واندفعوا لأداء التحية لخليل. ثم نزل أخي الدرج لاستقبال زميله الجنرالين. حيّوا أحدهم الآخر وضحكوا، ولكن تحت سطح هذا كله، فحتى أنا البعيدة كل البعد عن

المؤامرات السياسية، استطعتُ أن ألس شيئاً من التوتر. تم تقديم سليم للوافدين، رغم الحرص على عدم ذكر أية أسماء كما لاحظت. قدتهم إلى داخل المنزل ثم إلى غرفة الطعام حيث كان الإفطار بانتظارهم. أصرّ خليل على تحريّ السرية التامة، فلم يثق في أحد سوى بتروشيان وحده لكي يخدم مائدتهم. لم يرغب أخي في التصريح بهوية الضباط لأي شخص على الإطلاق. انزعج البارون ومحمد لاستبعادهم، لكنهما تقبلا القرار على مضض.

وأنا أيضاً كنتُ على وشك مغادرة الغرفة حين استوقفني أحد الضباط، الأصغر سنّاً بينهم.

"أهي أختك يا جنرال خليل؟"

أوماً أخي. "نعم وهي زوجة صديقنا الجديد."

فتساءل الضابط نفسه: "أهي في صفنا؟"

نظرتُ في عينيه مباشرةً، وقلت: "نعم."

"جيد"، قال بصوت عميق وبالغ الجدية. "إذن فلا بدّ أن تبقي معنا. إننا نرغب في إنهاء هذا الوضع الذي لا يرى في النساء منفعة بعيداً عن شئون القلب والمنزل، أو في الحقيقة، لأغراض التكاثر. نريد أن يكنّ هنّ أيضاً ملمات بتدبير شئون الدولة. نريد أن نوقف تشجيعهن على الانشغال بالأنشطة التافهة التي ابتكرنها لإلهاء أنفسهن بينما نكون نحن في أعمالنا. السبب الوحيد وراء عدم وجود زوجتي معنا هنا هو أن أباهما مريض جداً. فهل نحن متفقون؟"

ابتسم الآخرون وأومأوا. حدثتُ نفسي قائلة ما أغرب أن يستطيع هذا الشاب ذو الوجه البهي والشارب الرفيع التحدث بكل هذا القدر من السُلطة في حضرة ثلاثة جنرالات. من أين يستمد ثقته هذه؟

كان النقاش على مائدة الإفطار محدوداً ومكبوحاً، واصلوا الإشارة إلى اللجئة، وقد ظننتُ في البداية أنها اسم حركي لزعيمهم، ولكن سرعان ما صار واضحاً أن اللجئة ليست إلا جمعية سرية ينتمون إليها جميعهم. شعرتُ بالغضب لأن سليم لم يأت على ذكرها أمامي من قبل، وبما أن الضابط الشاب قد صنع كل هذه الجلبة من أجل إصراره على وجودي معهم فقد شعرتُ بأن صوتي يجب أن يُسمع مرة أخرى.

"أرجو معذرتكم أيها السادة، ولكن ما هي اللجئة؟"

تطلع الضابط الشاب نحو سليم وخليل في نظرة إنكار. "ألم يخبرها أيُّ منكما؟"

اكتسى كلا الرجلين بالخجل والارتباك وتجنبنا النظر إلى عيني.

قال الضابط: "اللجئة يا سيدتي، هو اسم أضخم جمعية سرية تم تكوينها على الإطلاق في كل تاريخ هذه الإمبراطورية. إنها لجنة الاتحاد والترقي التي ننتمي إليها جميعاً. إنها سرية، غير أنهم يعلمون بوجودنا وجواسيسهم في كل مكان. وهي ليست قاصرة على العسكريين، رغم أننا تشكل النسبة الأعظم في صفوفها، فهناك أيضاً أعضاء كثيرين من الكتاب وموظفي الدولة. كما أن بعض أفضل رجالنا يعملون من باريس وسالونيكَا، وأحد ملهيمينا الكاتب نامق كمال، الذي لعلك شاهدت أو

قرأت مسرحية فاتان . بعد اليوم ، وإن وافقت على أهدافنا ، فسوف ندعوك للانضمام إلى اللجنة . تعد زوجتي عضوة نشطة للغاية في إسطنبول ، إنها تدرس في ثانوية جالاتساراي وتنظم صفوف النساء الأخريات من تجمعهم الأفكار ذاتها . "

أخبرتهم أنني أشرف بهذه الدعوة للانضمام إليهم وأنهم سيتلقون جواباً مني بحلول المساء . كان من أجب هو الجنرال الأكبر سنّاً بين الاثنين ، والذي ردّ بصوت ناعم وأثوي إلى حد جعلني أتساءل في نفسي ما إذا كان قد تعرّض للخصي في حادثة ما . بخلاف زميله لم يكن من الجنرالات الموحين بالفخر والجلال بطبيعتهم ، فقد كان قصير القامة وحليق اللحية وله كرش مجحم يسترعي الانتباه . وجدتُ في نفسي ميلاً إليه لأنه كان مختلفاً عن الضباط الآخرين ، ولكن لا بدّ أن شيئاً سيئاً للغاية قد حدث في مرحلة ما من حياته . تحدّث بصوت رفيع حاد كأنه صوت فتاة صغيرة وكان لهذا تأثير مُربك بكل وضوح . وجدتُ صعوبة بالغة في الاحتفاظ بوجه جاد بينما كان يتحدث .

"إننا مسرورون لتعرفنا بك . لا بدّ لنا الآن أن ننفرد ببعضنا البعض لمناقشة تفاصيل إجرائية محددة في حالة وقوع أي أمر طارئ غير متوقع ، يضطرنا إلى التحرك دون أن نملك رفاهية استشارة الأعضاء الآخرين . بكل أسف هذا الحديث مقصور على العسكريين ، ولكن سنكون قد انتهينا منه ولا بدّ قبل موعد الغداء وسوف يسعدنا أن تتضمني إلينا بعد الظهر . "

ابتسمت وغادرت الغرفة . في الخارج بالحديقة تنفستُ بارتياح عميق ، وجلستُ على الأريكة وشرعتُ أضحك . لم أنتبه أن عمي محمد قد اتخذ

مجلسه بارتياح على مقعده المفضل أسفل شجرة الجوز. كان مستغرقاً في قراءة كتاب ما وانزعج عابساً أول ما سمع صوت ضحكاتي، غير أنه ابتسم عندما لاحظ أن المتطفل لم يكن سواي. استدعاني بإشارة آمرة بإصبعه. البارون، والذي لم يكن قط أبعد من اللازم عن العم محمد، ظهر فجأة من الجانب الآخر للشجرة، ضابطاً نظارته التي تثبت على الأنف.

"أطلعي عمك المفضل على مزحتك."

شرحت سبب ضحككي لعمي محمد فانضم إلي بقهقهته المعدية، ما جعلني أضحك أكثر. نظرت إلى البارون، وأنا أتوقع تماماً محاضرة موجزة حول الصوت البشري والظروف التي تؤدي إلى تغييره أو عدم تغييره، ولكنه صار فجأة شارد اللب للغاية واستغرق في أفكاره.

تساءل محمد، "بارون؟" قلقاً من مسلك صاحبه.

"مرّت بخاطري فكرة رهيبة عند سماع قصة نيلوفر، غير أنها بلا أهمية. والآن أيتها السيدة الشابة، أتعلمين أن سلمان قد اصطحب طفليك في نزهة بالقارب؟"

"كلاً. لم يستأذني في ذلك قط. كما أنهما لا يستطيعان السباحة."

"لن يكونا بحاجة لذلك. انظري فقط إلى البحر، إنه في غاية الهدوء اليوم. لقد كنت أراقبهم بنظّارتي المعظمة، وتبدو عليهم جميعاً أمارات السعادة التامة. إليك فانظري."

استعرتُ نظارته وسرت إلى حافة الحديقة لأحصل على رؤية أفضل. لم يكونوا بعيدين للغاية عن الشاطئ، وبدا البحر أنيساً لطيفاً وكل شيء

على ما يرام . ورغم ذلك فقد شعرت بالقلق لفكرة أنهما هناك في عرض البحر دون أن أكون معهما . كثيراً ما يتتابني القلق الآن . ماذا لو أنني مت؟ من سيتولى رعايتهما ويحبهما كما أفعل أنا؟ تزورني أحياناً أحلام مفزعة أرى فيها طفلي يتعرّضان لخطر ما وأنا عاجزة عن الوصول إليهم في الوقت المناسب . كانت تلك الأحلام قوية للغاية إلى درجة أنني دائماً ما أستيقظ منها وأندفع إلى غرفة نومهما لكي أتأكد من أنهما نائمان في أمان الله .

عندما رجعوا صحتُ في سلمان ، ولكن الطفلين اندفعا في الدفاع عنه . خلال فترة الأسابيع القليلة الماضية أمضى معهما من الوقت أكثر مما نقضيه جميعاً ، وأنا واثقة أنه قد تحدّث معهما عن زوجي سليم وكم هو رائع أن أتزوج من جديد وأن أحظى بالسعادة ، لأنني لاحظت أن أورهان قد بدأ يستعيد مودته ولطفه من جديد .

الأمر المستغرب ، أن أمينة التي كانت أقرب لأبيها من أورهان ، لم تُبد أي أمارات على النقمة أو العدوانية . بل إن علاقتها بسليم ، والذي لم يكن له وجوده من قبل في حياتها ، قد صارت الآن علاقة ودودة وأخذت تفقد خجلها منه . أعطيتهما النظارة المعظمة بحيث يمكن لهما أن يشاهدا القارب الذي عادا منه للتو ، وقد أخذ يمضي أبعد فأبعد في داخل البحر . أمسك سلمان ذراعي وأخذنا نسير في الحديقة .

" هل تمضي المؤامرة على ما يرام يا نيلوفر؟ متى يمكننا التطلع إلى محررنا؟ "

" ستكون لدي فكرة أفضل عند المساء ، ولكن أنت ، المطع المثقف كثير الأسفار ، ينبغي عليك الانضمام إلى اللجنة . "

هزّ رأسه في صرامة. "إنني متفق مع أبي حول هذا الموضوع تمام الاتفاق، وهو سبب آخر من أسباب تقاربنا. يشعر كلانا بأن اللجنة مثقلة أكثر من اللازم بالأزياء الرسمية الموحدة. إن التخلّص من ذوي اللحي والخصيان لهو وثبة هائلة إلى الأمام، ولكن أن نستبدل بهم ذوي الأزياء العسكرية فقد لا يجعلنا نمضي بعيداً على طريق التقدم كما نرجو إذا أردنا أن نلحق بركاب خصومنا."

"ومن هناك سواهم لتحقيق التغيير؟ الشعراء؟"

ضحك قائلاً: "يا إله السماوات، هل أصبحت واحدةً منهم يا نيلوفر؟"

"إنني أفكر في الأمر."

أفضى لي بمخاوف أخرى. الفترة الأخيرة من الإصلاح كانت بناءة. استبدال الحلة الإسطانبولية والطربوش بالعمامة والعباءة قد يبدو شيئاً رمزياً، غير أنه بداية. الأهم من ذلك، مرسوم ١٨٣٩ الذي أعلن أن الإصلاحات تنطبق على الجميع بصورة متساوية، كان المرسوم من السخاء إلى حد أنه يوفّر الفرص ذاتها أمام جميع رعايا الإمبراطورية. الآن تبدّل المزاج العام. يوجد أشخاص في لجانك تلك يؤمنون بالنقاء، وهم يخيفونني يا أختي العزيزة. أجد كل هذا الحديث عن النقاء شيئاً منذراً بالخطر إلى أبعد حد."

"لماذا؟"، سألته لمجرد الجدل. "لم يؤذ أحدٌ اليونانيين أو ينذرهم بالخطر عندما أبدوا رغبتهم في تحقيق نقائهم، وأرادوا أن ينفصلوا عن جميع من سواهم. والحقيقة أن أغلب أوروبا ساندتهم."

قال سلمان: " السؤال هو هل سنتحر رقة كل يوناني يرجو أن يعيش هنا؟ تماماً مثل زوجك الراحل؟ هل سنطرد كل أرمني خارج بيته؟ عاشت عائلة بتروشيان في قريتهم لأكثر من خمسمائة عام، أي نفس الزمن الذي حكم فيه العثمانيون هذه البلاد؟ فهل سنقدم على تنقية قرية بتروشيان؟ تلك هي الأسئلة الجديدة التي لا بدّ لها من إجابات. فلتسألني أصدقاءك الجدد عمّا ينون أن يؤسسوه بعد أن يضعوا السلطان عبد الحميد على قارب ويدفعوه باتجاه بريطانيا. "

أجبرني سلمان على التفكير بجدية حول تلك المسائل. كنتُ مع التغيير التام، ولكنني لستُ مع مسألة النقاء هذه على الإطلاق، لا سيما إن كان معناها طرد جميع الرعايا المسيحيين إلى خارج الإمبراطورية. لا شك أن سلمان كان على صواب في هذا، ولكن من الصحيح أيضاً أنه دائماً ما تسود الفوضى ما إن تبدأ الإمبراطوريات تتفكك وتنكمش.

هل كان بمستطاع الرسول محمد وأصحابه أن يحققوا كل هذا التقدّم السريع لو لم تكن الإمبراطورية الرومانية في حالة تداعيها النهائي؟ لقد استولت الجيوش الإسلامية على إسبانيا ببضعة آلاف من الجنود. لو أن روما كانت لا تزال ذات قوة ونفوذ لما كان هذا أمراً ممكناً. وسلطاننا عثمان، أكان له أن يزدهر وينمو لو لم تكن الإمبراطورية الغربية تتفسخ وتتبدد. هكذا تمضي الأمور في العالم. تتفوق علينا الآن بريطانيا وفرنسا كما تفوقنا نحن ذات يوم على الرومان والبيزنطيين. سوف تحل الفوضى عند سقوط السلطان. ولستُ بحاجة لأن أكون مفكرة عميقة للغاية حتى أفهم ما يستطيع كل شخصٍ آخر أن يراه. اللجنة مهمة لأنه قد يكون بمقدورها أن تسيطر

على الفوضى وأن تقلل بأقصى درجة ممكنة من الاضطراب الوشيك الذي يتهددنا .

كنتُ في طريقي للانضمام إلى أصدقائي الجدد في المكتبة حينما رأيتُ البارون والعم محمد منهمكين في حديث مع خليل الذي بدا عليه الذهول لشيء ما أخبره به البارون . رأيتُهُ يومئ برأسه في جدية بينما يتحدث البارون ثم هرعَ مندفعاً إلى داخل المنزل .

بعد ساعة فقط ، انعقدت اللجنة بتمامها في المكتبة . وبدا أن خليل قد استرد هدوءه من جديد . تنحَّحَ الجنرال الذي لم يتحدَّث من قبل وشرع يتحدث فصمتنا جميعاً .

" ما عادَ بوسعنا إشاحة النظر بعيداً عن تاريخنا . لطالما ملنا للفخر والمباهاة . باستمرار ننظر إلى الوراء ونقول لأنفسنا : نحن الذين لم نكن شيئاً مذكوراً ذات مرة أنشأنا إمبراطورية عظمى من أجل مجد الإسلام . وباستمرار نعلّم أبناءنا عن انتصاراتنا ، وصحيح أنه كانت هناك انتصارات عديدة في الماضي ، غير أن انتهاءنا الآن إلى هذا الطريق المسدود وهذا المأزق يرجع إلى إخفاقنا في فهم انهيارنا . لا أودّ أن أتحدَّث لوقت طويل ، ولكن اسمحوا لي أن أرسم صورة بسيطة لانهيارنا في إيجاز . مضى علينا الآن قرنان ونحن على مسار الانكفاء والتقهقر . "

" كان إخفاقنا في الاستيلاء على فيينا عام ١٦٨٣ هو نقطة التحول في حظنا السعيد . ونجمَ عن هذا الإخفاق معاهدة كارلوفيتس ، والتي وقّعنا عليها قبل مائتي عام بالضبط في ١٦٩٩ ، وقد أسلمنا بموجبها المجر إلى آل هابسبورج وتراجعتنا إلى بلجراد . في ١٧٧٤ ، كانت الحماقة العثمانية هي ما

منحت روسيا السلطة لحماية مصالح رعايانا من المسيحيين . فلم لم يطلب
السلطان أو وزيره في المقابل الحق في حماية العبيد الروس ، بما أن اتفوقيتهم
تلك كانت إذلالاً ومهانة لجميع شعبنا على السواء . "

"وتبع ذلك المزيد من الهزائم في ١٧٩٢ ، عندما كان الفرنسيون
يتأهبون لإعدام ملكهم ، ثم عانينا من جديد في ١٧٩٩ ، و ١٨١٢ ، و ١٨٢٩
وبعد ذلك ، وقبل عشرين عاماً فقط ، خسرتنا صربيا ورومانيا والجبل
الأسود ، بل إن النمساويين أخذوا منا البوسنة والهرسك . أرسل
الأسطولان الإنجليزي والفرنسي سفنهما حتى مشارف إسطنبول وهددونا
بعقوبات إذا لم نخضع لما يملونه علينا . إنها نهاية هذه الإمبراطورية . علينا أن
نتحرك الآن لكي نقلل من حجم الكارثة ، نستطيع أن نتقدم بوحدات الجيش
في الأسبوع التالي ونخلع السلطان ، ولكن سيكون هذا بلا جدوى أو أهمية
إذا لم نتفق حول ما ينبغي علينا أن نضعه مكانه . وهذا كل ما أودّ قوله
الآن . "

لقد تحدّث هذا السلطان بوضوح تام وقال بصوت قوي ما كنا نعلمه
جميعاً من قبل ، غير أن قسوة وشدة الانهيار لم تكن على هذا القدر من
الوضوح أمامي قبل ذلك قط . سؤال واحد طالما أزعجني .

"أرجو أن تعذر جهلي ، أيها الجنرال ، ولكن لماذا عجزنا عن
الاستيلاء على فيينا؟ "

تنهد الجميع حانقين كما لو أنهم ظلّوا يناقشون هذا السؤال طيلة
حياتهم والآن ، من بين جميع الأسئلة الأخرى ، أعربت امرأة عن رغبتها في
معرفة إجابة له . كان الضابط الشاب من سالونيكاً هو من أجابني .

" كما يمكنك أن تتخيلي، فإن هذه مسألة ظل مؤرخونا العسكريون يتناولونها بالبحث على مدى زمن طويل ولا يوجد اتفاق حقيقي حولها. إن هزيمة جيشنا خارج فيينا في ١٦٨٣ كان أمراً مفهوماً، فقد كان آل هابسبورج والبولنديون يملكون تقنيات غريبة جديدة للقتال. كان جنودنا في حالة من وهن العزيمة والإحباط والسخط. أظن أنه بحلول ذلك الوقت كان الأوان قد فات بالنسبة لنا، أما السؤال الحقيقي فما الذي حدث حينما كنا في أوج قوتنا وجيوش السلطان سليمان تكتسح كل ما يعترض سبيلها حينما استولوا على بلغراد وروودس والمجر وترانسيلفانيا ولكننا توقفنا أمام أبواب فيينا في ١٥٢٩. لماذا تخلينا عن الحصار بينما كانت المدينة على مرمى حجر من أيدينا؟ ذلك هو اللغز الحقيقي. لأننا في ذلك الحين كنا قوة مهيمنة عسكرياً وحلفاء سياسيين مع أفضل شعوب أوروبا: البروتستانتين من الألمان والهولنديين جنباً إلى جنب اليهود وأبناء ديننا ممن نفوا من إسبانيا. إذا كنا استولينا على فيينا فربما كنا هزمننا الكاثوليك هزيمة نهائية وغيرنا وجه أوروبا. تخيلي ماذا كان يمكن أن يحدث لو أننا عكسنا المسار في إسبانيا. كان يمكن للانتصار أن يضطرنا إلى تحديث أنفسنا منذ مائتي عام، إلى جانب بقية أوروبا. كان فشل سليمان في الاستيلاء على فيينا هو اللحظة الحاسمة، في رأيي. وغالباً ما سوف يقدم لك كل شخص هنا سبباً مختلفاً لهذا الفشل، وقد نبقي هنا لأسابيع دون أن نتفق في نهاية الأمر على شيء بهذا الخصوص. أما إذا كان اهتمامك جاداً بالتاريخ العسكري العثماني فإننا سوف ننظم أمسية في إسطنبول وندعو جميع الخبراء معاً. وأعتقد . . . "

قاطع أخي خليل الحديث. " دائماً الماضي، دائماً الماضي. هذا هو نفسه ما نتهم به أعداءنا غالباً، فلنتناقش المستقبل. ومع ذلك، قبل أن نستأنف، لدي أمر هام أبلغكم به. يقيم معنا هنا صديق قديم للعائلة، ذات

يوم كان معلماً ألمانياً، ولكن بعد وفاة شقيقه، ورث ممتلكات عائلتهم في بروسيا وحاز لقب بارون. وهو يزعم أن ثمة شخص موجود في هذه الغرفة، يتجسس علينا لصالح القصر. وهو يعلم هذا لأنه كان حاضراً في برلين عندما كان هذا الشخص ذاته يتفاوض حول اتفاقية سرية ما بين السلطان وبروسيا، معاهدة تلزمننا بمساندتهم في أي نزاعات أوروبية تطرأ في المستقبل. وفي المقابل سوف يساعدون السلطان على الاحتفاظ بسُلطته. هذه خيانة على مستويين مختلفين، الأول ضد مصالح بلدنا، والثاني موجه مباشرةً ضد اللجنة. إذا كان هذا الشخص موجوداً بالفعل فسيكون مفيداً في هذه المرحلة إذا استطاع أن يعلن عن نفسه. "

أدت تلك الملاحظات إلى حالة من الاستنفار الحسي، فقد نهض الضباط الشبان واقفين في غضب، أما الجنرال ذو الصوت الرفيع الحاد فقد بدأ يرتعش. كان ينظر إلى الأرض، ولكن جميع الآخرين كانوا ينظرون إليه. حينما تكلم تصدّع صوته ببحّة وحدة أكثر مما كان عليه في السابق.

" هذا سوء تفاهم تام. صحيح أنني ذهبتُ إلى برلين نيابة عن السلطان، ولكن كيف عساي أن أرفض أمراً كهذا دون أن أخون قضيتنا؟ فعلتُ ما أمرني به كبير الوزراء. أتلك جريمة؟ "

حطّ علينا صمتٌ طويل بعد قوله هذا. نظر الجنرال الآخر إلى زميله وعلى وجهه تعبيرٌ حزين. " لا بدّ من تنفيذ الأوامر. نعلم ذلك تمام العلم، ولكن لماذا لم تخبرني بهذا في حينها؟ لقد كنتُ كبير ضباطك. وعندما بدأتُ تتواصل مع اللجنة، لماذا لم تطلع أعضاءها في إسطنبول على الأمر؟ أعتقد أنه سيكون من الأفضل إذا أخبرتنا بالحقيقة، يا جنرال. "

عندئذ تحدّث الضابط الشاب من جديد. " هل أعطيت أسماءنا لأي شخص؟ " "

" كيف له أن يفعل؟ " كان ما في صوت خليل أخي من توعّد ونذير جديداً علي تماماً. " إنه لم يسبق له قط أن التقى بكم، لكنه كان بوسعه أن يقدم اسمي الجنرالين اللذين اقتربا منه لضمّهما إلى اللجنة. فهل فعلت؟ "

بدأتُ أشعر بالأسف نحو الرجل ذي صوت المرأة. كان يهز رأسه بغير تصديق بينما بدأ ينكمش ويكاد يختفي في ركن المقعد الجلدي الوثير، بلونه الأخضر الحائل، والخاص بإسكندر باشا. أفترضُ أنه كان مذهولاً أمام مصادفة أن يوجد هنا رجل أرستقراطي من بروسيا تربطه صلوات بالقادة العسكريين في برلين في هذا اليوم بالتحديد وأن يتعرّف عليه. من يمكنه أن يلوم الجنرال المسكين؟ قليلون للغاية، حتى من بين هؤلاء المقربين للغاية من العائلة، هم من يعرفون أنّ العم محمد والبارون كانا حبيبين على مدى ثلاثين عاماً. حتى أكثر الجواسيس ذكاءً لا يمكنه أن يتنبأ بمثل هذه الكارثة، ولكن، على الأقل، كان يسعه أن ينقذ نفسه خارج المستنقع باختلاق قصة تزرع الشك في عقول بعض هؤلاء الحاضرين. ولكن ليس هذا الرجل.

لم أرَ في حياتي كلها شخصاً متداعياً ومتفسخاً كما كان هذا الخصي- الجنرال ذلك اليوم في مكتبة منزلنا الصيفي من شهر أغسطس عام ١٨٩٩. كان الجميع ينظرون إليه، لم يتحدث أحد، كان منكمشاً على نفسه من فرط الخوف. وبيطء بدأت تنتشر في الغرفة رائحة ما، تقلصت لها أنوفنا. أدركتُ عندئذ أن الرجال البائس قد بلل سرواله. أظن أن هذا العمل قد أثار الاحتقار في نفوس زملائه متصلبي الظهور أكثر حتى من خيانتهم لهم.

اندفع خليل خارج الغرفة ورجع مع بتروشيان، الذي تراجع خطوتين حينما صدمت الرائحة النتنة حواسه .

" كل إناء ينضح بما فيه " ، قال الجنرال الآخر بنبرة ازدراء تام .

شرع الخصي-الجنرال في البكاء، توسل الرحمة، والتمس العفو والغفران . حلف بالقرآن أنه سوف يخبرهم بكل شيء، بما في ذلك أسماء جميع الجواسيس الآخرين في اللجنة، إذا أبقوا على حياته .

" اذهب وبدل ثيابك أولاً، أيها الوضع . " قال الضابط الشاب .
" إنك تستحق أن تُعدم لهذا الفعل وحده . سنقرر مصيرك عندما ترجع . إن مجرد وجودك في الجيش عار كبير . "

قاده بتروشيان إلى خارج الغرفة، ثم هرعنا جميعاً لتنسم الهواء النقي للحديقة العطرة . غالباً ما أجد أريج الياسمين بلهماً وسلاماً، لكنه كان في ذلك اليوم موضع ترحيب أشد بينما أتنشق حلاوته! كان خليل والجنرالات الآخرين يتحدثون معاً، ليقرروا مصير زميلهم . أمّا الضباط، بمن فيهم سليم، فقد اجتمعوا حول بعضهم البعض قريباً من المنزل . كنت أتطلع نحو البحر، غير قادرة على أن أستوعب كل زاوية ممكنة لأحداث هذا الأصيل . حتى ولو أعطانا الخصي-الجنرال قائمة بالجواسيس فلن يكون هناك ما يضمن أنه يخبرنا بالحقيقة . فلعله سيضللنا عامداً ليخلق المزيد من المشكلات بداخل اللجنة . كان من العسير أن أتخيل أنه قد يفعل أي شيء ينم عن الذكاء، مع الاعتبار لهذا الزلزال الذي قلب حياته رأساً على عقب، لكن لعله يفكر الآن بينما ينظف نفسه في الحمّام .

أشارَ الجنرالات بما يعني أن ينضم الضباط إليهم . لقد تقرر مصير الخصيـ الجنرال وكان الرجال الشباب يُسألون عن رأيهم . لم أرغب في أن يتم إعدامه ، أعلم أنه ما فعله كان صادمًا ، غير أن قتله لن يكون فيه فائدة إضافية . لا بدّ أنهم قرأوا أفكارى لأن سليم و خليل أتيا وانضمّا إليّ .

قال خليل : " إمّا حياته وإمّا حياتنا نحن ، إذا تركناه يعيش فسوف نُرسل جميعاً إلى المنفى وسوف نترك اللجنة بلا قيادة في داخل الجيش في إسطنبول . لا يمكننا أن ندع هذا يحدث . إنه قرار عسكري ، يا نيلوفر . "

لم أكن مستعدة للاقتناع بهذه السهولة .

" وإذا قتلتموه ودفنتم جثته في مكان ما ، ما الذي سيفكر فيه الرجل الذي ينتظر تقاريره؟ أفترض أن الشكوك سوف تساوره . فهو ليس شخصاً تافهاً ، كما تعلمون . إنه جنرال وهم لا يتبخرون في الهواء هكذا ، حتى في إمبراطورية تحتضر . "

أوماً خليل في جدية . " لم يخبره الآخرون قط بأنهم كانوا آتين إلى هنا . لم يكن يعلم حتى أنه سوف يلتقي بنا . تم إخباره فقط بأننا نظمنا لقاءً بضابطين وفداً من سالونيكاً طلباً للاستشارة وأنه ربما يكون هناك أيضاً عضو من اللجنة يصل من باريس . هذا ولا شيء آخر ، وهذا كل ما كان يمكنه أن يبلغ به من فوقه ، وهو كبير الوزراء ، لا تنسى هذا ، رجل تشغل عقله بضع مشكلات أخرى . ومن المحتمل جداً أنه لم يقل أي شيء بالمرّة وقرر أن ينتظر حتى يلتقي بالضباط . حتى لو أنه أبلغ الوزير بأن هناك ضابطين مهتمين باللجنة ، فهو أمر يمكننا أن ننكره على الدوام . لا يمكننا المجازفة بفضح هؤلاء الضباط الشبان في هذه المرحلة يا نيلوفر . سيكون هذا بمثابة تدمير مستقبلنا .

لا تنسي أن الجاسوس كان حاضراً في أثناء حديث الصباح كذلك، وفي حضوره قدّمنا تقديراً لقوتنا في وحدات مختلفة من الجيش. هذا هو نوع المعلومات الذي يسر القصر أن يضحى بحياة العشرات من أجل الحصول عليه. بدلاً من ذلك فإننا نقضي على حياة واحدة، لا بد أن تفهمي هذا. "

" سوف تقتلونه إذن؟ "

نظر خليل وسليم إليّ، ثم تبادلنا نظرة وأخيراً حولاً بصرهما بعيداً، صوب البحر. عرفتُ عندئذ أن الخصيـالـجنرال المسكين لن يرى الشمس مرة أخرى. في غضون ساعة كانوا قد أسرجوا خيولهم، واستدعوا حوذي العربة وغادروا منزلنا إلى الأبد. كنتُ أعلم أنني أرى الخصيـالـجنرال للمرة الأخيرة، ورغمًا عن نفسي، أحزنتني هذه الفكرة. حياة إنسان كانت على وشك أن تقتلع. فهتمتُ لماذا كان يتوجب التخلص منه، وعرفت أنه أحياناً يكون من الضروري فعل أمور سيئة من أجل قضية عادلة، غير أن الرجل كان مثيراً للشفقة إلى حد أنني شعرتُ بأنه من الممكن العثور على وسيلة أخرى غير هذه. لم يتفق سليم معي، أقرّ بأنه هو أيضاً لم يكن راضياً، غير أنه كان مقتنعاً بأنه لا يوجد حل آخر. رأيتهم يرحلون. كان المحكوم عليه قد استردّ بعضاً من كرامته، وسار إلى العربة برأس مرفوعة، وهو ما زاد الأمر سوءاً بطريقةٍ ما بالنسبة لي.

هيمنت أحداث اليوم على أحاديث وجبة المساء، وظهر البارون بوصفه بطل المصادفة للحكاية كلها. لهذا أشار خليل نحوه وهو يقترح نخب شمبانيا في صحبة البارون. بعد أن ارتشفنا جميعاً من السائل المتلألئ، لم أستطع منع نفسي من التحدّث.

"بطل، هذا جائز"، قلت، ثم فاجأت نفسي: "ولكن المؤكد أن كلمة جلاّد أو سيّاق ستكون أكثر ملائمة."

حط صمت، حدّق سليم فيّ.

تجاوز البارون ما قلته بسرعة وابتسم قائلاً: "أنت على حق، يا نيلوفر، ولكن انظري إلى ما جرى بهذه الطريقة. لو أن الخصي نجا بحياته، فربما كان مصير أخيك، وزوج، وهؤلاء الضباط الرائعين ممن كانوا هنا اليوم، أن يفقدوا حياتهم هم."

استأنفتُ قائلة: "أيها البارون، لا أقصد أية إساءة. إنني أتقبل ما تقول وأعرف أن ما كان ينبغي فعله، ربما يحدث الآن بينما نأكل ونشرب، كان لا مناص منه بالمرّة. غير أن هذا لا يجعله أقل بشاعة. أيمكنني أن أسألك سؤالاً آخر؟"

أوماً.

"كان الرجل المتوفي يبذل جهداً نشطاً من أجل مصالح كل من السلطان والقيصر فيلهم، فقد كان هو من وقّع البروتوكول السري ما بين إسطنبول وبرلين. قد ينظر ضباطنا إلى هذا باعتباره خيانة ضيقة الأفق، ولكن لا شك أنك تفضّل هذا المسار."

رفع البارون قامته وجلس منتصب الظهر على مقعده. "صحيح. غير أنه الروابط العائلية القديمة أهم عندي من أمور السياسة، إن تلك الروابط بين عائلتنا ترجع إلى زمن قديم للغاية. أتعلمين أن جدي الكبير أقام ذات مرة في هذا المنزل مع جدّ محمد؟ لهذا السبب وافقت على أن آتي إلى هنا

كمعلم . كما ترين ، يا بُنتي العزيزة ، هناك أمور أهم في هذه الحياة ، مثل العلاقات والروابط الشخصية ، وتلك عندي سيكون له المقام الأسبق دائماً على صراعات السياسة . "

"تحدث مثل أرستقراطي بروسي حقيقي وصديق مخلص يا عزيزي" ، قال محمد بنبرة عاطفية بدرجة مفاجئة . " سأقترح نجباً آخر . في صحة الإخلاص والولاء والصدقة واللعنة على السياسة وأفقها الضيق . "

في هذه المرة ، وعلى عكس الآخرين ، لم أرفع كأسي .

لم أنفرد بسليم طيلة اليوم وبدأ يساورني نحوه شعور مكبوت بحنان لا غلاب له . للأسف كانت الوجبة أبعد ما يكون عن الانتهاء . كان محمد في مزاج فائر متحمس ، كنتُ قد أشرتُ إلى الجاسوس على أنه الخصي-الجنرال ، وهو ما أكدّه محمد الآن .

"تم خصيه طفلاً بحيث يمكن أن يخدم في القصر ، ولكن مع انتشار الوعد بالإصلاحات في الأجواء ، أدرك والداه المسكينان خطأهما . بلغت القصة مكتب كبير الوزراء ، ولعله جدير بالثناء إذ رقّ قلبه وشعر بالأسف نحو عائلة الطفل . كان الأب سقّاء من ألبانيا ، وصبيه هذا كان أحد ستة أطفال . أرسل إلى مدرسة ، ولكنها كانت جيدة للغاية ، ذات معلمين يمارسون التدريس فعلاً ولا يكتفون بضرب التلاميذ لإخضاعهم . كان خدم القصر من الأطفال يُرسلون إلى هناك وهكذا كان لا بد على المعلمين أن يتوخوا غاية الحذر . حينما بلغ السادسة عشر من عمره ، أخذه الوزير كصبي خدمة وراقب نمو عقله . كانت ذاكرته جبّارة فيما يخص الوجوه والوثائق . ما كان عليه إلا أن يقرأ صفحةً ما غير مرة واحدة فقط حتى يمكنه

أن يحفظ عن ظهر قلب أغلب التفاصيل المهمة. وهكذا تم تحويله إلى القصر وصار شخصية ذات شأن في شبكة الجاسوسية الخاصة بالدولة. سوف يصحب معه إلى قبره كثيراً من الأسرار.

كان أبي مندهشاً. "من أين عرفت كل هذا يا محمد؟"

تبادل محمد مع البارون نظرة سريعة.

"أخبرته أنا"، هكذا تدخل البارون. "لقد أبدى هذا الخصي إعجاباً بي وذات ليلة في برلين، وبعد أن دار الشراب، حكى لي قصة حياته. لهذا السبب صُدمتُ حينما استشعرتُ وجوده في هذا المنزل اليوم. كان ذكاؤه هو ما جعله بالغ الخطورة. المسكين. كيف كان له أن يعرف أنني سأكون هنا؟ المسكين، الرجل المسكين."

خلونا إلى المكتبة بعد العشاء. كان هذا هو الموضوع الذي شهد هوان الخصي وذه، والموضوع الذي كان فيه المقعد الوثير من قبل صار الآن خاوياً. تم إبلاغ أبي الآن بأن مقعده المفضل تم تنظيفه ولا بد من تهويته ليوم على الأقل في الشمس حتى تتبدد الرائحة النتنة منه. انتابه غيظ شديد.

"عسى أن يصلى ذلك الخصي نار السعير!"

"سيحدث، يا أبي"، أجابه خليل بصوت بارد. "سيحدث".

حينما كنا على وشك أن نغادر المائدة، قرر البارون أن ينيرنا بأحد تصريحاته. "تبادلتُ حديثاً وجيزاً اليوم مع الضباط الأصغر سناً، وقد أذهلني أحدهم إذ رأيتُ فيه زعيماً قوياً ستكون هناك حاجة ماسة إليه ذات يوم حينما يجين وقت صياغة دولة جديدة من بين حطام الإمبراطورية

القديمة. نصحتُ هذا الضابط بقراءة ميكافيلي فقال لي شيئاً جديراً بكل اهتمام بالنسبة لي. قال إنه لم يتلق تعليماً كفوفاً بما يكفي في اللغات الأجنبية وبالتالي سوف يضطر لأن ينتظر حتى تتم ترجمة النص الإيطالي إلى اللغة التركية. ثم قال شيئاً مميّزاً حقاً، شيئاً ملأني بالأمل. "أعتقد"، هكذا قال في ثقة تامة، "أنا لكي نتقدم بسرعة سيكون علينا أن نغير أشياء عديدة، بما في ذلك كتابتنا الرثة البالية، سوف نحول الأبجدية التركية إلى الحروف اللاتينية في غضون عام من استلام السلطة. سوف يسهل هذا على الجميع تعلّم لغات أوروبا. وربما في ذلك الحين سيتمكن كثيرون من قراءة ميكافيلي." فقلتُ لنفسي عندئذٍ إنني أرجو أن ينجح هذا الشاب في مسعاه. إنها الرؤية التي نحتاجونها من أجل إحراز التقدم.

في وقت تال من تلك الليلة، تضاجعنا أنا وسليم في صمت. حُرْمنا من رفقة بعضنا البعض طيلة اليوم ولم تعد الكلمات كافية للإعراب عن الشوق. بعد ذلك تحدثنا لوقتٍ طويلٍ للغاية.

تركته أحداث اليوم في غاية من الحماسة والإثارة، فراح يتحدث عن الضابط الشاب الذي جعل ما هو عسير حقاً يبدو من الممكنات، أي تحويل الأفكار التقدمية إلى واقع. كان يحدث كثيراً جداً فيما مضى أن تتحوّل الأفكار السامية إلى نقيضها، بمجرد أن يعتلي من دعوا إليها سدة السلطان. هذا ما حدث في فرنسا عشية ثورتهم، غير أنه حدث هنا كذلك. فكلّما تقلّد الإصلاحيون مناصب الوزراء، تتبدد أفكارهم ويضطرون لأن يحكموا الإمبراطورية بالطريقة الوحيدة التي يعرفونها، أي الطريقة القديمة.

أما هذه المرة فقد شعر سليم بأنها ستكون مختلفة تماماً. لقد اتفقوا على تحويل كتابتنا بالحروف العربية إلى الحروف اللاتينية، وأن يُسقطوا سلطات رجال الدين، وأن يجعلوا تعليم الفتيات إلزامياً، وأن يُلغوا الحجاب من حياتهنّ إلى الأبد. قدّم لي شرحاً مفصلاً للنقطة الرئيسية الوحيدة التي لم يتفقوا حولها، ذلك الأمر الذي لوّث اليوم. كان هذا أيضاً جداراً حول الماضي، وليس حول المستقبل. صرّح الجنرالات الثلاثة أنه كان من الضروري قمع انتفاضة الانكشارية عام ١٨٢٦، غير أن الضباط الشبان أبدوا تعاطفاً أكثر مع الانكشارية، إذ شعروا أنهم الآن في موقف مماثل لموقف الفئة المهزومة في إعدادهم لإطلاق ثورتهم ضد السلطان.

ضحك سليم، قائلاً: "انتاب خليل الغضب عند هذه المرحلة، وقال إنه ما من شيء يجمعنا بالغوغاء والهمج ممن تم سحقهم عام ١٨٢٦. فما كانوا إلا حفنة منحنطين يقمعون الناس وقد ضرب الفساد جذوره فيهم. وقد كان لا بدّ من تسريحهم منذ قرون عديدة وتكوين جيش جديد على الطراز الأوروبي. كان علينا أن نتعلم الدرس من الفرنسيين والإنجليز. قال إن كل ما كان الانكشارية سيفعلونه هو وضع سلطان جديد على العرش، سلطان أكثر تساهلاً مع جرائمهم. الضباط الشاب من سالونيك، والذي بدا أن البارون أعجب به كثيراً، لم يكن في مزاج التسليم والرضا بالتسويات. وافقهم على أن الانكشارية قد حصلوا على سلطة أكثر مما يجب في الدولة العثمانية، ولكنه رأى أن هذا هو الطريق الوحيد للحفاظ على جوهر الجيش النظامي الدائم. فإما أن يكون هناك دوقات ولوردات حسب النموذج الأوروبي، تكون مسؤوليتهم إعداد جيش من أجل ملكهم، وإما أن يكون هناك الانكشارية. الطريق الوحيد المتبقي غير ذلك يوجد في أثناء

الثورات الشعبية، كما قام الإنجليز بتكوين جيشهم على الطراز الجديد وأسس الفرنسيون نسختهم منه عام ١٧٨٩. في نهاية الأمر اقتنعنا بحججهم، غير أنها كانت مجادلة مثيرة. ما رأيك في ذلك الضابط من سالونيكاً؟"

"ظننت أنه من إسطنبول، فإن زوجته تعمل بالتدريس هناك."

"صحيح، ولكنه ولد في سالونيكاً وهناك يجد أكبر الدعم والمساندة."

"أعجبتُ به."

"لا شك في ذلك."

"أتشعر بالغيرة؟"

"نعم."

لم أشعر بالرغبة في النوم، وهكذا عدتُ إلى الموضوع الذي طرحه عليّ سليمان في وقت مبكر من اليوم. "هل ناقشتم إلى أي مدى سوف تتسم الدولة الجديدة بالنقاء؟"

"ماذا تقصدين؟"

"يوجد أشخاص في اللجنة يعلنون صراحةً أن علينا أن نكون أتراكاً أنقياء. يقولون إن الثقافة العثمانية أشد كوزموبوليتانية مما يجب وأن هذا التأثير الذي خلفه علينا العرب والفرس والأوروبيون أقرب إلى زهور يتم استنباتها في دفيئة وليس في أرضها الطبيعية. لا يريدون إلا أن يزرعوا النباتات المحلية الأصيلة. كيف يمكن لهذا أن يحدث يا سليم؟ توجد في مدننا وقرانا مجتمعات مختلفة الألوان عاشوا جنباً إلى جنب على مدى قرون

عديدة. أتراك، وأرمنيون، ويونانيون، وأكراد، ويهود ويعلم الله ماذا يوجد أيضاً من جماعات أقل عدداً. "

وافقني سليم وأصرّ على أن مسألة النقاء التركي لم تطرح للنقاش بالمرّة في مداولاتهم، ومع ذلك فبوسعه أن يرى أنها قد تصير مسألة لها أهميتها في المستقبل.

"ماذا سيكون وضعي في الجمهورية الجديدة، يا سليم؟ أنا من أصول يهودية. وكما تعلم أنا لست مؤمنة، ولكن لا رغبة بي في أن أعد تركية. أفضل أن أكون عثمانية. أعرف أنك ستظن أن الأفكار الصوفية قد أصابتنى بعدواها، لكن الروح العثمانية هي خزانة للكنوز من المشاعر، أما التركية فتصدمني كشيء لا روح فيه. "

أقرّ قائلاً: "إنها لمعضلة، إننا عثمانيون لأننا جزء من الإمبراطورية. تطلع اليونانيون إلى الألى يكونوا عثمانين وهم الآن يونانيون، الأمر ذاته يصدق على الصرب والقوى الغربية تشحن الأرمنين الآن ليمضوا في الاتجاه ذاته. في هذا الوضع الجديد قد لا نجد أمامنا خياراً آخر سوى أن نصير أتراكاً. "

"وماذا عن يهود إسطنبول وسالونيكاً؟ "

"سوف يبقون يهوداً. لماذا يجب أن يحدث صراع؟ "

"وماذا عن اليونانيين الذين لا يرغبون في مغادرة إسطنبول أو إزمير؟ سيفضلون أن يبقوا عثمانيين، لكنكم إمّا سوف ترغمونهم أن يصبحوا أتراكاً وإمّا ستدفعونهم إلى البحر. وهكذا قد يقع ما يخشاه أخي سلمان. "

لم يجيني سليم بشيء . أخذت يده تتجولان في أنحاء جسدي . كانت
وسيلة كافية وسارة لإنهاء جدالنا . لم أبدأ أية مقاومة أمام ذلك التركي
الشاب الذي نهض ما بين ساقي . لن يكون سلمي أبداً خصياً - جنرالاً .

(١٧)

امرأة فرنسية غامضة، ذات نوايا مجهولة،
تصل على غير موعد وتطلب رؤية إسكندر باشا،
الذي يكشف فيما بعد كيف كان يتلصص
على امرأة متزوجة في حمام عام في إسطنبول

" لقد أتت سيدة فرنسية لرؤية أبيك، غير أن إسكندر باشا ليس في المنزل. فقد ذهب للتمشية مع سليم والطفلين. هلاً نزلت لاستقبالها من فضلك؟ "

كان بتروشيان قد صعدَ الدرج ركضاً فتقطعت أنفاسه. لم يكن من طبيعته أن يفقد هدوءه لدى وصول أي زائر، مهما كان وصوله غير متوقع.
" أيمكنك أن تُدخلها إلى غرفة الاستقبال؟ قدّم لها بعض المرطبات، وسوف أنزل في غضون دقيقة. "

مشطتُ شعري بسرعة، وتفقدت نفسي في المرآة لأتأكد أنني مقبولة الهيئة، ونزلتُ في خطوات هادئة لأستقبل المرأة الفرنسية. في الردهة وأمام

غرفة الاستقبال مباشرةً، التقيتُ بتروشيان وحسن بابا، مستغرقين في نغمة سرية. لزمنا الصمت عندما حضرت. لم أدخل هذه الغرفة إلا مرتين منذ وصولي إلى هنا وفي المرتين كان السبب هو نفسه: أورهان وأمينة أرادا أن يريا كل غرفة من غرف المنزل واضطرتُ إلى إرضائهما.

كانت هذه الغرفة كبيرة للغاية بحيث نادراً ما استخدمتها الأسرة، حتى عند وجود زوار. كنا نجلس إما في الحديقة أو في المكتبة. أصرَّ يوسف باشا على هذا الحجم الضخم للغرفة، رغم اعتراضات المهندس. فقد رغب سلكنا في قاعة رقص على الطراز الأوروبي بحيث يستطيع أن يسرِّي عن ضيوفه، بمن فيهم السفراء الأوروبيين، بأفخر وأفخم صورة ممكنة. فيما بعد، استعان بفرق موسيقية أوركسترالية أتت من إسطنبول وعزفت في مناسبات مختلفة، غير أن تلك أيام قد مضت وانقضت. أثتت الغرفة على النمط الفرنسي المسرف في الترف، رغم أن شمس الصيف قد جعلت ألوانها الغنية تبهت وتشحب. قال إسكندر باشا إنه لا المفروشات ولا الأثاث قد لسهما أحد منذ بناء المنزل.

كانت المرأة الفرنسية واقفة عند النوافذ المفتوحة تتأمل المنظر المطل على البحر. استعنتُ بأفضل فرنسية ممكنة عندي لأقدم لها التحية.

"بونجور مدام"

استدارات وابتسمت.

"لا بد أنك نيلوفر. كثيراً ما ذكرك أبوك واصفاً عينيك الخضراوين لي بأدق التفاصيل. أنت في غاية الجمال."

"أشكرك، يا مدام، ولكن في الحقيقة ليس لدي أي فكرة عن شخص حضرتك وسبب وجودك هنا، ولكن أياً كان السبب، مرحباً بك في منزلنا. "

كانت ضحكتها طبيعية وصادقة. "اسمي إيفيت دي مونغورينسي. زوجي أو بالأحرى زوجي الثاني هو الفيكونت بول-إرنري دي مونغورينسي. وهو السفير الفرنسي الجديد في إسطنبول. وكلانا كنا نعرف أباك خير معرفة حينما كان سفيراً لرفعة السلطان المعظم في باريس. سمعت أنكم في منزلكم الصيفي وفكرت أن أمر بكم وأفاجئكم. "

ابتسمت في تلتف، وقد ساورني نفور غريزي نحوها. كانت ترتدي ثوباً قرمزيًا وطبقات مساحيق الزينة على وجهها لم تفلح في إخفاء سنّها. لا بدّ أنها كانت تقترب من عيد ميلادها الستين. لا بدّ أن مشدّ خصرها كان محكمًا للغاية لأن نهوض ثديها كان واضحًا كالشمس، وبالتالي غير مقنع بالمرّة. كيف عساها أن تتحمّل هذا الضيق والاختناق؟ كانت متوسطة الطول، وعليّ أن أعترف بأنها قد اعتنت بنفسها جيدًا رغم سنّها. ما زالت لفائف الدهون في رقبتها تحت السيطرة، ورغم أن الشعيرات التي تنبت أعلى الشفة العليا قد أزيلت بكفاءة أشدّ مما يجب؛ فإن النعومة الناتجة كانت زائفة.

"حسنًا، لا شك أنك فاجئتني يا مدام. لقد خرج أبي مع حفيديه، وهو لم يسبق له أن ذكرك أو ذكر الكونت. الكونت الوحيد الذي ذُكر على الإطلاق في هذا المنزل هو أغوست كونت. هل قرأت له أي شيء بالمصادفة؟ "

هزّت رأسها في رعب . " لم يكن كونناً حقيقياً! لم يحمل هذا اللقب ،
تعلمين هذا بالطبع . كان راديكالياً خطراً وكان عم زوجي الفيكونت ،
أسقف شارتر الراحل ، قد حظّر تعاليمه في الكنيسة بلهجة شديدة للغاية .
أوه ، كلا! "

وقَعَ شيءٌ كنتُ أتمناه سرّاً في اللحظة ذاتها التي مرّ خلالها في عقلي ،
وهو ما أسعدني للغاية . دخل كلُّ من البارون وعمي محمد الغرفة وقدّما لنا
المخناةً مبالغاً فيها إلى حد الهزل . قمت بالتعريف اللازم حريصة على ذكر
الاسم الكامل للبارون والتشديد على لقبه . أشرق وجه إيفيت بابتسامات
حبور شديدة التكلّف ، ولاحظتُ الارتفاع الطفيف في درجة حرارة
البارون ، ثم غادرتُ الغرفةُ بحجّةٍ إعداد بعض المرطبات .

تداعى هدوئي ما إن خطوتُ خارجَ الغرفة ، فقد انقضّت علي موجة
من القهقهة لم أستطع السيطرة عليها . جلستُ على السّم وحاولتُ
التوقّف عن الضحك ، دون أن أفلح . أتى حسن بابا وجلس إلى جانبي على
درجة السّم . احتضنته وواصلتُ ضحكي . ابتسم لي .

" لماذا دفعتك إلى كل هذا الضحك؟ "

" مَنْ تكون هي يا حسن بابا؟ من تكون؟ "

تلفتُ حوله ليتأكد أننا بمفردنا تماماً .

" الآن ، أنا لم أخبرك بشيء وأنت لم تسمعي به مني بالمرّة! فلتلق
باللوم على بتروشيان إذا اضطررت للكشف عنم أخبرك . أرجوكي أن
تلقني باللوم عليه ، فهو متكتّم جداً ، وسيكون من الجيد تدمير سمعته هذه .

مَنْ تكون؟ سأحكى لك . منذ سنوات كثيرة في باريس ، ولدة أسابيع معدودة لا أكثر، اتخذها أبوك زوجة له . "

صدمتني المعلومة فانتبهتُ في الحال . "ماذا؟ لا أصدق هذا! "

"لم يكن أمراً جاداً . أتت إلى حفل استقبال في سفارتنا وفتنتها التجربة العثمانية حتى داخت . كان إسكندر باشا يؤدي مثل تلك الأمور بأرفع وأبهى طراز . أتذكر أنه ذات مرة طلب منا جميعاً ارتداء ثياب الدراويش وغناء الأناشيد الصوفية في حضور السفير البريطاني ، لا لشيء إلا لتحاشي مناقشة أي أمور جادة . وقال إن هذا يوم له خصوصيته عنده ، إذ لا يفعل فيه أي شيء سوى الاستماع إلى أناشيد الورع العلوية ، وما إن يدخل أحد الضيوف لا يعود بوسعه أن يغادر حتى ينتهي الإنشاد . فإذا ما لاحظ الدراويش أي شخص يغادر الغرفة فسوف يهرعون إليه ويطعنونه بخناجر الورع العلوية أيضاً . سُمح للسيد الإنجليزي بالذهاب بعد مرور ساعة كاملة . "

" ذلك كله ظريف يا حسن بابا ، ولكن ما شأن هذه المرأة؟ "

بدأ العجوز يضحك عند استدعائه الذكرى . " رفضت أن تشاركه فراشه ما لم يتزوجها . فاستدعاني أنا وبتروشيان إلى غرفة النوم وأخبرنا ، وهو يغمز ، بأن نزوجهما . وقّع بتروشيان على صفحة من الورق كشاهد على العقد ، وغمغمتُ أنا بأي كلام فارغ ووضعتنا يديهما معاً . ثم أخبرها إسكندر باشا أنهما الآن قد أصبحا زوجاً وزوجة وطلب منا أن نغادر الغرفة ، مستوثقاً من أنني أخذت الورقة الموقعة معي . بعد تمتّع بها لثلاثة أسابيع أو أربعة ، ضجر منها ، فطلّقها في حضورنا وفي الغرفة ذاتها ،

ولكنهما افترقا دون ضغائن . أظن أنها أدركت أن تلك المراسم لم تكن أمراً جاداً، رغم أنه لو شاء لتزوجها زواجاً رسمياً . ما هي إلا شهور قليلة وتلقى دعوة لحضور حفل زفافها على أحد الأرسقراطيين . كانت مخطوبة له طوال ذلك الوقت . "

" وهل حضر هذا التركي الشهبواني الزفاف؟ "

" طبعاً حضر ، فهو صاحب واجب في تلك المسائل . ذهب مرتدياً زيه الرسمي العثماني كاملاً ، بما في ذلك سيف الاحتفالات ، مصطحباً بتروشيان في الزي الموحد للانكشارية ، رغم أنهم قد تسريجهم في ذلك الحين . "

" ما سبب مجيئها إلى هنا في رأيك؟ "

هزّ العجوز منكبيه بينما كان أورهان وأمينة يندفعان إلى داخل المنزل ومعهما قواقع مختلفة الألوان ، كان وجه كل منهما متورداً من فرط التعب . تبعهما أبي وسليم بعد دقائق قليلة .

" هناك ضيفة تنتظرك في غرفة الاستقبال يا أبي . "

" ولماذا في غرفة الاستقبال؟ "

" رأى بتروشيان أنها المكان الملائم فوافقته . "

خلع قبعته وتبعته إلى غرفة الاستقبال .

أطلقت صيحة فرح حادة الصوت عندما وقعت عيناها عليه . غمغمت قائلة : " يسكنداه ، كم أنت وسيم كما كنت دائماً ، أيها الشيطان . فاجأتك؟ "

اندهشت لما أبداه إسكندر باشا من هدوء ورزاقه بينما انجحه نحوها وقبل يدها الممدودة نحوه . أهو خيالي أم أن حركاته اتخذت سمناً باريسياً طفيفاً؟ أنا والبارون ومحمد تبادلنا نظرات وأشحنا بعيداً ، خشية من أن نفقد رصانتنا وننهار تماماً قبل أن نغادر الغرفة .

"مرحباً بك في بيتي يا إيفيت . أرجو أن يكون أخي ونيلوفر قد رحبوا بك . أنا لست متفاجئاً للغاية بوجودك هنا لأنني قرأت خبر تعيين الفيكونت سفيراً لفرنسا هل تمت مراسم تقديم أوراق اعتماده في القصر؟"

ابتسمت . "أوه ، نعم ، وكانت رائعة . كما تعرف ، لقد كنتُ على الدوام مغرمة بالسفراء وبأزيائهم المميزة . كانت المراسم كأنها خارجه من كتاب ألف ليلة وليلة ، شيء مثل السحر ، شعرتُ كأنني أميرة ."

قاطع البارون حديثهما . "قبل أن تدخل حالاً يا إسكندر ، كانت مدام دي مونمورينسي تقول أن ما محتاج إليه حقاً في الوقت الراهن هو بضعة حروب سريعة في أوروبا . لم أستوعب تماماً مغزى ما تقولينه يا مدام ، ولكن إذا كان فهمي صحيحاً فإنك تعتقدين أن هذا من شأنه أن يحسّن جينات هؤلاء الذين سينجون من الحروب . فهل أسأتُ فهمك؟ هلاً تعطفت وأعدت علينا هذه الحجّة الفلسفية المتضمنة في هذا؟"

غفلت السيدة تماماً عما في حديث البارون من سخرية .

"يمكنني طبعاً ، مسيو بارون ، وفي هذه المرة فلتكن ولدأ طيباً واستمع بانتباه . في رأيي أننا إذا لم نحظّ بالمزيد من الحروب فستواجهنا مشكلات خطيرة جداً جداً . ستكون هناك أعمال قليلة جداً متوفرة أمام عدد كبير جداً

من الرجال، وسوف يصيرون مجرمين ويشرعون في فعل أمور خطيرة. وسوف يلقون تشجيعاً من أولئك المحرضين الاشتراكيين الذين يحاولون دائماً إثارة المشكلات، مثل ذلك الرجل الخلاسي من كوبا. أظن أن اسمه لافارج. إذا وُجد عدد أكثر من اللازم من الناس بلا عمل فإن هذا يشكل خطراً، ولن يعود بوسع الأشخاص الذين في مكانتنا أن يشعروا بالأمان. في تلك الظروف، فمن الجيد أن يلتحق الشباب من الطبقات الفقيرة بالجيش ويقتلون بعضهم بعضاً، أليس كذلك؟ أما أولئك الذين سينجون من الحرب فسيكونون هم الأفضل وسيحسنون العمل بعد تجربتهم تلك، فأني شيء أفضل من أن يلقوا حتفهم. وهكذا فلن يشنوا الحرب ضد هؤلاء الذين يمنحونهم العمل وبهذه الطريقة تنتعش بلادنا كلها. في الأزمنة القديمة كان الأطباء يستخدمون العلقات لتمص الدم من المرضى، سنفعل ما هو خيراً من هذا. سيكون أمراً طيباً على وجه العموم، فإن بعض القذائف في شارع فونتين لن تزعجني بلا ضرورة. أليس أمراً بسيطاً؟

أومأنا ثلاثتنا برؤوسنا في همة وحماس.

قال محمد: "تماماً يا مدام، بسيط جداً. والآن إذا سمحت لنا، فأنا والبارون ونيلوفر لدينا ما ناقشه حول ترتيبات نزهة خلوية للطفلين غداً."

جلسنا في صمت على مقعد في الحديقة. أفضيتُ لهما بما أخبرني حسن بابا، ما حدا بالبارون أن يطلق شجرة سخط.

"ظننتُ أن ذوقه أفضل من ذلك. إن امرأة رخيصة من موغمارتر ستكون أثنى قيمة من هذه!"

"لطالما كان إسكندر ضعيفاً قليلاً أمام النهود الوافرة" ، قال العم محمد في محاولة لالتماس العذر لحماقات أخيه الصغير . "ولكني متفق معكما . لا يوجد في هذه المرأة أي شيء يزيكها ، لذا ينبغي على لجتتنا للأمن العام أن نتحرك على الفور وتأمراً بإعدامها!"

ضحكنا ، ثم قدمت للصيديقين سبباً أفضل لعماء إسكندر باشا . "لا أظنهما كانا يتحدثان كثيراً حينما كانا معاً ."

ليس بالإمكان هزيمة البارون ، وافقني قائلاً: "كلاً ، لا أظن أن إسكندر باشا قد حقّزها على بذل أي مجهودات فكرية ."

ضحكنا ثم ضحكنا من جديد ، فوجد إحباطنا مما عانيناه على يدي زوجة السفير الفرنسي متنفسه الطبيعي . اعتقد كلا الرجلين أنها لم تأت إلى هنا إلا لتثير الإعجاب ، لكنني لم أكن واثقة من هذا . شعرت أن ثمة أمر آخر وتمنيت ألا يكون أمراً من شأنه أن يزعج إسكندر باشا . لقد تعافى تماماً من إصابته بالجلطة ، ولكن الأطباء قد انفقوا جميعاً على ضرورة الراحة لعام كامل ، أخبرونا ألا نطلعه على أي أخبار سيئة ما لم تكن مسائل ذات أهمية . أنذرتني غريزتي بوقوع ما يسوء من جانب هذه المرأة ، فما هي إلا الأخبار السيئة بعينها .

لله الحمد ، لم تمكث طويلاً . قبل أن تنقضي ساعة تم استدعاء حوذي عربتها وغادرت . وقفنا جميعاً على سلّم الشرفة الخارجية ولوّحنا لها تحية الوداع . بدا أن إسكندر باشا في مزاج سليم لأقصى حد ، كان يقبض على دفتر كتابة وبعض رسائل قديمة ربطت معاً بشرائط معقود .

قال محمد: "والآن ، ماذا كانت تريد؟"

أجاب أبي: " لا شيء، لا شيء بالمرّة. أعادت لي بعض الرسائل ودفتر يوميات كتبت فيه بضعة شهور حينما كنتُ في باريس. "

" أهذا كل ما هنالك؟ " تساءلت.

" هناك أمر واحد ذكرته، غير أنه ليس بالشيء المهم. أرثني صورة فوتوغرافية لأكبر أبنائها. أخشى أن وريث لقب فيكونت مونمورينسي سيكون ذا سحنة عثمانية. "

كنتُ أعلم أنها لم تحضر إلى هنا بلا سبب وجيه. لم أكن أطيع صبراً لإخبار سلمان و خليل بأن لهما أخاً نصف فرنسي.

تساءل محمد: " وهل الصبي هنا؟ "

أجاب أخوه: " كلاً، إنه في أكاديمية سان سير العسكرية. "

سأل البارون: " ألها أطفال آخرون؟ "

" نعم، ابتتان، ويبدو أنهما نسختان طبق الأصل من أمهما. "

قال محمد: " كان الله في عونهما. "

قلتُ مغیظة له: " هل رسائلك إليها ودفتر يومياتك التي أعادتها للاطلاع العام؟ هل ستوضع في المكتبة كوثائق ذات أهمية تاريخية؟ "

أجاب: " المراهقات من هذا النوع ينبغي تدميرها على الدوام. اليوميات، إن لم تخني الذاكرة ليست ذات طبيعة شخصية بأي قدر. انتظري دقيقة يا نيلوفر، سوف أعيد قراءتها لأقرر ما إذا كان من الممكن أم لا وضعها على رف في مكتبتني. "

كنتُ مشوشة قليلاً من رد فعله الرزين أمام ما كشفت عنه إيفيت .
فهل كان حقاً غير مكترث كما كان يبدو؟ ألححتُ عليه أكثر .

"أبي، أليس لديك أدنى فضول نحو هذا الصبي؟ ألا تودّ أن تلتقي به
ولو مرة واحدة فقط؟"

"كلاً، يا بُنيّتي، كلاً"، احتضنتني وقبّل جبيني . "أنسيت ما قلته لك
قبل بضعة أسابيع؟ روابط الدم لا أهمية كبيرة لها عندي . "سحبني من يدي
بعيداً عن محمد والبارون، سرنا صامتين حتى حافة الحديقة .

"أخبريني يا نيلوفر . هل يتتابك أحياناً الفضول نحو والدك الحقيقي؟
هل تودين رؤيته بشحمه ولحمه، ولو مرة واحدة فقط؟ كوني صريحة
معي ."

"نعم"، سمعتُ نفسي أقول . "نعم، أودّ، ولكن ليس من أجل
نفسي . أود أن أرى ما الذي جذب أمي إلى هذا الحد في صباها ."

قال إسكندر باشا: "إذا شئت يا بُنيّتي، يمكننا بكل سهولة أن ندبرّ لك
زيارة لنيويورك . يمتلك أخي كمال سفناً تبحر إلى هناك بصفة منتظمة . يمكن
ترتيب رحلة بحرية لكم جميعاً دون أية صعوبات ."

احتضنته بشدة عند هذه النقطة . "اسمعي . ليس بي أي رغبة في
السفر لشهرين لمجرد أن أرى وجه هذا الرجل . أنت أبي . كل ما قصدته أنه
لو تصادف وجوده في إسطنبول ذات يوم، سيدفعني فضولي للذهاب
لرؤيته، وليس لأتحدّث إليه حتى، ولكن أن أراه فقط . فضول امرأة، لا
أكثر ولا أقل ."

ابتسم، ثم شرع يضحك. أردتُ أن أعرف ما سر ضحكه، لكنه هزَّ رأسه وأوحت إشارة يده بتفاهة الأمر. أصررتُ وقد استرحت لابتعادنا عن موضوع الآباء الحقيقيين والأبناء الحقيقيين.

"عندما قلت "فضول امرأة" تذكرت حكاية من زمن صباي. كنت في السادسة عشرة أو السابعة عشرة حينذاك وفتنتُ بامرأة متزوجة، كانت كثيراً ما تزورنا في منزلنا بصحبة زوجها. كانا من أصدقاء الأسرة. كانت في غاية من الجمال، أو هكذا اعتقدت أيامها. كان لها وجه بيزنطي حقيقي، أعتقد أنها كانت تنتمي إلى إحدى أقدم العائلات في المدينة. بدأتُ أحملق فيها بكل وقاحة فتلقيتُ توبيخاً من أمي على انفراد. كنتُ أتبعها بينما تتردد على الأسواق والمتاجر، وكلفتُ بعض أصدقائي من المدرسة بمراقبة منزلها، الذي لم يكن بعيداً للغاية عن منزلنا. اشتكت لأمي، فأذرنني أبي إن لم أكف سوف يُنزل بي أشد العقاب. لم يكن لتهديداته أي أثر عليّ."

"وذات يوم أتى أعز أصدقائي لرؤيتي ومعه معلومة مهمة. اكتشف أنها تتردد على حمام عام للسيدات كل خميس. كم أبهجتني وأثارتني هذه المعلومة، واشتعل خيالي بالنيران. استحوذت عليّ رغبتني أن أراها متجردة من ثيابها جميعاً، وهو الهدف الذي رشوتُ من أجله القائمات على الخدمة في الحمام. تبدو عليك الصدمة، ولكن هذا كان أمراً مألوفاً تماماً في ذلك الزمان، ليس للصبية في مثل عمري بالطبع، ولكن للرجال الشباب الراغبين في رؤية أجساد زوجاتهم باعتبار ما سيكون، وما إذا كانت أجسادهنّ فيها عيب ما، فكانوا يدفعون لخدمات الحمام بحيث يمكنهم التلصص على المرأة

موضع الاهتمام . يقولون إن بعض النساء فعلمن الأمر نفسه في حمام الرجال ، ولكنه كان أقل شيوعاً . جميع تلك الحمامات كان لها أسرارها الصغيرة . على أي حال تصرفت وثلت ما أردت ، وكان منظرأ يسر العين . سأوفر على كل منا حرج الخوض في وصف تفاصيلها . ولكن منذ تلك اللحظة فصاعداً ، أصبح الخميس هو يومي المقدس ، يوم النعمة الخالصة ، وساعات أصيله هي الحرم المبارك . مضت الحياة على ما يرام إلى أن أخبر أحدهم أبي - وحتى يومنا هذا لا أدري من يكون الواشي . ذات مساء ، وبعد أن شاهدت امرأتين يمسدان ويدلكان كل ركن من أركان جسدها الرقيق اللين بعناية مُحبّة ، عدتُ إلى البيت أسبح في غشية سماوية . كنتُ مستعداً لأن أهرب معها إلى ألبانيا إذا رغبت في ذلك . حينما بلغتُ منزلنا ودخلتُ من الباب الأمامي ، وجدتُ أبي في الردهة حيث كان بانتظار عودتي . كان وجهه مكسواً بالغضب والاشمئزاز . كانت تلك هي الصدمة الأولى .

" أين كنت يا أفندي؟ أريد الحق ولا شيء غير الحق ! " الصدمة الثانية نزلت عليّ من نفسي ، إذ صعقتُ نفسي ذهولاً وأنا ألق له كذبة من العيار الثقيل لمجرد أن أفلت من العقاب . " كنتُ أمام القصر يا أبتى ، فقد توفى الله سلطاننا . " وقد صدّق أبي قولِي هذا فتبدّل مزاجه فوراً . هرع للطابق العلوي ليستحم ويرتدي ثيابه الرسمية بحيث يمكنه أن يحضر صلاة الجنائز في الجامع الأزرق . اختبأت في غرفتي وتساءلتُ ترى ماذا سيحدث عندما يعود أبي . سمعته يدخل البيت فبدأ بدني يرتعش . توقعت أسوأ الاحتمالات ، ولكنه أتى وطمأنني . قال إنها كانت إشاعة كاذبة ، فرغم أن السلطان نزل به مرض شديد ليلة أمس ، لكنه لم يميت . لم أستطع أن أصدّق مقدار حظي الطيب . لعلّ تلك الواقعة هي ما دفعتنِي نحو روحانية الصوفيّة بعد ذلك

بسنوات قليلة . طوى النسيان مسلكي المشين . وهكذا كما ترين يا نيلوفر ،
الفضول غير مقصور على النساء وحدهن ! "

(١٨)

موت حسن بابا، الذي يحظى بدفنٍ صوفي؛
وعودة كمال باشا؛
وغضبة سارة

سمعتُ طرقاً خفيضاً على الباب . كان سليم مستغرقاً في النوم ، لا شيء يمكن أن يوقظه ، لا شيء بالمرّة . صرتُ مقتنعة أن بمقدوره النوم في أثناء زلزال . فكّرت أن الطارق قد يكون أحد الطفلين فنهضتُ من الفراش مسرعة ، غطيت نفسي بروب وذهبت إلى الباب . كانت أمي .

همستُ : " لا بدّ أن توقظيه ، لقد جاءتني الخادماوات للتو وأبلغنني أنهن حينما أخذن الفطور إلى غرفة حسن بابا وجدن المسكين قد توفاه الله . سأخبر أباك الآن ، سوف يأسف لهذا النبا للغاية . "

كان عليّ أن أهز سليم هزاً شديداً لأوقظه . نزل عليه الخبر كالصاعقة وشرع يبكي .

" لقد عاش حياة طيبة يا نيلوفر . هكذا اعتاد أن يقول ، كانت حياة طيبة ، ولهذا عشتُ هذا العمر المديد . كنت أعرف أنه مُسن ، لكنني لم أرد

له أن يموت . لم يكن مؤمناً تقليدياً بالمرّة . اعتاد أن يسألني ما أحب حيوان إلى قلبي فأجيبه بأنه "النسر" ، فيقول لي : "عندما أموت يا سليم سوف أصيرُ نسرًا . " ، كان ينتمي إلى إحدى التكايا الصوفية ، ممن يؤمنون بأن من يبلغ الكمال في هذا العالم يمكنه أن يختار أي شكل مادي يرغب أن يعود فيه إلى الحياة بعد الموت . سوف أفقده يا نيلوفر . سوف أفقده . "

خرجنا من المنزل وعبرنا الحديقة إلى الغرفة الصغيرة التي كان جسده مسجى فيها . نهض إسكندر باشا حينما رأنا وعانق سليم . شرع كلا الرجلين يبيكان .

"لقد فقدتَ أبًا وجدًا يا سليم . إنه إنسان لا يمكن تعويضه ، أعلمُ ذلك خيرًا من أغلب الناس ، ولكن فلتتذكر دائمًا أنني هنا من أجلك متى ما احتجت لي . "

كان حسن بابا قد طلب أن يُدفن على ربوة تبعد بضع مئات من الياردات عن موضع المرأة الحجرية . أمر بذلك كبير البستانيين قبل أسابيع معدودة فقط ، كما أوضح له إلى أي عمق بالضبط عليهم أن يحفروا وأين ، ومنذ وفاته هذه الصباح وهم يحفرون قبره وفقًا لتعليماته المفصلة . ظل بتروشيان يشرف عليهم وهو يبكي . كان له مع الراحل ذكريات مشتركة كثيرة ، كبر كلاهما معاً وسط هذه العائلة ، وفي الأيام الخالية سافرا إلى كل مكان بصحبة إسكندر باشا . لقد عرفا عن هذه العائلة أكثر مما عرفه أيُّ منا . اصطحب حسن بابا العديد من الأسرار معه إلى قبره . كان بتروشيان الآن هو الباقي الوحيد ، وهو لم يتحدّث عنا مع أي مخلوق .

طلب حسن بابا بأن يُدفن قبيل الغروب مباشرةً. كان جميع أهل البيت حاضرين، رجالاً ونساءً، سادةً وخدمًا، عندما أنزل إلى القبر المحفور حديثاً. كانت الأرض رطبة وعبير الأزهار البرية والأشجار سوف تروّح عنه. وفدّ قليلون من أقرب قرية، على مبعدة كيلومترات قليلة من منزلنا. رفعنا أيدينا وأدينا صلاة الجنائزاة وتلونا آيات من القرآن الكريم. سليم بقى وحده بعيداً عنا، لم يكوّر يديه ولم يتلُ آيةً ولا دعاءً. بدلاً من ذلك، وبعد أن فرغنا، حلّق صوت سليم عاليًا مثل نسر إذ راح ينشد شعراً صوفياً ليشيّع به المعجوز الذي كان له الأب والمعلم.

"أنشدُ هذا من أجلك يا حسن بابا"، قال سليم بصوت متهدّج دفعني للبكاء. "أنشده هذا من أجلك يا نسري."

آه أيها الصوفي، المسجد والحانة لديك سواء،
صوت التقي وصيحة المخمور لديك سواء،
ذكر الله وكأس النبيذ لديك سواء،
لأنك نزعْتَ ثوب النفاق والرياء،
بفضلك عرش السلطان وعصا المُستجدي سواء،
لأنك احترقت بنار الحب،
بفضلك الشمعة والفراشة سواء.
كُن نوراً وانظر، كن نوراً وطرفِ في الفضاء،
لأنك الآن والنسر سواء.

حينما فرغ سليم من إنشاده لم تكن هناك أعين لم تتبلل بالدموع بين جميع الحاضرين. عاتق كل من بتروشيان وإسكندر باشا سليماً وقبلاه.

أحاطا به عن جانبيه، كلٌ منهما يمسكه من ذراع، وقاداه إلى داخل المنزل. تبعتهما إلى الرواق حيث ارتقى سليم على الدرج وفقد كل سيطرة على نفسه. بكى في صمت. ضرب رأسه في درابزين السلم، ثم ناح بصوت عال، مخاطباً حسن بابا طوال الوقت، مشيراً إليه بقوله "الرجل الكامل". جلستُ بجانبه وبرقة أخذت رأسه إلى حجري، ومسدتُ شعره وجبينه. لم أعد أعرف كم من الوقت جلسنا هناك، لكن كان بتروشيان هو من أتى ليخبرنا بأن مآذبة الجنازة قد مدت في الحديقة. نهض سليم واقفاً في الحال، مسح دموعه عن وجهه وأنهضني. كان يبتسم.

"والآن تعالي نحتفي بحياته لا موته."

كان الظلام تاماً بالخارج، غير أن قناديل الزيت قد أحالت ليل الحديقة نهاراً. أرسل إسكندر باشا عربة لكي تجلب الموسيقيين من قرية تبعد حوالي عشرين كيلومتراً عن منزلنا. كانوا دراويش وبدأوا يعزفون على آلاتهم كما لو كانوا يسبحون في غشية غيبتهم عن هذا العالم، وقد أخبرني سليم في وقت تال من هذا اليوم أن هذا لا يرجع لهيامهم في مالك الملك بل لغرامهم بالحشيش. على السفود كانت تشوى ثلاثة خراف. أعدتُ قدور ضخمة من أرز مميّز، وبسطت صحاف الفاكهة على جميع الموائد. كان بعض الأفراد ينشدون المدائح للمتوفى.

دون تمهيد أو إشعار، توقّف الموسيقيون عن العزف ونهضوا. راحوا يصفقون لجذب انتباهنا وأشاروا لجميع الحاضرين بالانضمام لهم. وقد فعلنا وبدأوا يدورون على طريقة المولوية، مشجعين لنا أن نحدو حدوهم، وهو ما فعلناه حتى نال منا الدوار فسقطنا أرضاً لتتعافى. كان قدراً كبيراً من

النيذ قد تم شربه من قبل ، غير أن الدراويش ظلّوا يدورون حول أنفسهم ، إلى أن نال منهم الإعياء هم أيضاً فتوقفوا . وبدلاً من الارتياح ، كما فعلنا ، بدأوا يعزفون موسيقاهم من جديد بنشاط قد تجدد .

كنا نتناول الطعام حينما اقتربت عربة ثم ترجلّ منها رجل متوسط الطول ذو شعر رمادي كثيف ثم وقف وأخذ يتنشق هواء البحر . بتروشيان ، اليقظ دائماً وأبداً ، سمع ضجة العجلات على الطريق المفروش بالحصباء ، فهرع يستقبل الضيف .

" يسرني أنك ما زلتَ هنا يا بتروشيان " ، كان صوت الرجل مألوفاً على نحو غريب . " بسم الله الرحمن الرحيم ، ما الذي يجري هنا؟ أهو زفاف أم جنازة؟ "

" جنازة يا كمال بيه . مات حسن بابا وهو نائم ليلة أمس . "

متى رجع العم كمال إلى إسطنبول؟ هرعت لأجد سلمان ، وعدنا معاً لتحيته .

" يؤسفني أن أسمع هذا يا بتروشيان " ، قال عمي كمال . " سأفتقد هذا الوغد المعجوز ، رغم أنه اعتاد أن يقصّ لي شعري قصيراً للغاية وأنا صبي . كان يزعم أنه ينفذ أوامر أمي ، ولكنني لست متأكداً من هذا . سلمان! ما أسعدني برؤيتك من جديد يا ولدي . وها أنت قد استعدت ابتسامتك مرة أخرى . "

تعانق الرجلان وتبادلا القبلات على الوجنت .

" وأنت " ، قال وهو يتفحصني بعناية . " من تكونين منهما؟ "

ضحكت لصراحته . " نيلوفر . "

" طبعاً! لا أستطيع رؤية عينيك الخضراوين . خسارة أنهما لا يبرقان في الظلام . أين طفلاك؟ أنا حزين لما ألمّ بمعلم المدرسة اليوناني . أخبار في غاية السوء . "

أبلغه سلمان : " لقد تزوجت من جديد . "

" جيد " ، قال العم كمال . " أنا عن نفسي أبغض الانتظار الطويل .
وها هما شقيقاي . "

بعد أن تبادلوا الأحضان والضحكات ، أمر العم كمال بغرفة وحمام ووجبة .

" كنت أتطلع لعدم الاستماع إليك تتحدث ، يا إسكندر . سيكون هذا تغييراً في حياتي ، وهكذا وثقتُ في حظي الطيب ، فعدتُ لأعرف أن الله قد شافاك وعافاك . طوال طريق الرحلة على السفينة وأنا أتخيل كيف سأسري عنك بحكاياتي وكيف ستكون عاجزاً عن مقاطعتي كلما رددتُ نكتة حمقاء ، ولكن لا ، لم يشأ الله ذلك . لماذا لم تبقَ أخرس لأسبوع واحد آخر؟ "

ضحك الشقيقان واصطحبا عمي كمال إلى غرفته . كان منهك القوى ولم يعد إلى النزول من غرفته مرة أخرى . أخذ بتروشيان بعض الطعام والنبيد إلى غرفته ، وأجاب بلا شك على أسئلته حول أحوال العائلة . حينما نزل بتروشيان سألت أُمي متى عاد كمال من إسطنبول .

" رست سفينته في الميناء في موعد الغداء يا حضرة الهانم " قال بتروشيان . " ذهب إلى بيته ، وأمر بعربة لإحضاره إلى هنا ولم يمكث في منزله حتى ليبدل ثيابه . "

غلبت الضحكات أُمي . " ما أغربه من رجل عمك هذا! إن لم يكن بوسعه تحمّل رؤيتهنّ ، فلماذا لا يفعل شيئاً ما؟ "

" لكنه يفعل ، يا أُمي خديجة " ، انضمّ سلمان إلينا في غرفة المكتبة وقد أغلق النوافذ الآن ليحجب عنا ضجة الموسيقيين . " إنه يسافر حول العالم كله ويتجنب رفقتهن . أعتقد أنه سعيد بحياته . يمكنه أن يطلق زوجته ، ولكن سيظل عليه أن يعتني بها وبابنتيها القبيحتين ، فلماذا يتجشم العناء؟ أعتقد أنه يفعل ما يرضي جميع الأطراف . "

تساءلت أُمي : " أهو سعيد حقّاً يا سلمان؟ "

" ومَن منا سعيد حقّاً ، يا أُمي خديجة؟ لا أظن أنه يوجد على الأرض ما يُسمى بالسعادة الحقيقية . إنها من اختراع الشعراء . تمر حياتنا كلها بمراحل مختلفة وإحدى تلك المراحل غالباً ما تتسم بالسعادة ، ولكن هل تدوم أبداً؟ لا أعتقد هذا . هناك على الدوام فوضى عاطفية دائمة في حياتنا ، وهو لا يتيح أي استقرار لمسألة السعادة تلك . ألا نوافقين على نظرتي يا نيلوفر؟ "

" أنا وسليم في غاية من السعادة معاً ، يا سلمان! "

" وكم أرجو أن تدوم سعادتكما طويلاً ، يا نيلوفرتي الجميلة . لن أنكر أبداً أن هناك استثناءات لقاعدتي ، ولكنها أبعد ما تكون عن أن تنفيها بل تشتها . يبدو عمنا كمال مبتهجاً للغاية ، وهي علامة ليست جيدة ، لأن هذا يعني أنه سوف يبدأ في سرد حكاياته على مائدة الفطور وسوف نواصل الاستماع إليها إلى أن يحل موعد تقديم وجبة المساء . سأخلد إلى النوم بحيث

أستطيع أن أشحن الطاقة اللازمة لتجاوز يومٍ غدٍ . فالسلام عليكما . أمرٌ واحدٌ أخيرٌ يا نيلوفر ، خشية أن أنسى . أرجو أن تقول لي لسليم أن أغنيته قد مست أعماق روعي . لقد كنتُ أبكي شأن جميع الآخرين . إنه له صوت رائع الجمال ، وسيكون خسارة كبيرة في الجيش . "

أوشكتُ أن أعود إلى الحديقة مرة أخرى لأجلس بجانب سليم ، ولكن أمي نصحتني بأن أتركه الليلة ينفرد بنفسه . شعرتُ بأنه سيكون من الأفضل لو ترك ليودع حسن بابا بطريقته الخاصة دون أي تضيق من الآخرين عليه . أردتُ أن أقاسم الموسيقيين كأس نبيذ وقد وعدتهم بالرجوع ، غير أن أمي أقتعتني ألا أفعل .

"الأغلب أنه سيظل ساهراً طوال الليل لينشد من جديد عند القبر مع شروق الشمس . دعيه يفعل ، فهي ليلة جميلة . تعالي معي ولنشرب بعض الشاي بالنعناع . "

كنت مرهقة . أخذت أمي تدلك رقبتني في رفق ولين بينما أحسو الشاي . لم نتحدث لوقت طويل . لم تفعل هذا منذ وقت طويل للغاية وهكذا دفعت لمسات يديها بانفعالات اليوم كله إلى ذروتها الحرجة ، فشعرتُ بالوهن وغلبتني عواطفني ، وأخذت الدموع تغسل وجنتي . لبثت أمي صامته وهي تمسح دموعي وتقبلني . أخبرتها عندئذ بالعرض الذي قدّمه لي إسكندر باشا بأن يرتب لنا رحلة إلى نيويورك حتى أرى أبي الحقيقي . أدهش هذا سارة كثيراً بقدر ما سرّني ، ولكنها اتفقت بشدة مع ما قاله أبي بشأن روابط الدم .

"تعلمين يا نيلوفر، إذا ما رأك سليمان الآن فسوف يشعر بالخرج . سيكون وجودك أداة تذكير دائمة بجنبه . حتى لو أراد فلن يستطيع أبداً أن يجبك ويقدرك بقدر إسكندر باشا ."

وافقتها على هذا، ولكن إذا كان هذا هو الحال معي، فلا شك أنه ليس هكذا بالنسبة لها . لماذا لم تحاول حتى أن تُغرم بزوجها الجديد؟

"أنت شديدة البراعة في فن الكلام، يا نيلوفر . انظري ماذا حدثَ حينما حاولت أنت أن تُغرمي بذلك اليوناني النحيل المسكين . لقد استطعت إقناع نفسك بمنتهى البراعة، وللأسف أقنعتة هو أيضاً . وانظري النتيجة . لقد تركته، وترك نفسه ليُقتل . الطفلان بلا أب والآن قد أغرمت مرة أخرى . أعلم، أعلم، هذه المرة وجدت الشيء الحقيقي . حسناً إذن، لقد وجدتُ الشيء الحقيقي ذات مرة وقد خذلني أشد الخذلان . ما زلتُ أفكر في خيانتة لي، تصوّري . منذ أيام رحّتُ أفكر إننا حتى لو لم يكن بوسعنا أن ننجب طفلاً كان ما زال من الممكن أن نعيش معاً . كان عليه ألا ينكمش ويخضع في وجه معرفة أبي المتفوقة - والتي اتضح أنها معرفة خاطئة على كل حال - أو في وجه أمواله . ربما لم نكن مناسبين لأحدنا الآخر حقاً . لا بدّ أن أمي ظلّت تردد هذا مئات المرات كل يوم، وكان عمي سفره يردد قولها هذا كلّما أتى لتناول الغداء في منزلنا كل أسبوع . وجميع صديقاتي كرروا هذا على مسمعي بعد أن هرب إلى نيويورك . لكنهنّ لم يقلن هذا قط حين كنا سعيدين معاً، لم يقلن هذا قط حينما كنتُ أحكي لهن عن مغامراتي مع سليمان، ولا حين كن يرينا معاً في مناسبات نادرة ويلاحظن كم كنا متقاربين إلى أحدنا الآخر وعلى طبيعتنا تماماً . لم يقلن هذا إلا بعد أن انتهى

كل شيء، وهجرني كما يجدر بالجرذ الصغير الذي يوشك أن يكونه، عندئذ اكتشف الجميع فجأة كم كنا غير مناسبين بالمرّة لأحدنا الآخر. كنت أعرف أن كل هذا كلام فارغ، لكنني صدقتهم في ذلك الحين. أردت أن أصدقهم، كان عليّ أن أصدقهم. كانت هذه هي الطريقة الوحيدة أمامي لكي أرمم حياتي من جديد وأمضي للأمام.

جلستُ مرتبعة في مواجهتها مباشرة ونظرتُ في عينيها مباشرة.
" لا تفعلني هذا يا نيلوفر. إنه يذكرني به. "

كانت في مزاج عسير، ولكنني ألححت. " اسمعيني، أعرف شعورك ناحيته ولماذا ما زلت غاضبة، بعد أن مضت ثلاثين عاماً تقريباً، ولكن ليس هذا ما أسألك عنه الآن. ما زلت تتحدثين وكأن ذلك كله قد وقع بالأمس فقط. لا يمكن أن تظل الجروح مفتوحة ومؤلمة طوال ذلك الوقت يا أمي. كنتُ أسألك عن أمر آخر. بعد مولدي بخمس سنوات، أو عشر أو عشرين، كان لا يزال بوسعك أن تحاولي كسب حب إسكندر باشا، وأن تجعله يحبك. إنه إنسان رائع، كما _ "

" توقفي يا نيلوفر! لقد اكتفيت من هذا اللغو. زوجي رجل صالح وكريم وأنا مرتبطة به. لا يوجد أي توتر في علاقتنا، ولكن لا يوجد أيضاً أي شغف. لا أنا ولا هو نطمح إلى ما فوق ذلك. لذا فلتعفيني من دور الخاطبة الذي تلعبينه في هذه المرحلة من حياتي ولتركزي على سعادتك أنت. أشعر أحياناً أن هناك قدراً كبيراً من الرومانسية في داخلك، مفرطة في عفويتك واندفاعك واتباع غريزتك. لا تفكرين قبل أن تفعلني. "

بدأت أضحك منها. "ومن أين، في ظنك، ورثت هذا الطبع؟ ليس منه! لا يمكن أن يكون منه، لأنه قد رضي بعرض جدي من القطع الذهبية - وأنا واثقة أنها كانت ذهبية، وليست فضية - وتخلّى عنك وعن كل غريزة في جسده. أليس هذا صحيحاً، يا أمي؟ فمن تظنين أنني شببتُ على صورته؟ أنت أم ذلك الجرذ؟"

لم تضحك كما تمنيت، ابتسمت فقط. "قومي لتنامي الآن، يا بُنيتي. لقد تعبتِ جداً اليوم."

(١٩)

شذرات من حياة كمال باشا؛
وظموحه لإنشاء أكبر شركة سفن بخارية في العالم؛
ونيلوفر تتأمل في السعادة ومعنى الحياة؛
وموت مريم

" كلاً، لم يكن الأمر كما تقول يا إسكندر . "

كنا لا نزال على مائدة الفطور ، وكان عليّ أن أتذكر أن الإخوة الثلاثة لم يجتمعوا على مائدة واحدة منذ وفاة أبيهم قبل ما يقرب من ثلاثين عاماً ، وقد هيمنوا على الحديث تماماً . وقف بتروشيان في الركن ، منصتاً إلى كل كلمة وسامحاً لنفسه بأن تضيء ابتسامة غريبة وجهه .

كان أبي قد أشار لتوّه إلى أن العم كمال كان شخصاً منعزلاً ومستغنياً بنفسه عن العالم هكذا حتى حينما كان طفلاً وكان أبوهم معجباً به لذلك ، ظناً منه أنه قد يصير مفكراً أو فيلسوفاً عظيماً . غير أن كمال باشا قد أنكر هذا الادّعاء . " أحسبُ أنه لم يكن هناك إلا تفسير واحد مُحتمل . لقد كانت الحقيقة بخلاف ذلك . لقد تعلّمت الاعتماد على نفسي منذ سن مبكرة

ليس لأنني كنتُ كئيب المزاج أو أفضل صحبة نفسي على الآخرين ، ولكن لأنك أنت ومحمد كنتما تستحوذان على الكثير للغاية من انتباه الجميع طوال الوقت . أتذكر أننا وهي تقول لي في إحدى المناسبات كم كان سيكون لطيفاً لو أنني ولدتُ بنتاً ، بحيث كان يمكنها أن تلبسني ثيابها وتريني بحليها . كانت طريقتها في الإعراب عن أمنيته لو أن بوسعها أن توليني مزيداً من الانتباه . "

ابتسم محمد ابتسامة عطوفة . " أمّا ذاكرتي أنا فمختلفة بعض الشيء ، أتذكر تعرّضني للتوبيخ الشديد لأنني أتجاهلك . وقد سألتني أبي ذات مرة إن كنتُ قد غضبت عند ولادتك ، وقد أربكني سؤاله ولا بدّ أنه رأى ذلك في وجهي . وشرح لي أن جميع الممتلكات ، باستثناء هذا البيت الذي أوصى يوسف باشا بأن يرثه الابن الأكبر ، سوف يتم تقسيمها ثلاثة أقسام متساوية . وعندئذ قلتُ له إن هذه الفكرة لم تخطر لي بالمرّة ، وأحسب أنه لم يصدّقني . أفترضُ أنه في أثناء نشأته كانت مثل تلك الأسئلة هي ما يفرض نفسه على حياتهم العائلية ، وكان وصول كل مولود صبي جديد يتلقاه الأخ الأكبر كمصيبة حلّت به . "

قال كمال : " قد يكون هذا كله صحيحاً ، يا محمد ، ولكن تبقى الحقيقة أنك أنت وإسكندر لم تتركا لي خياراً آخر غير أن أسلي نفسي بنفسي . ما كان يغيظ حقاً هو أن إحساسكما بالأهمية قد انتقلت عدواه إلى الخدم أيضاً ، فبتروشان قد كرس نفسه لإسكندر وصار يصحبه أينما ذهب . ألم تكن هذه هي الحقيقة ، يا بتروشان؟ هيّا ، أجبني يا رجل . "

تموّلت أنظار الجميع نحو العجوز أحمر اللحية الواقف بجوار الباب ، غير أنه لم يجر جواباً .

توسّل إليه أبي: " أرجوك، أجه يا بتروشيان، وإلا سوف يُحسَب صمتك علينا لا لنا في دفتر الحسابات الذي كان يعدّه على مدى عشرين سنة . "

ابتسم بتروشيان. " لقد أمرني سيدي حينذاك أن أحرص على ألا يتورط إسكندر أغا في أي مشكلة. كانوا في حالة قلق دائم عليه. كان يُعتبر في غاية من الرعونة والطيش. لهذا السبب كنتُ أصحبه أينما ذهب . "

لم يرتض كمال بهذا. " لم يردّ إلا لأن إسكندر طلب منه أن يرد. أنتم جميعاً شهودٌ على ذلك. لا شيء يتغير. لا شك لديّ أن أبي أمره بذلك، ولكن ماذا بعد؟ هذا لا يغيّر من الأمر شيئاً فيما يتعلّق بي. حسن بابا، رحمه الله، كان يخلّق لحية محمد ويقص شعر رأسه برقّة شديدة حتى ليبدو من بعيد كما لو كان يرسم بورتريهاً. أمّا معي فقد كان متعجلاً على الدوام. لقد كنتُ بصفة مستمرة رقم اثنين أو ثلاثة في هذه العائلة . "

انفجرت ضحكات أبي. " كم يسرني وجودك هنا يا كمال. إننا نسمع عن حياتك المدهشة من أشخاص التقوا بك بالمصادفة في أغرب جوانب العالم. فمرحباً بك في ديارك . "

رق كمال باشا ولان. " من اللطيف أن أكون هنا، ولكن دعني أزيح من فوق صدري شكوى أخيرة، فقد ظلّت تثقل عليّ لزمان طويل. هلاًّ أذنت لي يا أختي خديجة؟ "

ابتسمت أمي. " لست بحاجة إلى إذنٍ مني يا كمال، فالبيت بيتك ولا بدّ أن تتصرف على هذا الأساس . "

اقترب بتروشيان ليعيد ملء كؤوسنا وعلى الرغم من أنه كان عادةً ما يبدأ بإسكندر باشا، ففي هذه المرة قدّم الشراب لعمي كمال قبل أي شخص آخر وعلى سيماه نظرة خنوع مبالغٍ فيها، فتبادل الأشقاء الثلاثة الابتسامات فيما بينهم . "

قال كمال محذراً: " سوف أفضي بمرارتي الأخيرة، وبعدها سأنتقل إلى أمور أكثر مسرّة . حينما آن أو ان مناقشة مستقبل كل منا، ما الذي حدث؟ سُمح لمحمد أن يستقر في برلين مع البارون، وكم سرّرت له . دخل إسكندر في مرحلته الصوفية وتزوج من الجميلة زكية، وكم سرّرت له . "

أدرك الجميع عندئذ ماذا سيتلو هذه المقدمة وبدأ الضحك يسري من قبل أن يُنهي جملته حتى . "

" آه، نعم، شيء مضحك للغاية بالنسبة لكم جميعاً . لقد أجبرني أبي على عقد زواج مصلحة مرتّب . وكان صريحاً وواضحاً . كانت بائنة العروس خرافية، ولم يكن مسموحاً حتى بأن أبصر المرأة . لا يفاجئني أنهم لم يسمحوا لي بذلك "

" كمال " ، قاطعه أبي . " كان يمكنك أن تتلصص عليها في الحمام العام . "

" حاولت . لم تذهب ولو مرة واحدة إلى الحمامات العامة الملعونة . أتظن أن أولئك النساء غير واعيات بأننا نتلصص عليهن؟ يعلمن . لا أظن أن ليلي كانت تحب الحمامات! وهكذا اضطررت للزواج منها، (عمياني) هكذا، بظاهر الغيب . ولقد أغلقتُ عينيّ بشدّة وقمت بواجبي، واللهُ على

ما أقول شهيد. وأنجبنا ثلاثة، كلهن بنات. كانت أمي سعيدة، حتى بدأت البنات تكبر وتظهر ملاحظهن. وحين بلغت أصغر نعمي الثلاث سن السادسة أدركت أننا أن هذه اللعبة قد انتهت. كان من النحس أنهن ورثن ملامح أمهن، ولكن حتى ذلك لم يزعجني كثيراً. كان بوسعي أن أتجاهل هذا إذا اتصفت واحدة منهن فقط بالذكاء، أو على الأقل، لم تكن في منتهى الغباء هكذا. هذا ليس شيئاً من اللطيف أن يقوله المرء عن بناته، ولكن الأسوأ منه بلا شك أن يخدع المرء نفسه. إن الجمع بين مظهر الجاموس والبلاهة في الحين نفسه لهو عقاب أشد مما يجب لأن يحتمله أي شخص. هل قلت لكم من قبل ما قالته لي أمنا قبل وفاتها ببضعة شهور؟ كانت قد فازت للتو في لعب الورق مع خالتنا وقد غنمت منها بعض المال. ولهذا السبب كانت في مزاج كريم ذلك اليوم. قبلتُ خديّ واعتذرت مني. كانت هي الشخص الوحيد الذي اعترف ذات يوم بثقل العبء الذي ينوء به كاهلي. قالت لي: "أنا آسفة، يا عصفوري الصغير. كنا نعلم أن زوجتك ليست حورية، لكنني تمنيتُ أنا وأبوك أن يخرج أطفالك على شاكلة فرعنا نحن من العائلة. لقد أخطأنا. قدرُّ رهيب، بطش بك بيد مؤذية." قررتُ أنه لم يعد من المجدي أن أبكي وأشكي من سوء حظي لأكثر من ذلك، وعزمتُ أن أركب البحر، وأصيرُ بحاراً. وعلى عكس ما تتخيلونه، فنادراً ما صرتُ بمفردي منذ ذلك الحين. على متن كل سفينة طاقم من خمسين بحاراً ولم يكونوا قط من الجنسية ذاتها. يتكلمون لغات مختلفة، بل يستعملون إيماءات مختلفة للتعبير عن الأشياء ذاتها، فالبعض يوميء برأسه حين يقصد "لا"، وآخرون سوف يهزّون رؤوسهم يمناً ويسرة حين يقصدون "نعم". لم تكن عاداتهم وأساليبهم هي ذاتها قط. ثم هناك القبطان، وقد يكون من النوع

الصموت الذي يحتفظ بأفكاره لنفسه ونادراً ما يتحدث إلا حين يعالج مسألة أو يلقي أمراً، أو قد يكون من النوع الثرثار إلى درجة مثيرة للغیظ، فيروح يحكي دوغماً انقطاع عن مغامراته معتمداً على تهذيب سامعيه. ولن يقل عدد المسافرين الآخرين عن خمسة عشر. وقد يكونون مغامرين يسعون وراء ثروة، تجاراً، نساء هاربات من نكبات الحظ، أو أبناء أصغر سناً من بيوت ثرية رحل عنها عائلها وأورث المنزل لأكبر الذكور. جميعهم يحتاج أن يخفي هويته القديمة في أي ركن ناء من العالم. نعمتُ على الدوام بصحبة على متون السفن، وقد تعلمت الكثير على هذا النحو. كانت بعض الأحاديث مجزية ومثمرة للغاية. لا يعود على المرء تغذية أساليب النفاق والتلاعب كما في المجتمعات التي نعرفها في كل من إسطنبول أو برلين أو لندن أو باريس أو أي مدينة كبرى أخرى. لقد جعلت مني سفني كوزموبوليتانياً حقاً وصدقاً. تعلمتُ أن أتدقق مثل موجة، وفي بعض الأحيان، حينما يحالفني الحظ، كنتُ أعثر على موجة شقيقة في شخص ربان السفينة أو في وكيله الأوّل. أنا سعيدٌ بوجودي هنا معكم جميعاً، غير أنني واثق من أمر واحد تماماً، وهو أنني لن أعود للعيش في إسطنبول بعد ذلك أبداً. والآن إذا ما عذرتوني، لا بدّ أن أذهب لأحلق وأفرغ أمعائي وأخذ حماماً. فتلك طقوس عالمية، لا يتغيّر فيها إلا التوقيت. هل سبق وأن قلتُ لكم إنهم في اليابان يعتبرونك مخلوقاً عجيباً إن لم تتغوّط على الأقل ثلاث مرات كل يوم؟ لم ألحج قط في أكثر من مرتين.

في وقت تال من ذلك اليوم، كان في مزاج عقلي أفضل وأكثر استرخاءً. فبعد أن رسم لنا أشد الصور ظلاماً وكآبةً لصباه وشبابه، والمرارة التي فرضتها عليه حياته الزوجية، قرر أن يختم الفصل الخاص بتعاساته.

راح يتحدّث الآن عن العوالم الجديدة التي رآها وكيف غيرت حياته وغيرت نظرتة للعالم من حوله . صارَ خبيراً في قراءة السماء والبحر . كان يعلم لماذا تتجنب السفن الشراعية البحر الأحمر ، وكيف تحدّد الرياح المواتية والتيارات طول كل رحلة وليس المسافة المعروفة . وشرح لماذا يكون من الأسرع أحياناً السفر ضعف المسافة من أجل اللحاق بالرياح المناسبة بدلاً من التقدم مباشرة نحو وجهة محددة . باستثناء سلمان ، الذي ظلّ وجهه فاتراً ، لم يكن لدى أي منا معرفة بمثل تلك الموضوعات وكان الأمر أشبه بدخول عالم مسحور .

عندما راح يتحدّث عن سماء الليل تبدلت سيماء وجهه ، كما لو أن الذكرى وحدها كانت تكفيه ليسترد بعض السكينة والانسجام في حياته . تعلّم أن يقرأ علامات السماء ، وأن يتعرّف على النجوم ومواقع النجوم في القبة الزرقاء ، وبمرور الأعوام ، صار بمقدوره أن يفعل هذا من مواضع مختلفة من العالم .

بينما كنتُ أستمعُ إليه يتحدّث في ذلك اليوم ، فهمتُ لماذا صار من الصعب عليه أن يفكر في احتمال الاستقرار والإقامة في مكان واحد . لقد نضجَ حتى زهد كل ما يمكن أن يحصل عليه من وسائل الراحة وأسباب النعيم في ذلك العالم المعدّ سلفاً للمدينة الكبيرة . إن حياة كل منا رحلة . بحلول الوقت الذي نبلغ فيه منتصف الطريق ، تكون حياتنا قد اكتسبت وتيرتها المتفرّدة ، على كل صعيد لها . لا تعود بنا حاجةٌ للسؤال كيف عسانا أن نعيش حياتنا ، ونتقبّل إخفاقنا ومجاحنا ، نستقرّ على رؤانا وأفكارنا . نظنّ أحياناً أننا لو كنا قد اتخذنا منعطفاً مختلفاً في حياتنا منذ سنوات عديدة لربما كنا الآن على مسار مختلف . لكننا نتقبّل أنه ما من شيء سيغيّر الآن على

الأرجح . وأغلب الظن أننا نميلُ للنظر إلى الخلف ، بما أن الزمن والبيولوجيا قد رسما معاً حدود دائرة مستقبلنا ، وهكذا نكفّ عن التفكير فيه ببساطة .

أعلم أن سليم يختلف معي بشدّة حول تلك المسائل ، يتهمني بتبني نظرة مُحافظة للحياة . ويدافع عن رأيه متذرعاً بأنه كما تقدر الأحداث الجسام على تحويل كل شيء في المجتمع ككل ، فإن بمقدورها أيضاً أن تغيّر حياتنا مهما بلغنا من سن . لعلّها تستطيع أن تفعل ، ولعلّها ستفعل ، ولكن أياكون هذا التغيير دائماً نحو الأفضل؟ أعلم أن إمبراطوريتنا تفتت وتتداعى وأن ذلك أمر إيجابي ، ولكن في النهاية هل سيسفر عنه خير؟ على عكس سليم ، لم أكن واثقة من ذلك . إنه يصرّ على أن التاريخ يمضي دائماً نحو الأمام ، ولا يمكن له أن يراجع أبداً ، لكنه على خطأ حول هذا وأنا وسلمان غالباً ما مجادله في ذلك ، ضارين له أمثلة كثيرة من أوروبا ومن تاريخ ديننا . لقد ظللنا نراجع حتى الآن منذ ما يقرب من مائتي وخمسين سنة .

ربما لا يكون عمي كمال قد عثرَ على السعادة الحقيقية ، بالمعنى الذي قصدته أُمِّي حين ذكرت هذه العبارة ، ولكنه بكل تأكيد لم يكن تقيساً . فهو لم يجب شخصاً ما ثم فقدته كما جرى مع سارة وإسكندر باشا ، وهو ما كان معناه ، في حالتها على الأقل ، أن ذكريات الماضي لم تتوقف قط عن إثقال الحاضر وتهديده . لم تكن هذه هي مشكلة عمي كمال ، بل كان يهرب من الحاضر ، وفي رحلاته اكتشف مستقبه . ذكر سلمان المرأة التي تقاسم العم كمال حياته في طوكيو ولم يبدُ لي أن ثمة ما تفتقده حياته . بل على العكس ، فربما كانت أكثر ازدحاماً من المحتمل . ذكرتُ هذه الحقيقة الأخيرة للبارون ، الذي فهقه سروراً لهذه الملاحظة .

"حكيم صائب يا نيلوفر. إذا استطاع أن يدفع عن متن سفينته جميع مسافري حياته من إسطنبول تماماً، فستكون رحلته أهناً وأسهل. إن طريقة عيشنا لحياتنا لا تعتمد علينا بمفردنا وحدنا بكل أسف. تتدخل الظروف باستمرار، سواء كانت طيبة أم سيئة. يموت شخص مقرب منا، يواصل شخص غير مقرب منا حياته، كل تلك الأمور تؤثر على طريقة عيشنا. إذا كان والد محمد، على سبيل المثال، عاش لعشرين عاماً آخر فهل كان يمكن لمحمد أن يتخذ قرار الانتقال إلى برلين؟ لا أدري حقاً. أحياناً، إن حصل المرء على قدر ولو معتدل من السعادة، فمن الخير له ألا يطرح أسئلة أكثر من اللازم. فهكذا قد يجلب لنفسه عناءً لا ضرورة له."

بعد أن انتهت وجبة المساء، جلب البارون زجاجة بما قال أنه نوع فاخر للغاية من الكونياك الفرنسي المعتق. وفيما يخص مثل تلك الأمور تعلمت أن أتق في كلمته. تنشق كمال الكأس، واحتسى رشفة، وأعلن مبتهجاً أن هذا ببساطة أفضل كونياك قد تذوقه في حياته. وكم أسعد إعلانه هذا البارون، فأشرق وجهه بابتسامة واسعة ناظراً إلى شقيق شريك حياته.

سأله أبي: "أخبرني يا كمال، كيف أحوال شركتك؟ هل ستساعدكم القناة الجديدة في مصر على اختصار مسافة رحلاتكم إلى الشرق الأقصى؟"

قطب كمال جبينه. "أتمنى لو أنك لم تذكر تلك القناة الملعونة. ما قلته صحيح، غير أن القناة تم تصميمها من أجل خدمة التجارة البريطانية، فهي ليست مُصممة لخدمة السفن الشراعية. كما أخبرتك هذا الصباح، فإن البحر الأحمر بالغ الخطورة بالنسبة لنا. كل ما نحتاجه هو مسارات ثابتة وسفن بخارية، عندئذ ستكون القناة مفيدة."

قاطعته محمد: "ولماذا لا تحصل على بضع سفن بخارية؟"

نظر كمال إلى شقيقه وتنهّد. "مَن كان له أن يتخيّل أنه طيلة كل هذا الوقت، بينما أنا بعيد أركب البحار، يوجد في الوطن، وضمن عائلتنا نفسها، عباقرة في الملاحة البحرية هاجعون في مراقدهم؟ ربما لا بدّ لي من أن أفاجئكم جميعاً بتأليف مرشد في العلاقة الزوجية الحميمة. لماذا بحق الله تظن أنني عدتُ إلى هنا؟ إنني في طريقي إلى لندن لأجلب أولى سفني البخارية. لقد جعلوني أَدفع ثروة صغيرة، لكنني سأنتقم بأسرع مما يتخيّلون. سأخذ السفينة إلى يوكوهاما، وسوف نرى هناك إذا كان بوسع اليابانيين إنشاء عشر سفن مثلها بنصف السعر. إذا استطاعوا ذلك فسوف أُؤسس شركة سفن بخارية ستبسط سلطتها على جميع المحيطات. من لندن إلى نيويورك على الخط العثماني، ومن إسطنبول إلى طوكيو عبر الإسكندرية. كل شيء يصير ممكناً. لقد دبرت النقود اللازمة كلها بنفسني، وبعضها بمعونة سفره، الخال الكبير لنيلوفر. كل شيء على وشك أن يتغير، ولن أكون مثل سلاطيننا، فلن أقعد منتظراً حتى يسبقني جميع الآخرين ويباغتونني. فهل يجب ذلك سؤالك؟"

استحوذ على الجميع الحماس والفرح وبدأ الحديث يتخذ بُعداً سُريالياً، إلى درجة أنه حتى أمي شعرت بضرورة مساهمتها في الحوار. دون أن تؤثر عليهم وعلى حماسهم بأقل قدر حقيقة أنه ما من أحد وسط جميع الحاضرين، باستثناء كمال وسلمان، لديه أدنى فكرة لما يلزم عمله. كان نوعاً من الحديث الذي لا يهم فيه بالمرّة المساهمة بإضافة جوهرية، ومع ذلك فقد جعل عمي كمال يشعر بأنه الشخص الوحيد بيننا جميعاً الذي يقف في

مركز حركة التقدم الحقيقي . دون وضع خليل في الحسبان، بما أنه لا أحد منهم كان يدرك مدى اقتراب لحظة استيلاء اللجنة على السلطة . والحقيقة أن خليل وسليم قضيا أغلب النهار على متن جواديهما ولم يصلا إلا قبيل موعد العشاء . تظاهرا بأنهما قد خرجا لصيد السمّان والبط البري، وقد أودعت في المطبخ، لهذا الغرض، حقيبة جلدية مملئة بالطيور الميتة، ولكنني كنت أعلم الحقيقة . كان تمويهاً، فقد ذهبا للقاء الضابط الشاب من سالونيك في قرية قريبة ليعرفا منه كيف جرت مسألة إعدام الخصي-الجنرال، ورد الفعل في القصر على لغز اختفائه وأحدث خطط التحرك .

قال إسكندر باشا: "وأنا المسكين يا كمال، كدتُ أقتنع أنك ما أتيتَ إلا لزيارة أخيك المريض، ولم يكن ذلك إلا تحت سحر مامون، إله المال!"

اقترح عليه البارون: "إن واجهتك متاعب في يوكوهاما فلتجلي سفيتك البخارية إلى كايل . فر بما تقدّم لك سعراً أفضل من الإنجليز ."

بدا كمال باشا مستغرماً في أفكاره . "أشكرك أيها البارون . ما أعتقد أنني بحاجة إليه حقاً هو أن يعود سلمان للانضمام إلى شركتي ويبدأ في معاونة عمه العجوز . إن مكتب إسطنبول بحاجة إلى حضور قوي . ربما يمكننا مناقشة هذا منفردين فيما بعد . لا بدّ أن أرجع إلى إسطنبول غداً ثم أبحر إلى لندن ."

رأينا في عبارته هذه تلميحاً بأن علينا أن نترك الغرفة ليتحدّث الرجلان . ودّع بعضنا بعضاً، ولكن حين بدأت أنهض وأسير جذبني سلمان لأعود .

" ابقى معنا يا عزيزتي نيلوفر . لا توجد أسرار نخفيها عنك ، إلا إذا كانت اللفتة تقتلك للانفراد ببعلك . "

بقيت .

سأل عمي : " والآن يا سلمان ، هل صرتَ مستعداً الآن للعودة إلى العمل ؟ "

" نعم ، ولكن شيئاً واحداً يقلقني . "

" ماذا ؟ "

" الأوضاع هنا ، كما ستؤمن نيلوفر على كلامي ، غير مستقرة بالمرة . لم يعد اليونانيون يتكتمون على حقيقة أنهم يعتبرون إسطنبول مدينتهم والروس يشجعونهم بوجه مكشوف . والبريطانيون يلعبون على الحبلين . الألمان في صفنا ، فهم لا يريدون للإمبراطورية أن تنقسم . ومن ناحية الأعمال التجارية ، يا عمي ، كنت أفكر أنه سيكون من الحذر والأمان نقل المقر الرئيسي للشركة إلى مكان آخر . "

" إلى أين ؟ "

" لست متأكداً . ليفربول؟ نيويورك؟ "

ابتسم كمال . " لا بدّ ألا تخلط بين مجرد مبنى نعتبره مقرّاً لنا بالموضع الذي نودع فيه أموالنا . أنفق معك أنها ستكون كارثة إذا ما احتفظنا بأموالنا في إسطنبول في الوقت الراهن . نصحني سفره بأن أحولّ بعض الأموال إلى فروعه في باريس ولندن منذ بضع سنين وعملتُ بنصيحته . إذا ما سقطت الإمبراطورية فسكنون في مأمّن . "

سألته أي علم سيرفع فوق سفنه .

"علمنا، بطبيعة الحال . إننا نرفع الألوان العثمانية . ليست مشكلة،
يمكنني أن أرفع العلم الياباني إذا شئت . متى يمكنك أن تبدأ العمل؟"

"حينما نرجع إلى إسطنبول يا عمي ، فأنا أستمتع بهذه الاستراحة ."

كان سلمان يخشى أية إشارة إلى الإسكندرية ، غير أنه علم أنه لا
مناص من ذلك .

"لقد التقيتُ بحامد بك منذ أسابيع قليلة . يرسل إليك أعذب
التحيات والأمنيات ."

"كيف حاله؟ إنني أكن له احتراماً كبيراً ، طالما كان طيباً معي ."

"إنه بخير . حفيدان يشبان ويضفيان السعادة على حياته . لديه شيء
يعيش من أجله . لقد رأيتُهما في منزله . كم هما مهذبان ، وذكيان وجميلا
الطلعة . ماذا عساه أن يطلب أكثر من هذا؟"

ابتسم سلمان ابتسامة واهنة ، لم يستطع أن يقاوم السؤال .
"وأمهما؟"

حان دور عمي كمال ليبدو عليه الشحوب . "ألا تدري؟"
"ما الذي لا أدريه؟"

كانت أمارات الصدمة واضحة على عمنا . صمت لوقت طويل .
"عثروا عليها ميتة العام الماضي يا سلمان . كنت واثقاً من أن حامد بك قد
كتب إليك ليلغك ."

امتلاً وجه سلمان بالألم. " ما الذي حدث؟ "

" لا أحد يعلم علم اليقين. خرجت للسباحة في ذلك الجون الظليل الذي قيل لي إنك من اكتشفته. أخذت معها كتبها ومناشفها، ووضعت كل شيء قبالة ذلك الكهف الصغير ثم مضت تسبح. عندما لم ترجع إلى البيت في ذلك اليوم، أرسل حامد بك الخدم للبحث عنها. كانت وصيفتها تعلم أنها غالباً ما تتردد على ذلك الجون وسرعان ما رجعوا بمتعلقاتها، بما فيها كتاب لقصائد فيرلين. "

" في اليوم التالي اكتشف صياد سمك جثتها. قالوا لا بد أن تياراً شديداً قد فاجأها وسحبها إلى وسط البحر. لا بد أنها ابتعدت كثيراً في سباحتها، ثم تعبت وعجزت عن العودة. أنا في غاية الأسف، يا سلمان. افترضت أنك تعلم ولكنني لم أتمكن أن أناقش الأمر. "

شرح أخي يبكي بصوت عال، منادياً باسمها ومردداً أنه قد ساعها وعفى عنها. أخذتُ أنا وعمي نعزيه ونهدئه بقدر ما وسعنا، غير أن الخبر لم يكن متوقفاً بالمرّة وكان في حالة صدمة شاملة. لم يصدّق أنه كان حادثاً، وراح يردد أنها كانت سباحة غير عادية وتعرف البحر خير معرفة. كان مقتنعاً أنه كان فعلاً متممداً. لا بد أن راحت تسبح إلى داخل البحر حتى أصابها التعب وأدركت أن العودة إلى الشاطئ صارت مستحيلة. هكذا خططت فرارها من الدنيا. "

بينما أخذ يهدأ، راح سلمان يتذكر كيف أخبرته، خلال الأسابيع الأولى لمغازلتها، بأنهما لو لم يوفقا في الارتباط فسوف تتحرر. رفض أن يأخذ كلامها مأخذ الجد وأخذ يمزح بشأنه، فسألها أي وسيلة تفضل في حالة توجب

عليها ذلك . فأجابته بأنها لا تود أن تجرح أو تؤذي نفسها أو أن تُكتشف فعلتها ،
وبأنها سوف تجرب أن تسبح وتسبح حتى تبلغ الأفق البعيد . "

" هل أخبرك حامد بك بأي شيء عن سبب تعاستها إلى هذا الحد؟ "

تناول كمال يد سلمان بين يديه وراح يربت عليها بركة . " قال حامد
إنها لم تسامح نفسها قط على طريقة تعاملها معك . وأنها قالت له مراراً أن
صانع الأثاث لم يكن يعني لها أي شيء ، لقد زودها ببذور صالحة و فقط .
كلّما كبر الطفلان وصارا أكثر ارتباطاً بجدهما ، كانت هي تنأى بنفسها عن
الجميع . كثيراً ما كانت تسأله إن كان يعلم مكانك ، لكنه كان يحميك بقوله
أنه لا يعلم عنك أي شيء و يذكّرُها بأنها سببت لك ألماً يكفي للبقاء معك
عمرًا كاملاً ، وبأنها لو كانت تشعر بالوحدة فعليها أن تبحث لها عن ضحية
جديدة . كان حامد بك يقف في صفك تماماً يا سلمان . لم يتعاطف معها
بالمرة وراحت علاقتهما تتدهور مع السنين . لم تعثر على رجل آخر ولو
فعلت فقد أبقت أمره سرّاً على أبيها وولديها . "

" مسكينة يا مريم " ، غمغم سلمان . " لا شك أنها كانت في عذاب
حقيقي حتى تتخلّص من حياتها هكذا . تبدو منزعجاً يا عم كمال . كما
يمكنك أن ترى ، لقد تجاوزت الصدمة على خير نحو . يساروني شك بأنه ما
زال في صدرك شيء ما ، فما هو؟ "

تنهد . " أحياناً أفكّر كم أنا محظوظ لأنني لم أعشق مثلك أو مثل
أبيك . "

أضفتُ أنا : " أو مثل أمي ، أو مثلي أنا . "

فابتسم . "تماماً . لكنك تبدين سعيدة بما فيه الكفاية ، أيتها الصبية
خضراء العينين ، غير أن الآخرين جميعاً تركت المحنة وسمها عليهم مدى
الحياة . إنني مسرور لأن الله عافاني من هذا الكرب بالذات ."
ألحّ سلمان في سؤاله . "أهناك أي شيء آخر ، يا عم كمال؟ أنا جاد ،
يمكنك أن تخبرني ."

"أخبرني حامد بك بأنها كتبت لك رسالة كل أسبوع ، رسائل لم
ترسلها قط إلى أي مكان . لقد اكتشفها بعد موتها وأحرقها . لم يرغب في أن
يطلع عليها الصبيان ."
"وماذا كتبت؟"

"لم يشأ أن يخبرني وقاومت حافزاً لأجعله يفعل . إذا ما التقيت به مرة
أخرى فلتطلب منه ذلك بطريقة أو بأخرى . لم يكن أمراً يمكنني أن أفعله
نيابةً عنك . ومن يدري؟ لعلّ الرسائل لم تقتصر وحسب على صيحات
قلب يتألم ، بل أيضاً على إساءات تجرح وخصوصاً من ناحية علاقتها
بأبيها . لا بدّ أن أخلد للنوم . سوف نلتقي عندما أرجع من لندن وعندئذٍ
سوف نناقش خططي لشركة الشحن ."

لساعات عديدة ، جلسنا أنا وسلمان في المكتبة وحدنا . عرفتُ كم
صارت الإسكندرية بالنسبة له مكاناً موحشاً رهيباً بالنسبة له ، عرفتُ كم
عانى من قسوته حتى فاض به . كان يمكن له أن يغفر كل شيء آخر ، بما في
ذلك مسألة النجار ، لكنه لم يستطع أن يغفر لها ما كانت تستمده من متعة
غير مبررة كلما تسبب في إيلامه . هذا ما قضى على حبه لها قضاءً مبرماً ،
جفت بداخله جميع منابع العاطفة . فهل من شيء تبقى؟

"كلاً، لا أحسب ذلك . كان شفاءً بطيئاً، لا بدّ أن أعترف . لأسابيع وأسابيع كانت في رأسي وكأنها إخطبوط عملاق . وكنتُ أचारبها متسلحاً بكل الكلمات الفظيعة التي ادخرتها لي عندما افترقتنا . ليس من اليسير على المرء أن ينظّف رأسه من ركام وحطام عاطفته بين عشية وضحاها . يلزم بعض الوقت ، ولكنه ينجح في نهاية الأمر . حينما كنت على متن السفينة لما يقرب من خمسة شهور وبعدها رحلتُ أرتحل عبر اليابان، وجدتُ أنني توقفت عن التفكير فيها حقاً . انتهى كل شيء . أتذكر شعور الارتياح الذي سرى عبر بدني كله . أخيراً أزحتُ الوحش الذي جثم على صدري كل يوم، وراح يقرض قلبي شيئاً فشيئاً . بكيت فرحاً حينما أدركتُ أنني تحررت منها . كان قد مضى وقتٌ طويل للغاية إلى درجة أنني لم أكن مستعداً للمفاجأة .

"عندما سمعتُ الآن فقط أنها سبحت من عند ذلك الجون الصغير، غمرت عقلي بعض ذكريات صغيرة رقيقة، ولكن ليس لوقت طويل . فسرعان ما حلّت محلها ذكريات أخرى بما جرى في الموضع ذاته . لم تكن امرأة فاسدة يا نيلوفر . أظن أنها لم تشفَ قط من قرار أمها أن تنبذها ولا من عداوة أبيها لها عندما نبذتني هي . أتساءل تُرى هل أرسلت الأم بتعزياتها لحامد بك أو إذا كان قد أبلغها على الإطلاق بنأ موت مريم . من يدري - ومن يكثرث؟ ذلك كله صار ماضياً . ومع ذلك، فكم هي غريبة فكرة أنها لم تعد موجودة في هذا العالم . لشهور عديدة كانت وسيلتي الوحيدة لأستعيد توازني العقلي هي أن أعتقد أنها ماتت ، والآن بعد أن رحلت حقاً يبدو الأمر في غاية الغرابة .

"تعالى معي، يا أختي الصغيرة نيلوفر. فلندع النوم ينتظر قليلاً
الليلة، ولتدعي زوجك الحبيب يقرأ أغوست كونت بينما ينتظر عودتك. لا
أودّ أن أكون وحدي بينما أتطلع إلى النجوم."

خرجنا من المكتبة المضاء بأناقة ستة مصابيح، مباشرة إلى قلب
الحديقة حالكة السواد. لم يكن هناك قمر، واحتاجت أعيننا إلى برهة يسيرة
لكي تألف الظلمة. كانت السماء صافية والنجوم تلمع. وكان البحر ساجياً
في البعيد، مثل غطاء سميك معتم.

في الخارج هناك الكثير للغاية مما يحدث في العالم. ثورات تمرد تُعد لها
الخطط، مقاومة تتأهب، سلاطين وأباطرة يضطربون ويتزعزعون، وتاريخٌ
يصنع. غير أن ذلك كله بدا نائياً للغاية هنا، في هذه البساتين البديعة حلوة
العبير، لقصر يوسف باشا الباذخ حدّ الحماقة. جلسنا أنا وأخي سلمان
على أحد مصاطب الحديقة وأخذنا نحصي النجوم، تماماً كما اعتدنا عندما
كنتُ طفلة.

(٢٠)

اعترافات بتروشيان؛ جريمة قتل

العم الكبير مراد باشا؛

معاناة عائلة بتروشيان

(هل يُسمح لخدام عجوز بمخاطبتك، يا امرأة يا حجرية؟ أعلم أنه على مر سنين طويلة مضت كان من المعتاد بالنسبة لنساء كثيرات ممن يعملن في خدمة هذه العائلة، بعد أن يعتدي السادة على شرفهن، أن يأتين ويبكين لك هنا ويجكين لك عن بلاواهن. ولم يقتصر هذا على الإناث. ففي زمن جد إسكندر باشا كان هناك شباب صغار السن أيضاً - بُستانيين، وحرّاس، وسائر الخدم، ومن أصول متباينة، من أكراد وألبان وآرمينيين وصربيين وعرب وبوسنيين وأتراك - ممن أخذوا جميعاً رغم أنوفهم. فهل أتوا وبكوا عند قدميك هم أيضاً، يا امرأة يا حجرية، أم دفعهم كبرياؤهم إلى نحو الذكرى تماماً؟

وماذا عن ذلك الرجل الذي قتل، قبل ستين عاماً، عم إسكندر باشا الكبير، مراد باشا ذلك الفاسق الفاجر، هل سبق وأن جاءك واعترف بجريمته؟ لم يكتشف أحد من يكون قط، أليس كذلك؟

لا بد أن بعض الخدم عرفوا من هو، ولكن ما من أحد وشى بالقاتل .
 اعتاد جدِّي أن يقول إن الجميع كانوا يدعون الله سرّاً ألا يتم العثور على
 القاتل الشجاع أبداً . وأياً يكن هذا الشخص فلا شك أنه واصل عمله هنا ،
 لأنه في تلك الأيام لم يكن يغادر أحد المنزل إلا إذا تم الاستغناء عنه . اعتاد
 جدِّي أن يخبر أبي بأنه إذا كان قد رأى الشر مجسداً فلا بد أنه سيكون وجه
 مراد باشا، وليس ذلك فقط حينما يفرط في شرب النبيذ أو تستحوذ عليه
 شهوته، فقد كان شخصاً كريهاً على كل حال ومن كل جانب، حتى أولاده
 كبروا على ازدرائه والخوف منه .

يقال، يا امرأة يا حجرية، أنه قد فض بكارة ابنته ذات السبعة عشر
 ربيعاً . يقولون إنه كان ثملاً تماماً في هذه المناسبة، كما لو أن ذلك يبرر
 جُرمه . هل جاءتك ذات مرة تلك الطفلة المسكينة وحكت لك حكايتها؟
 هل أتت إلى هنا وأرتك ثوبها الملوث بالدم، قبل أن يتخلصوا منها
 ويزوجوها بسرعة لبدويٍّ من سوريا؟ لم يسمع أحدٌ منها خبراً منذ ذلك
 الحين، ولم ترجع قط إلى إسطنبول . أرجو أن تكون قد وجدت السلوى في
 حياتها الجديدة ورزقت بأطفال يعينونها على نسيان هذا العالم .

لديّ ما أقوله لك، يا امرأة يا حجرية . أنا أعرف من قتل مراد باشا .
 لقد أخبرني بذلك بنفسه وكان دائماً فخوراً بما صنعه . كان صديقي، حسن
 بابا . ولهذا السبب فإن الرقبة قد نُحرت ببراعة تامة كما بُرّ ذكرُ القاتل
 وخصيته بعناية خبير . من غيره يمكن تنفيذ هذا إلا الحلاق الشاب ذو اليدين
 المدربتين؟ حمداً لله، أن إصبع الاتهام لم يتوجه إليه لأنه اعتاد دائماً أن يساعد
 أباه في حلاقة مراد وتشذيب لحيته . وكثيراً ما شوهد الاثنان في الباحة،

يضحكان على نكات مراد باشا وعلى السطح ما كانت تظهر عداوة ولا بغضاء .

أخبرني حسن بابا، أنه على الصعيد الشخصي، فقد كان مراد في غاية اللطف معه، حتى في غياب أبيه، حينما كان عليه أن يخلق له ويكون متوتراً للغاية فيجرح وجنته. كان حسن يخشى من وقوع أسوأ الاحتمالات، غير أن مراد باشا كان يضحك بكل بساطة ويغمغم: "لا عليك، سوف تتعلم مع الوقت، أيها الجرو الصغير. كل ما عليك هو مراقبة أبيك بعين مفتوحة." .

فلماذا إذن قتله؟ قال لي إنه ما عادَ بوسعه أن يحتمل دموع الرجال والنساء، ممن استعمل مراد باشا أجسادهم بوحشية. لم أقتنع قط بأن هذه هي الحقيقة الكاملة. أعني، يا امرأة يا حجرية، أن حسن باشا كان رجلاً أمثل، ولكن المرء لا يجازف إلى حد قتل مراد باشا ما لم يكن قد تأثر شخصياً بشيء فعله. وقد اعترف لي حسن، بعد أن ضغطتُ عليه بشدة، أن مراد قد أرغم فتاة كردية تغسل الثياب على إمتاعه ضد رغبتها.

كان حسن يحب الفتاة من بعيد. كان يجلس ويراقبها وهي تحمل حزم الثياب المتسخة إلى النبع، ويراقب كيف يتحرك جسدها وهي تتعامل مع الثياب، تغسلها وتلطمها وتفرکہا، ثم تقف على أطراف أصابع قدميها لتعلقها في الهواء لتجف. لم يكن قد استجمع شجاعته بعد ليعرب لها عن مشاعره، ولكن كان متأكداً من أنها تعلم بها. فكلما غابت أمها عن رفقته كانت تبسم له. لم أكن قد وكدتُ آنذاك، ولكن حسن بابا كان في الثامنة عشرة من عمره، ولا بد أنه كان شاباً يسر الناظرين. قبل أن يستطيع أن

يفعل أي شيء، حملَ مراد باشا البنت إلى منزله واعتدى عليها. وحينما عادت إلى البيت، احتضنتها أمها وبكت، ولكنها توسّلت إلى الفتاة أن تلتزم الصمت وإلا فقد يتم الاستغناء عنهما. واست كلُّ منهما الأخرى، وتعهدت الفتاة بالألا تتحدث عن الجرم لأي شخص.

وفي الليل استقرت على خير وسيلة يمكنها بها أن تلتزم الصمت. وذات صباح نهضت مبكراً، قبيل الفجر، وأعدت لأمها الفطور، وقبلتها في مودة وقالت إنها ذاهبة لتمشي قليلاً وترى شروق الشمس. قفزت من فوق الجروف الصخرية الشاهقة، يا امرأة يا حجرية، وعثروا على جسدها المتكسر بعد بضع ساعات. كيف يجد الناس الشجاعة للتخلّص من حياتهم؟ هذا أمر لن أفهمه أبداً. كم ارتفع النواح والنحيب في مساكن الخدم ذلك اليوم. كانت تلك الشابة محبوبة من الجميع كل الحب لحسنها ولجسارة روحها.

في اليوم ذاته قرر حسن بابا بكل هدوء أن يقتل مراد باشا. كان يعلم أنه لا يمكنه الوثوق بأي شخص آخر، فخطط لكل شيء بمفرده. بعد ثلاثة أسابيع من ذلك عثروا على مراد ميتاً، وقد قطع أيره من بدنه وحُشي في فمه.

لم أسأل حسن بابا عن التفاصيل، يا امرأة يا حجرية. كان كافياً أن صنع ما صنع. أعتقد أن العائلة كلها قد استراحت. وبالتأكيد لم يذرف أحد دمعة واحدة على الوحش. دُفنَ في مقبرة العائلة، دون أن يحضر لتشييعه إلا حفنة قليلة، حتى أن أبناءه وزوجته ظلّوا بعيداً.

كان حسن بابا، قبل أن يتوفاه الله بشهور، يفكر في إخبار سليم. لست متأكداً إن كان أخبره أم لا. لقد عشتُ مع سرّه لأمدٍ طويل بما يكفي،

يا مرأة يا حجرية . على مدى سنوات طالما سمعتُ إسكندر باشا يتساءل تُرى من الذي قتل عمه الكبير . وقد قال محمد ذات مرة إنه أياً كان من فعل هذه الفعلة فهو بطل من أبطال العصور الحديثة، بحيث يجب التوصل إليه ومكافأته بصرّة ذهبية بأثر رجعي . فتساءلتُ أنا في نفسي ماذا عساهما يفعلان لو علما أنه كان حسنّ بابا؟ أعتقد أن إسكندر باشا كان سيفتخر به .

لم آت إلى هنا لأنبش في الماضي ، يا مرأة يا حجرية ، ولكن حضورك له أثرٌ يستلّ الأسرار القديمة من مخابئها . أتيتُ لأتحدثُ عما يحدث في قريتي . على مدى مائتي عام مضت منحتنا هذه العائلة المال لشراء الأرض في قرية قريبة من الموضع الذي يمتلكون فيه هم أنفسهم مساحات شاسعة من الأراضي . وكما كان الحال في تلك الأيام ، بدأت عائلات أرمنية أخرى تنتقل إلى المكان بحيث يكونون قرييين منا ويعيشون تحت حماية هذه العائلة . كان جد إسكندر باشا هو من بدأ يبيع أرضه لأنه لم يتحمّل مشاركة أخيه مراد في أي شيء . ومنذ خمسين سنة كانت العائلة قد باعت كل أراضيها واشترت ممتلكات وأرض في إسطنبول ودمشق وأماكن لا يعلمها إلا علام الغيوب . واشترى بعض تلك الأرض كثيرٌ من التجار الأرمنيين المتطلعين لإنفاق أموالهم ، ولكن كان الأكراد قد أتوا ليشغلوا كعمالٍ موسمين ، واستقر بعضٌ منهم .

قبل أربع سنوات حذر الأكراد أشقائي وأقاربي الآخرين بأنهم إن لم يرحلوا بعيداً راضين صاغرين ، فإنهم سيحرقون بيتهم ويقتلون أسرهم . لا يحتاج المرء أكثر من تحذير واحد من هذا النوع ، ونتيجة هذا أن كثيرين من الأرمنيين جمعوا ما استطاعوا من متعلقاتهم ورحلوا . رفضت شقيقتي

وزوجها الرحيل ، طول عمرها كانت عنيدة . قالت لهم إنهم يستطيعون قتلها ، ولكنها لن تترك بيتها أبداً راضية صاغرة . أطلعت خليل باشا على كل ما يجري ، فانتابه غضبٌ بالغ بحيث لم يرسل أحد أتباعه ليتعامل مع الموقف ، بل أخذ بعضاً من جنوده وذهب إلى هناك بنفسه . وقد أُنذر الأكراد أنهم لو مسّوا شخصاً آخر فسوف يعود شخصياً ويُخرجهم من الممتلكات التي سلبوها وينزل بهم أشد العقاب . وقال لهم إنهم إذا لمسوا أختي أو أسرتها ، سيحط عليه غضبه كالصاعقة في ملح البصر . كان خليل في غاية الغضب ، يا امرأة يا حجرية ، وقد صدّقه الأكراد . ولم يحدث شيء عدا ذلك .

الأسبوع الماضي ، اشتعلت النيران في منزل شقيقتي في منتصف الليل ، وحينما اندفع أبناؤها وزوجاتهم خارجين للهرب من النيران تم اصطيادهم وقتلهم . وقد وقع الأمر نفسه لجميع الأسر الأرمينية في القرية . وقد أخبرت خليل باشا ليلة أمس . جلس إلى الطاولة ورأسه بين يديه وهو يأنّ غيظاً . " الإمبراطورية تفتت يا بتروشيان ، وكل شخص يحاول أن يستولي لنفسه على قطعة من الفتات قبل أن يسود نظامٌ جديد . أنا في غاية الأسف ، ولكن ما من شيء يمكنني فعله في هذه اللحظة . " وإذا كان خليل باشا ، وهو الجنرال ، يقول إنه ما من شيء يمكنه فعله لإيقاف قتل قومي ، فأى أمل لنا؟ أنا رجل عجوز وسرعان ما يحل أجلي ، ولكن أبنائي وأحفادي يريدون أن يصنعوا حياة جديدة .

لقد بدأ الجميع ينخرطون في الحماقات السياسية ، والآن حتى أبنائي يريدون أن ينخرطوا في السياسة . يقولون إنه السبيل الوحيد ، فأى جدوى

يمكن انتظارها من وراء هذا؟ انضم ابني الأكبر إلى جماعة تكوّنت حديثاً للنضال من أجل خلق دولتنا الخاصة بنا. يقول إن الأرمنيين في جميع أنحاء العالم سوف يدعموننا، وأخوه الأصغر قد فرّ بالفعل عبر الحدود إلى روسيا.

زوج ابنتي يقول إن علينا أن نناضل ونكافح، ولكن لا بدّ أن نبقى بداخل الأراضي العثمانية، وأن نحارب من أجل أن تنال ولاياتنا في الأناضول حق الحكم الذاتي كأقاليم مستقلة لها حاكمها الخاص. يقول إنه من المستحيل الفصل التام ما بين الأراضي العثمانية وأرمينيا، وأن قومنا وأرضنا مختلطين في كل موضع.

يريدُ منا أن نصير طاشنق، لا بدّ أن ننضم إلى حزب الطاشناقين، والذي يميلُ للتعاون مع اللجنة لإسقاط السلطان. ويقول لي إن الطاشناق في روسيا يقفون في صف الديمقراطيين الاجتماعيين، يعلم الله ما معنى هذا، في مواجهتهم للقيصر. لم يسبق لي قط أن سمعتُ حديثاً مثل هذا. إذا كانت أسرتي أنا قد جذبتها تيارات السياسة فلا بدّ أن شيئاً ما قد تغيّر.

ما الذي سيحدث، يا امرأة يا حجرية؟ العالم كله يتداعى ويتحطّم.

لقد عشتُ حياتي بكاملها في هذا المنزل، ولقد عوملت معاملة حسنة. رفض أبنائي البقاء هنا، وقد طلبوا مني مرات عديدة أن أغادر المنزل وأذهب للعيش معهم. يقولون إن العالم قد تغيّر وأنهم كسبوا مالاً يكفيهم للعيش في سلام ما تبقى لي من عمر. فقلتُ لهم إنني أشعر بالأمان في هذا المنزل. لو أنني كنتُ في تلك القرية مع أختي، لكنتُ ميتاً الآن أنا أيضاً. والآن يريدني أبنائي أن أغادر إسطنبول. أحدهم يبيع السجّاد في القاهرة،

يريدني أن أسافر وأقيم مع أسرته، ولكنني لا أعرف أسرته، يا امرأة يا
حجرية. هذه الأسرة في هذا البيت هي الأسرة الوحيدة التي أعرفها حق
المعرفة. لا أتمنى أن أترك إسكندر باشا. فهل أنا مخطيء؟)

(٢١)

انبهار سليم بدفتر اليوميات الباريسية

لإسكندر باشا فيقرأه مرتين؛

تفسير البارون وجه اختلاف جماهير باريس عن جماهير إسطنبول؛
وحياة الجنرال خليل المضطربة

رفض سليم أن يشتت انتباهه شيء . لأكثر من ساعة راح يقرأ ويعيد قراءة دفتر اليوميات الذي أعادته المرأة الفرنسية إلى إسكندر باشا . كان أبي قد وضع اليوميات في المكتبة ، فالتقطتها من على الرف في الحال وأخذتها إلى غرفتنا بحيث يمكننا قراءتها معاً حينما نكون في الفراش . لكن سليم خانني ، فقد بدأ قراءة أبوابها بينما كنتُ أضع الطفلين في فراشيهما وكان قد في منتصف قراءته الثانية حينما عدت ، رافضاً أن نتقاسمه معاً . وحينما انتهى منه أخيراً انتزعتُ الدفتر بعيداً عنه ، ولكنه كان في حالة من الانبهار والذهول عن الدنيا .

" لا تعبسي في وجهي هكذا يا أميرتي . لقد كنتُ غائبة عن الدنيا لأن حسن بابا كان هو أيضاً في باريس في ذلك الحين ، وكثيراً ما تحدّث عن تلك اللحظات . هل تعلمين متى كتبَ والدك تلك اليوميات؟ "

هززت رأسي نفيًا .

" في عام ١٨٧١ . كانت باريس تحت حصار البروسيين . وذلك الفرنسي الذي نصب نفسه إمبراطورًا ، نابوليون الثالث ، سقط عن عرشه كما سقط التاج عن رأسه . وأعلنت جمهورية وعندئذ حدث شيء مدهش حقًا : ثار فقراء المدينة منتفضين ، وقد أدركوا أنهم ليس عليهم أن يختاروا ما بين السيء والأسوأ منه ؛ ما بين الأثرياء في داخل باريس والبروسيين على أبوابها . طالما ادعى حسن بابا أنه قدّم يد العون للشوّار الفقراء عند بناء المتاريس . ولم أصدقه حق الصدق قط ، ظننتُ أنها إحدى خيالاته ، وأنه كان ليودّ لو فعل ذلك ، لكنه لا يستطيع . أكّدت يوميات أبيك قصته . إنني فخور حقًا بحسن بابا ، يا نيلوفر . اقرأ أي بنفسك ، أرجوك . "

ما أثار انزعاجه بشدة أنني رفضتُ أن أقرأ اليوميات تلك الليلة ، وبدلاً من ذلك استغرقتُ في النوم . في الصباح التالي أيقظتني ضجة الطيور . كان البحر عاصفًا والنوارس تطير على البر . ارتديتُ ثيابي ونزلت لتناول الإفطار ومعى اليوميات . كانت تتجمّع بالخارج رياحٌ شديدة بسرعة وكانت الستائر تتطاير في كل مكان . وبالداخل انهمك الخدم في التأكّد من إحكام غلق جميع النوافذ والأبواب .

كنتُ بمفردي . لم ينزل أيٌّ من الآخرين بعد . لم أكن جائعة للغاية فصبيتُ لنفسي وعاءً من القهوة والحليب الساخن . ورحتُ أقرأ اليوميات جالسة إلى المائدة . كان إحساسًا غريبًا . عاصفة تحتمر فوق البحر وأنا جالسة بارتياح أقرأ عن عاصفة أخرى لا أعلم عنها أي شيء .

٣ سبتمبر ١٨٧٠

لم أعتقد قط أن حياتي كسفير ونظامها الثابت قد يسمحان لي بأي فرصة متاحة لكتابة يوميات، غير أننا نعيش أوقات مذهلة. اليوم وقع في الأسر ذلك الكائن المغرور المثير للشفقة الذي يسمي نفسه "إمبراطور فرنسا"، وقع في أسر البروسيين وانهزم جنرالاته. إنه انتصار آخر ليسمارك باشا!

خرجتُ أتمشى قليلاً لأتلمس مزاج الناس. بدأ الجميع محبطين وباعة الصحف يتم الهجوم عليهم تقريباً من فرط لهفة الناس لقراءة أحداث اليوم. سمعتُ كثيرين يدينون جانبهم بأشد ما يدينون به البروسيين. رفعَ بعض أصحاب المتاجر رايات أمام متاجرهم مكتوب عليها "يحيا تروشو"، وهو الحاكم العسكري لباريس والرجل الذي تعتمد عليه أمور كثيرة وجليلة اليوم. ساعة العصر اجتمع حشدٌ هائل للغاية في مسيرة عبر الشوارع مطالبين بتأسيس جمهورية. لن ييأس الفرنسيون أبداً ولن يكفوا عن السعي نحو جمهورياتهم. يمكننا أن نتعلم شيئاً منهم بهذا الخصوص.

إنني مقطوع الصلة بإسطنبول تماماً بسبب الحصار ولا بد أن أعترف أن في هذا شعوراً لطيفاً بدرجة ما.

٤ سبتمبر ١٨٧٠

أمس طالبوا بجمهورية واليوم أعلنوها أمام مبنى البرلمان، حيث احتشد جمعٌ هائل للغاية كما كان متوقعاً. لم أحضر الحدث، ولكن حسن، حلّاتي الخاص، عاد إليّ وأعطاني تقريراً كاملاً. ما أسرع ما تحوّل هذا الرجل من صوفي زاهد إلى ثورجي. وبما أن السفارة هي من يدفع راتبه في

الوقت الراهن، فإنني أتساءل تُرى هل يمكن أن يؤدي المخراطة المتزايد في الأحداث إلى فضيحة ديبلوماسية في مرحلة تالية. يخبرني أن الهتاف والضجيج المرحّب ملاً كل موضع في ميدان الكونكورد عند إعلان الأنباء. وشرع الناس يمزقون اللونين الأزرق والأبيض، وينحونهما بعيداً عن العلم ثلاثي الألوان، تاركين الأحمر فقط دون مساس، وأن الرؤوس المذهبة المسننة لأسبجة حديقة التويلري قد أعيدَ طلاؤها وغطيت بأكاليل الزهور، والزهور هي المؤونة الوحيدة التي لا تنضب أبداً، على عكس الطعام في هذه المدينة. انضمّ حسن إلى العامة لحظة اقتحامهم للقصر ورأى تأسيس "الحرس الوطني". ويقول إنهم تأثروا بمساندته لهم إلى حدّ أنهم أرادوا انتخابه حارساً، ولكنه استعفى، خشية أن يضر هذا بمكانتي هنا.

وإذ حمستني تلك الأنباء، غامرتُ بالخروج إلى الشوارع متنكراً، حيث ارتديتُ ثياباً فرنسية متواضعة. كان يوماً باريسياً شديد الحرارة والرطوبة. كان هناك حشد هائل أمام أوتيل دي في، وعفويّاً شرعوا جميعاً في غناء نشيد الثورة، لا مارسيز. لا بدّ أن هذا ما كان عليه الحال تماماً في عام ١٧٨٩. من الغريب كيف يشعر هؤلاء القوم بتاريخهم غريزياً؛ إنه يسكن في نخاع عظامهم. انضم باعة الزهور إلى هذه الثورة. لا يبيعون اليوم إلا الورود الحمراء الملائمة لعروة الثياب، يفعلون هذا والبروسيون على مسيرة أربعة أيام من المدينة. الفرنسيون فقط هم القادرون على الإطاحة بملكهم في تلك الظروف. كم أنفسُ عليهم قدرتهم هذه.

فيما بعد، حضرتُ وليمة عشاء في ضيعة مونتورينسي. كانت إيفيت مدعوة كما هي العادة دائماً، وتدقّق النبيذ كما هي العادة دائماً، غير أن المزاج ها هنا كان مختلفاً تماماً لما يسود الشوارع. سيطرتُ على نفسي بدرجة من

الصعوبة. كان الآخرون محبطين. تحدّث نبيل فرنسي عجوز عن الألمان باحترام وتقدير، قائلاً إن "بيسمارك هو الوحيد الذي يمكنه إنقاذنا من هؤلاء الرعاع". اقترحت إيفيت، وقد شعرت بضرورة أن تدلي بدلوها، أنه قد يكون من الأفضل لو تعامل الجنرالات الفرنسيون مع الغوغاء بأنفسهم؛ وأنه إذا ما أعطى تيير، الذي كان صديقاً قديماً للعائلة، تعليماته فقد يسيل بعض الدم في الشوارع ولكنها ستكون قد نُظِّفت. عندئذ "سنكون جميعاً مستعدين للذهاب ومقاتلة البروسيين". قلتُ إن البروسيين قد يكون بمقدورهم مقاومة الجيش الفرنسي، لكن لا شك أن إيفيت وحدها قادرة على هزيمتهم. باستثناءها لم يتسم أحد لقولي. قال مضيغي، فيكونت مونغورينسي، إن الرعاع المزعجين لا يخلقون إلا الخراب والفوضى.

أعلن أنه ينحاز إلى جانب الجمهورية، ولكن فقط في حالة كان جامبيتا على رأسها مع استبعاد المسعورين من اليسار المتطرف. وانهار ضيفٌ آخر، لا أذكر اسمه، على المائدة وأعلن أنه قد رأى أشد الرؤى إثارة للهلح يمكن تخيلها. أمسك الجميع عن الحديث من أجل أن يستمعوا إليه. تحدّث عن الكميات الهائلة من زيت الوقود خارج أبواب باريس، وعن مخاوفه من أن البروسيين سوف يُلقون به في نهر السين ويشعلونه، ويجرقون الضفاف على كلا الجانبين، تماماً كما هدّد الأدميرال العثماني بارباروسا أن يفعل في فينيسيا. تطلّع جميع الحاضرين نحوي طلباً لمعلومات. ابتسمتُ لهم.

بدأتُ أشعر بالاختناق من السهرة فقمت وانصرفت. قال لي مونغوريسي: "لا تعاملنا بقسوة بالغة في التقارير التي ترسل بها إلى إسطنبول. الخطأ كله خطأ الإمبراطور." ابتسمت ولم أقل شيئاً.

٢٣ سبتمبر ١٨٧٠

يسود المدينة نقص رهيب في الطعام . بينما تضرب نيران المدفعية البروسية باريس ، يشتكي الناس من نُدرة الخضروات الطازجة واللحوم . أغلقت بعض المطاعم ، وأخرى بدأت تقدّم لحم الخيول ، مدعين أنه شرائح لحم بقري . أمس قيل لي إنه لم يعد يوجد أي محار . هكذا لا بدّ أن تحدث ثورة .

٢١ أكتوبر ١٨٧٠

شخص مجهول أرسل لي طرداً كبيراً للغاية على عنوان السفارة . كان بتروشيان متوتراً ، ولكنه أحضره إلى مكنتي مع الرسالة المصاحبة له . لم أستطع أن أصدّق أنه استطاع أن يفعل هذا . كان الخطاب مكتوباً بخط يد البارون المألوف لي . لقد تذكّر يوم ميلادي وكان الطرد يحتوي على : زجاجتان من الشمبانيا ، ودزينة من المحار ، وزجاجة نبيذ كلاريه ، وقطعة كبيرة من لحم البقر ، وعيش الغراب ، وفطر الكمأ ، وبطاطس ، ثم الشيء العسير على التصديق ، خس طازج . الطاهي ، الذي لم يكن يعرف البارون ، كان أكثر ذهولاً مني . تقاسمتُ الوليمة مع الآخرين ، رغم أن حسن أصرّ على أن النبيذ الذي شربه عندما اقتحم القصر مع الثوار كان أطيب كثيراً - كما كانت الرفقة خيراً وأطيب . شربتُ نجباً للبارون وتساءلتُ إن كان الآن مع الجيش البروسي على أبواب باريس .

٣١ أكتوبر ١٨٧٠

في كل موضع أسمع صيحة " فلتحيا الكوميونة " . سرتُ مع بتروشيان (الذي تسلّح للدفاع عنا في حالة أن هوجنا) وحسن بابا إلى أوتيل دي في ،

حيث أعلن عزل الحكومة المحاصرة. أخشى أن فرنسا على شفا حرب أهلية. باريس تقف في جانب الكوميونة، غير أنها معزولة وسوف يحطمونها. لا أتمنى حدوث هذا، ولكن يبدو أنه لا مفر منه.

٧ نوفمبر ١٨٧٠

رفض البروسيون الدعوة الفرنسية للهدنة. يُظهر إعلان بيسمارك إرادة حديدية للزعيم الألماني. لا نظير مكافئ له في فرنسا. إن هذه الحكومة، التي لم تحرك ساكنًا للدفاع عن نفسها إزاء عدو أجنبي، تستعد بجدية للعدوان على مواطنيها. يبلغني الآن طاهينا إن البيضة الطازجة وصل سعرها إلى ٢٥ فلسًا.

"ماذا تقرئين، يا طفلي؟"

وصل البارون من أجل تناول الإفطار فوضعتُ دفتر اليوميات جانبًا.

"إنها يوميات إسكندر باشا خلال عام ١٨٧٠ في باريس. لقد ذكرك."

ضحك. "طرده الطعام في يوم ميلاده؟"

أمأت. "كيف استطعت تدبير هذا؟ هل كنت فعلاً على الجانب الآخر؟"

"نعم، بالطبع. لا شك أنك ستفقين معي أن بيسمارك كان أكثر

تقدمية من ذلك الطاووس المنفوخ نابوليون الثالث بعد المائة أو أيًا كان الرقم

الذي أطلقه على نفسه. وغدٌ خالص، وقد دُتس اسم سلفه العظيم. لكم

ابتهج محمد لأنني عرفتُ كيف أرسل ذلك الطرد في يوم ميلاد إسكندر."

"نعم، ابتهجت"، قال عمي محمد، وهو يتثأب وينضم إلينا إلى

المائدة. أراد أن يعرف لماذا كنا نتحدث عن ذلك الطرد. حينما أخبرته،

تناول الدفتر مني في الحال.

"إعمم، سأقرأ هذا فيما بعد. أكنت تعلمين أن جد سليم لعب دوراً بطولياً في تلك المعركة المشؤومة؟"

"نعم، ولكنني لم أصل إلى ذلك الجزء بعد، و... ."

"حينما عاد حسن بابا من باريس أول الأمر، كان مصمماً أن يؤسس كوميون في إسطنبول. أعتقد أن البارون نصحه بأنه من حماقة أن يحاكي هزيمة. أتذكر ما اعتراه من غضب، يا بارون؟"

"نعم، نعم. أتذكر. لم تكن المشكلة فقط هي استنساخ الهزيمة، بقدر ما كانت حقيقة أن أهل إسطنبول كانوا لا يزالون متشبهين بشدة بالمساجد اللعينة. أما أهل باريس، وبفضل ثورة ١٧٨٩، فقد كانوا قد شفيوا من هذا الداء. كانوا ضد سلطة الدين بمتهى الضراوة."

"أنت على حق، يا بارون"، قال أبي الذي تفقد المائدة ولاحظ غياب البيض، الذي لا يكتمل يومه بدون تناوله على الإفطار. "يا بتروشيان! لقد جئت. إليّ بالبيض، لو سمحت. لماذا تناقشون حكاية فرنسا يا بارون؟"

شرحتُ السبب للمرة الثالثة هذا الصباح.

"في حقيقة الأمر، كان النقص في البيض في أثناء ذلك الحصار، أيها البارون، هو ما جعلني أتخذُ عهداً بأنه ما إن ينتهي فلن أبدأ يومي بالبيض أبداً. الذنب ذنبكم أنتم."

صدرت ضحكة فاترة عن محمد، وكان البارون مسروراً لكونه مكرز

الانتباه.

تساءلت: "أبي، هل تأثر حسن بابا حقاً بكل ما جرى هناك؟"

"نعم، جميعنا تأثرنا. بتروشيان أيضاً التهب بالحماس، ولكن إعدام الرفاق الثوار على يد تيير وجنوده جعله يغير موقفه من جديد. أظن أنه رأى قوة الدولة وقد أخافه ما رأى. كان تيير جزأراً متعطشاً للدماء. لكن حسن بابا لم يتزعزع. أتفق مع البارون حول إسطنبول. لم يكن لدينا قط ثورة ١٧٨٩ الخاصة بنا، فضلاً عن ١٧٩٣. لو أن هذا قد حدث هنا لأصبح كل شيء مختلفاً."

وصل بيض أبي المخفوق والمقلي، كاملاً مع رشات الكزبرة الطازجة والفلفل الأسود. وبينما استغرق في إفطار واصل البارون الحديث.

"نعم، يا إسكندر، لكن الفكرة بكاملها هي أن هذا غير ممكن الحدوث هنا. ففي فرنسا كان هناك طبقة أرستقراطية كانت تمتص دم مزارعيها. أما هنا، فإن الدولة العثمانية كانت هي كل شيء: المسجد والسلطان ومالك الأرض وحاشد الجيش. كان هذا موطن قوتها، كما أشار ميكافيلي، ولكن نقطة ضعفها كذلك. لقد منح السلطان عائلتكم إقطاعيات في مقابل خدماتكم، لكن يوسف باشا صاحب الذكرى العطرة لم يكن له سلطة أو أرض يمكن أن يتخذ عليها جيشه الخاص. في إنجلترا وفي فرنسا كان النبلاء مثل صور مصغرة من الملوك. ولكن ليس الأمر هكذا هنا."

توسّل محمد قائلاً: "أرجوك، يا بارون! ليس وأنا أتناول إفطاري. تعرف كم تكون مشاعري مرهفة في هذا الوقت من اليوم." وددتُ لو أقبل عمي، كنتُ أعرف طبيعة شعوره تماماً.

" هل يعلم أي شخص في هذا المنزل أين كان خليل في اليومين الماضيين؟ أتعلمين يا نيلوفر؟ أنت جزء من المؤامرة، أليس كذلك؟ "

اخترتُ تجاهل هذا الاستفزاز. لم يكن إسكندر باشا مقتنعاً باللجنة وقد صدمته مسألة الخصي- الجنرال. كان عليه أن يخبر خليل بأن يكون في غاية الحذر وألا يظن أن ذلك الخصي سيكون أول أو آخر شخص يتجسس عليهم ويرسل تقاريره. كان قلق الأب على أمان ابنه، ولكنني شعرتُ بأن هناك شيء آخر أيضاً. لقد كشفت يومياته الباريسية جانباً منه غاب عن ملاحظتي تماماً فيما سبق. لم تخطر لي الفكرة من قبل، ولكن مع الاعتبار للجانبين المتعارضين في شخصيته العاطفية، أليس من الجائز أن يوجد انقسام مشابه في سائر نواحي حياته؟

كان هناك إسكندر باشا المهذب المصقول اجتماعياً والذي، يرتدي ثيابه الرسمية، ويدعى إلى منزل الوزير مرة كل أسبوع ويسبح دوغما أدنى جهد في أجواء السهرة بينما يتم تبادل تفاهات الأحاديث حول أوضاع الإمبراطورية وحالة السلطان الصحية. كان وجهه يبقى محايداً بلا تعبير بينما يحتفي بزواره من علية القوم في منزلنا بإسطنبول. غير أن الابتسامات الفاتنة وإظهار السطح الراضن الهادئ لم تكن إلا خداعاً محضاً. فقد كان هذا هو الرجل نفسه الذي يعتصر قبضتيه بقوة أماً أو غضباً. كانت اليوميات هي الأمانة الأقوى على هذا، حتى ولو كان شاباً في ذلك الحين.

من الواضح أنه كان قلقاً أن ينتهي الأمر بخليل إلى السجن أو ما هو أسوأ، ولكنه كان أيضاً مستاءً لكونه مستبعداً من شئون اللجنة، لا سيما وهو يعلم أنني متورطة فيها. ظلّ اهتمامي بالسياسية محدوداً حتى وصول

سليم إلى منزلنا. عاصفة الهوى التي أثارها في هزّت جوهر حياتي ذاته. وكان عليّ أن أعيد التفكير في أمور كثيرة، سواءً تتعلق بحياتي الداخلية أو بالعالم الخارجي. كانت هناك أمورٌ طالما تعاملت معها كأشياء مسلم بها، من قبيل الاعتقاد القائل بأنه لا أنا ولا أي شخص آخر لنا أي سلطة على مشاعرنا، وكذلك فكرة أن الإمبراطورية شيء خالد لا يزول. كان إسكندر باشا يتطلّع إلي في نفاذ صبر.

"لست متأكدة حقًا، يا أبي. لقد قال لبروشيان أنه ربما يتغيّب لأسبوع أو عشرة أيام في إسطنبول."

"سياسة أم متعة؟"

"لا هذه ولا تلك"، أجبت. "أمور عائلية."

ضحك. "هل عاد الصبيان وأمهما من دمشق؟"

لقد عادا بالفعل، وكان خليل، الذي لم ير توأميه منذ شهور عديدة، يتوق لرؤيتهما مرة أخرى. لطالما كنتُ قريبة عاطفيًا لأخي سلمان وما زال الحال هكذا حتى الآن. على صعيد إنساني ومنذ أن كنا طفلين، اكتشفنا أنا وسلمان أننا نستطيع مناقشة أي موضوع في العالم دون إحساس بالخجل أو الإحراج. وقد لبث هذا الشعور بيننا، رغم صمته الطويل، وقد أدخل علينا كل السرور لكلينا هذا الصيف. بعض العلاقات تبلغ درجة من العمق بحيث يمكنها أن تتجاوز أي شيء، شعرتُ أن علاقتنا كانت إحداها.

وعلى الرغم من أن علاقتي بخليل تتسم بالمودّة والعطف، فلطالما كانت رسمية بدرجةٍ طفيفة. ومنذ أن كان خليل وزينب طفلين جمعت

بينهما علاقة وثيقة، ولم يكن لهذا أي صلة بأن أهمها واحدة. دائماً ما تبادلوا الأسرار وكان هناك توافق مزاجي بينهما كذلك. كان كلاهما أكثر انطوائية مني أنا وسلمان. وخلييل، على وجه الخصوص، يمكن أن يكون شديد التحفظ والكتمان. بدليل مسألة زواجه مثلاً.

لقد التقى بكاترين قبل نحو عشرين عاماً في حفل شاي في إسطنبول. كانت الكونتيسة جالفالفي صديقة قديمة للعائلة، وكانت آنذاك في الثمانينات من عمرها. كانت تنحدر من عائلة يونانية عريقة وقد فرّت في زمن شبابها مع كونت مجري ضربه الفقر. وقضت حياتها في عزبة عائلته، حيث خصصت لهما ثلاثة غرف فقط، وكان عليهما تقاسم الوجبات مع العائلة. كان زوجها الراحل، جيورجي، رسّاماً، ولا بدّ أنه قد رسم أكثر من مائة بورتريه لها على مدى حياتهما معاً، في كل وضعية يمكن تخيلها.

اشتهرت في شبابها كإحدى أجمل جميلات إسطنبول وسرت شائعات بأنه حتى السلطان، هو أيضاً، قد أبدى اهتمامه بها. ربما كان هذا أحد أسباب رحلتها المفاجئة مع الكونت جالفالفي. لم يُرزقا بأطفال وحين توفي الكونت، وجدت الإقامة غير محتملة في الغرف الثلاث وعادت من جديد إلى إسطنبول بصحبة جميع لوحاته. ما أثار دهشتها أن تاجر قطع فنية سمع باللوحات من صديق مشترك وطلب في أحد الأيام أن يراها. أمضى ساعات عديدة يتفقدتها ويتأمل كل واحدة منها منفردة. لا بدّ أنه كان شخصاً نزيهاً، لأنه عرض عليها مبلغاً طائلاً من المال مقابل جميع اللوحات. احتفظت بوضع لوحات كانت تهيم بها وقبلت عرضه.

أذكر الذهب لرؤيتها مع أمي في مناسبات قليلة . كانت تعيش في منزل كبير لا يبعد عن منزلنا إلا بمسيرة ربع ساعة . وحتى في أيام الشتاء عندما تشرق شمس ممتعة كانت ستائر منزلها مسدلة على الدوام . ربما أرادت أن تعيد خلق الأجواء المغلقة للغرف التي أمضت فيها خمسين عاماً بصحبة الكونت . بدأت تزور معهد الفنون وكانت كثيراً ما تدعو طلبة الفنون الجميلة لتناول الشاي معها . وإذا كانوا من أسر فقيرة كانت تساعدهم مالياً وإذا كانوا من جزء آخر من الإمبراطورية كانت تدعوهم للإقامة معها . كانت كاترين الهادف طالبة فنون تشكيلية من القاهرة . كانت تقيم مع بعض أصدقاء والدها المزعجين حينما التقت بالسيدة العجوز في المعهد . وفي غضون أسبوع كانت كاترين قد نصبت مقامها في غرفة كبيرة على سطح المنزل . لم تكن لغرفتها ستائر وكان النور مثاليًا ، تدخل الشمس إليها أغلب السنة . كانت كاترين في غاية من السعادة والحماس .

رأها خليل ذات أصيل حينما ذهب بصحبة أمه لتناول الشاي مع الكونتيسة جالفالفي . أعجب بها للغاية والأغلب أن اسمها قد تسلل إلى دفتره الخاص في وقت لاحق من هذا اليوم نفسه كإحدى العرائس المحتملات له . اختلس سلمان ذات مرة نظرة على دفتر خليل وأقسم لي أن تلك القائمة موجودة بالفعل ، ولكن حينما أغظنا خليل احمرّ خجلاً وأصرّ أنها كانت مزحة . لست متأكدة من هذا . أعتقد أن القائمة ، سواء كتبت بالفعل أم لا ، كانت على الدوام حاضرة في عقله . انزلت كاترين حتى بلغت رأس القائمة دون حتى أن تبذل أدنى جهد في ذلك .

كان خليل من نوع الأشخاص الذين يتجنبون المجازفات، ولكنه لم يكن يجيد الحكم على الشخصيات. أخبرني ذات مرة أنه لم يثق في غرائزه قط لأنها دائماً ما خذلته. حينما سألته أن يوضح لي أكثر تبين أن ثلاثة ضباط شبّان اعتقد أنهم مخلصون له قد خانوه وخذلوه أشد الخذلان.

كانت زينب أول من أسرّها بمسألة كاثرين، شعر خليل بأنها ستكون الزوجة المثالية له. لم يرغب في العيش مع امرأة ليس لديها ما تفعله طيلة النهار، من شأن هذا أن يقوده للمجنون. هكذا قال لأمه، التي أعربت عن استيائها لأنه أراد الزواج بمسيحية. كم أغضبَ هذا خليل. وقد أبلغ أمه أنه قد يتزوج من قردة إذا شاء.

بعد ذلك، وما أصابنا بحجية أمل، اكتشفنا أن كاثرين تنتمي إلى عائلة شيعية تقليدية. وأن اسمها لم يكن إلا نتيجة ولع أبيها ببورترية يرجع إلى القرن السادس عشر كان اسمه كاثرين دي ميدتشي، كان قد اشتراه قبل سنوات عديدة من تاجر في إسطنبول. كانت اللوحة غير ممهورة بتوقيع الرسّام، وقد اشتراها والد كاثرين بثمن جيد جداً. حتى إذا عرضها ذات يوم على تاجر زائر من فينيسيا بدأت المشكلات. كان الفينيسي مقتنعاً تماماً أنها للرسام تيتان وكان متأكداً من هذا حتى إنه عرض شراءها بمبلغ محترم. رفضَ والد كاثرين أن يفترق عن اللوحة، ولم تفلح معرفته بأنه قد تكون إحدى لوحات تيتان إلا في تقوية ارتباطه بها. وأخذ يزداد هوساً بها تدريجياً، وحينما رزقته السماء بابنة، بعد أربعة أولاد، أسماها كاثرين، على الرغم من الاعتراضات الغاضبة لزوجته.

مالت الكونتيسة جالفالفي إلى خليل خطيباً لكاثرين ، وزكته بشدة عند أهلها . أمّا كاثرين نفسها فقد بدت غير مبالية ، ولكن قيل إنها سألت خليل ما إذا كان سيمنعها من ممارسة الرسم وبعد أن أجابها بأن الرسم كان أحد أسباب رغبته في الزواج منها ، قبلت به . لم تسأله قط عن الأسباب الأخرى . وصل مالك لوحة عصر النهضة مع عائلته حسبما تقتضي الأصول إلى إسطنبول ونزلوا ضيوفاً على الكونتيسة . وكان الزفاف نفسه حفلاً متواضعاً ، حضرته العائلتان فقط وبعض الأصدقاء المقربين .

كانت كاثرين امرأة صادمة الجمال ، هيفاء وممشوقة وذات بشرة سمراء وشعر بني داكن يبلغ كتفيها . انحنى ظهرها بلطف ورقة تحت ثوب زفافها . كانت شفتاها رفيعتين وعيناها ضيقتين وامتزاج ملامح وجهها معاً منحها سمناً بناتياً . عندما رأيتها لأول مرة أتذكر أنني قلت لنفسي ، في حسد ، هذه امرأة لن يظهر عليها التقدم في السن أبداً .

بعد مرور عام ونصف ، أنجبت كاثرين صبيين توأمين بصحة جيدة . لم يكن في تاريخ أي من عائلتنا أو عائلتها سابقة بإنجاب أي توأم ، وهو ما أثار بضعة تساؤلات ، لكن بينما كبر الصبيان بددا كل الشبهات . فقد كان يشبهان خليل تماماً وكنا جميعاً نعشقهما . كثيراً ما جاءوا إلى منزلنا وفي كل صيف كانوا يأتون إلى هنا لبضعة أسابيع . أحببت كاثرين هذا المنزل ورسمته من كل زاوية ممكنة . كانت في ذلك الحين تجمع أدواتها وترسم الجروف الصخرية والبحر . إحدى تلك اللوحات ، تبدو فيها النوارس مثل حبات البرد وقد تدلّت فوق المحيط الأخضر الداكن ، ما زالت معلقة في المكتبة . تحدّثت إليها كثيراً ، غير أنها كانت عادةً جافية ومتحفظة . وهكذا كان حالها

مع جميع الآخرين . وبما أن خليل كان يتغيّب في الجيش لفترات طويلة ، كان كل شخص هنا يحاول أن يتودّد إليها ، ولكنها صدّت الجميع ، باستثناء واحد هو أمي . لسبب ما مالت كاترين إلى أمي ، وقد رسمت لها بورتريهين بديعين للغاية ، كنتُ أحتفظ بأحدهما في غرفتي القديمة في منزل إسطنبول .

ولكن منذ بضعة أعوام ، وبعد أن احتفل التوأمان بعيد ميلادهما الخامس عشر ، أدركنا أن خطبًا ما قد وقع وهو ليس بالأمر الهين . وكالمعتاد كان مصدري حول هذا الموضوع هو زينب .

" أمر رهيب حقًا ، يا نيلو ، رهيب حقًا على المسكين خليل . أقسمتُ له ألا أخبر أي شخص ، ولكن ما تفعله في غاية القسوة ، بجد في غاية القسوة ! "

كلّما كان لدى زينب أبناء ذات شأن تريد الإفضاء بها تكتسب فجأة عادة تكرار كل جملة أو عبارة مرتين ، متصوِّرة أن هذا سيضعف من التأثير بطريقة ما . غير أنه كان له التأثير المناقض تمامًا عليّ . كنتُ أغتاض من طريقتها في الحديث بحيث لا يمكنني التركيز على محتوى كلامها . وأخبرتها بهذا مرات عديدة ، ولكن لم تكن تستطع أن تمنع نفسها حقًا . كانت القصة التي أخبرتني بها مزعجة ومحيّرة .

بعد مولد التوأمين بيضعة شهور ، أخبرت كاترين خليل بأنها لا تريد إنجاب المزيد من الأطفال . انزعج لهذا ، ولكنه رضي باختيارها ، ولم يحاول قط أن يضغط عليها أو يدفعها في ذلك الاتجاه . وبعد ذلك بفترة وجيزة رفضت أن تشاركه فراشه وصدّت تقربه إليها . قالت له إنها أصيب بصدمة نفسية بالغة عندما أنجبت التوأمين والآن صارت مجرد فكرة الجماع والتناسل

تملأها بالغثيان . ونصحته بأن يجد لنفسه زوجة أخرى أو حتى عشيقة أو ما يطيّب له . كانت مستعدة للقبول بأي شيء ما دام كلٌّ منهما سيدع الآخر في حاله . عند هذه النقطة كان عليّ أن أقاطع زينت .

سألتهما : " قول لي ، ألم يفتح دفتره الصغير ليستشير قائمته عند ذلك؟ "

بقيت زينب جادة . " كلاً ، أرجوك . لا تحاولي الاستظراف . لا تحاولي الاستظراف . الأمر في غاية السوء . "

ما جعله في غاية السوء كان قرار كاترين بالانتقال إلى القاهرة وأخذ الولدين معها . أراد خليل أن يبقى الولدان معه ، رأى أن هذا سيعيق دراستهما في اللبسيه ، ولكن كاترين لم تكن لتتنصت إلى صوت العقل . لم تكن تحبذ التعليم الرسمي ورأت أن الولدين سيتعلّمان أكثر من خلال الترحال . أخذتهما وعادت بهما إلى القاهرة وقضيا هناك سنة ، ولكن الولدان أرادا الرجوع إلى أبيهما وأصدقائهما . وعدت بإعادتهما إلى إسطنبول في الصيف وأن بوسعهما الإقامة مع أبيهما ، ولكن وصولهما تأخر ، وهو ما أغضب خليل . وقد هرع إلى إسطنبول في الدقيقة ذاتها التي سمع فيها بعودتهما . لقد استرد ابنه .

كان هناك شيء آخر إلى جانب ذلك كله . لقد أعدت له زينب قائمة وأرادت منه يلقي نظرة على أول ثلاثة أسماء فيها بحيث يصير لديه امرأة من جديد .

(٢٢)

ما قالته كاثرين للمرأة الحجرية

قبل عشرة أعوام

(كان رأياً حكيماً من نيلوفر حين أرسلتني إليك . لقد أحضرتُ معي مسند الرسم والألوان الزيتية، وسوف أرسمك بينما أتكلّم . أرجو ألاّ تمنعني . لن يكون من السهل أن أصل إلى الألوان الصحيحة . لا بدّ أنك قد لاحظتني وأنا أمزجها خلال الساعة الماضية . تبدين مختلفة تماماً حينما تضربك الشمس مباشرةً . عندما سمعتُ عنك أوّل مرة من خليل، وصفك على أنك إحدى الإلهات، ولكنك لست إلاّ صخرة ضخمة . لستُ واثقةً حتى إن كنت منحوتةً على الإطلاق، ربما كنت كذلك . هناك بضعة آثار هنا وهناك . هل يمكن أن يكون هذا ما تبقى من نهد امرأة؟ ربما . إن هذا يجعلك أشدّ إمتاعاً وإثارة للاهتمام . أعتقد أنني سوف أرسمك كما أراك بالضبط . اللون ليس دقيقاً، ولكنني سأبدأ .

ما ظنّك بهذه العائلة، يا امرأة يا حجرية؟ هل يبطنون ما يعلنون بالمرّة؟ الآن أبدأ في التساؤل لماذا تزوجتُ من الأساس . خليل رجل لطيف

ويفهمني، وليس عندي ما أشكو منه، ولكنني لم أعد أحتمل لمستهِ . لم أستمتع قط بالعلاقة الحميمة معه وأشعر أنني أديتُ واجبي نحوهِ بإنجاب صبيين معافين .

كم كانت ولادتهما أليمة، يا امرأة يا حجرية . ظننتُ أن ألي وكربي لن ينتهيا أبداً . فقدتُ كثيراً من الدم وأخذت الدايات تتهامسن فيما بينهما بنبرات جزعة . ظننتُ أنني سأموت . لم تظهر على السطح أي عواطف أمومية عندي، لم أشعر بشيء . لم أكن سوى فتاة مذعورة ولم يصلح الأمر حينما وجدتُ طفلاً يتشبث بكل ثدي من ثديي . كان إحساساً غريباً، شعرتُ وكأنني حيوانة . إن لم يعثروا على امرأتين لتكونا مرضعتين للطفلين لفرقتُ تدريجياً وانمحي أثري، ولكن الحمد لله أن جزءاً كبيراً من مخاوفي قد انزاحت عني . لا أظن أنني وُلدتُ لأكون أما، يا امرأة يا حجرية . أشعر بعاطفة وحنان نحو هذين الصبيين الصغيرين، ولكن حبهما لا يغمر كياني ويكتسحه، تماماً كما كان الحال مع أبيهما .

هل قلت شيئاً، يا امرأة يا حجرية؟ أستطيع أن أقسم أنني سمعتك تسألين لماذا تزوجتُ . كانت المعضلة التي واجهتني واضحة وبسيطة . كان عليّ إما أن أجد شخصاً من اختياري في إسطنبول وإما أن أرجع إلى القاهرة لأواجه مذلة أن تفرض عليّ أمي رجلاً من اختيارها، تماماً كما حدث مع جميع صديقات طفولتي . كنتُ أفضل الموت على هذا .

كانت أمي معارضة تماماً لفكرة أن أصير فنانة . كان أبي هو من شجّعني . تعلمتُ اللغة الألمانية بحيث يمكنني أن أساف إلى فيينا وأدرس تاريخ الفن هناك، ولكن أمي هددت بأن تقتل نفسها واختار أبي، في حماقة،

أن يصدّق تهديدها. في الحقيقة، لم تكن تكثرت لي كثيراً. كان لديها أربعة أبناء، جميعهم "استقروا في حياتهم"، كما كانت تقول. تزوّجوا، وأنجبت لهن زوجاتهم أطفالاً. لماذا لم تستطع أن تتركني لحالي؟ كان حل الواسط الذي تم الاتفاق عليه هو أن بوسعي الدراسة في إسطنبول، ذلك لأن خليفة المسلمين يقيم هناك. إحدى زوجات أشقائي، والتي كانت مثلها مثل الأخريات بدينة للغاية، لكنها بخلافهن ليست في غاية الغباء، كتبت لي وحذرتني من أن أُمي منشغلة بتجميع خطّاب لي من أجل اليوم المنتظر. أصابني الذعر، يا امرأة يا حجرية.

ناقشتُ المشكلة بصراحة مع صديقتي ماريا، الكونتيسة جالفالفي. ونصحتني بأن أقبل عرض خليل. كانت تعرف هذه العائلة من زمن طويل وقالت إنهم غير تقليديين بالمرّة على طريقتهم الخاصة ولن يقفوا في طريق مسيرتي الفنية أبداً. كنتُ صغيرة السن وقد صارت ماريا أمّاً لي، لذا أخذتُ بنصيحتها. بدا لي رجلاً في غاية اللطف، وحينما نظرتُ إليه عن قرب لأى شيء فيه يمكن لي رسمه، كان ما جذبني فيه عيناه المعبرتان الذكيتان. على خلاف أغلب معارفي من الرجال، لم يكن مغرمًا بسماع صوته. شعرتُ بأنه لن يكون سيئاً معي أبداً. لم يكن هو الرجل الذي كنتُ أبحث عنه لأقضي معه بقية حياتي، ولكن ذلك لأنني لم أكن أفكر في الرجال، كان كل تفكيرني منصباً على أن أصير رسامة. حينما كنت لا أزال في القاهرة، كانت صاحباتي يشرن إلى بعض الأولاد ويقهقهن، لم تكن تلك المقابلات تحرك في ساكنات.

بعد أن تزوّجتُ وجدتُ العلاقة الجنسية تتسم بالاحتحام والتطفل. كنتُ أعرف أنها لا بدّ أن تكون كذلك. كان عليّ أن أرقد وأن أتركه يُدخل

عصاه الصغيرة بداخلي ، ولكن يا مرأة يا حجرية ، إنني أشهد أمامك بهذا :
لم تكن هناك أي متعة في هذا من جانبي . لا شيء . عندما أخبرتُ بعض
نساء صديقات اعتقدن أن بي خطأ ما فاعتراني التوتر وهددتنني التعاسة . من
جانبه لم يكن يفتقد للشغف واللهفة ، ولكن لمستته كانت تتركني باردة بكل
بساطة . وحينما كنت أشعر برغبة في أن أُلَس بين ساقِي ، كنت أفضل أن
أعتمد على نفسي . كان هذا أقل قوضى وإثارة للضيق وأكثر جلباً للمسرة
واللذة . اعترفتُ بهذا لأقرب صديقاتي في إسطنبول ، والتي كانت رسامة
أيضاً ، فأخذت تمزح وقالت إن هذا كأنني أفضل الاسكتش الأولي الفج
على اللوحة الزيتية المكتملة . فكرتُ في قولها هذا لوقت طويل حتى أوشكُ
أن يدفَعني لنبذ الرسم بالألوان الزيتية .

لم يجمعني فراشٌ بخليل منذ ثلاث سنوات الآن ، منذ أن وضعتُ
طفلي . لم أشعر بحافز للعثور على رجل آخر . في الحقيقة لا أشعر بأي حافز
يحتاج إلى شخص آخر لإشباعه . إنني مكتفية بعملِي وراضية به .

ذات يوم أخبرتُ ماريا بطرف من هذا ، متخيلة أنها ستصاب الذعر ،
ولكنها لدهشتي تفهمتني على خير وجه . وقالت لي إن بعض النساء
متقدات الشهوة وبعضهن غير كذلك . هي نفسها كانت شعلة من الشهوة في
حياتها مع الكونت جالفافي ، ولكنها كانت محظوظة . قالت لي إنه ليس
هناك ما يدعوني للخجل في هذا الوضع . ثم نظرت لي نظرة متفحصة
وطرحت عليّ سؤالاً ، وصدّقيني يا مرأة يا حجرية ، هزّ كياني كله من
جنوره . سألت ماريا إن كنت أفضل التواصل الحسي مع نساء أخريات عن
الحميمية مع الرجال . لا بدّ أن وجهي احمرّ لأن الضحك غلبها وأخبرتني

بالأقلق إذا كان الأمر كذلك. كانت إسطنبول مليئة بنساء يفضلن بعضهن البعض ولم تكن مشكلة كبرى.

صدمني سؤالها للغاية إلى درجة أنني تجنبتها لبضعة أسابيع. كان استوديو الرسم الخاص بي ما زال على سطح منزلها وهكذا لم يكن بوسعي أن أبقى بعيدة إلى الأبد. وذات يوم ذهبتُ إلى هناك لأرسم فوجدتُ امرأة شابة تنتظرني. كانت هي أيضاً من القاهرة وقد أتت معها برسالة من والدي. . كانت ابنة أحد عملائه المهمين (أبي يتاجر في التحف والأنتيكات، يا امرأة يا حجرية) وأرادت أن تكون رسامة. كانت تقضي بضعة شهور في إسطنبول مع عمها قبل أن تسافر إلى فلورنسا.

كانت راشيل، الأصغر مني ببضع سنين، تستحق أن تكون في فلورنسا. كان لها وجه بديع الجمال، توطره خصلاتٌ ملفوفةٌ سميكة ذات لون أحمر ذهبي. إنه أجمل وجه رأيته في حياتي. أردتُ أن أرسم راشيل، أردتُ أن أرسم ذلك الوجه بكل تفاصيله الصغيرة، دون أن أضيع منه ولو ثمرة واحدة. وأردتُ أيضاً، يا امرأة يا حجرية، أن أرسمها كلها بشبابها وبدون ثيابها.

فرجتها على إسطنبول. أخذتها إلى الأجزاء العتيقة من المدينة، وجلستُ معها على حافة الماء على القرن الذهبي ومياهه تتلألأ في ضوء البدر ونحن نشرب أطيب قهوة تذوقتها على الإطلاق في إسطنبول.

صحبتها إلى منزلي. رأيتُ التوأمن وضمتهما بين ذراعيها. قابلت خليل، وقد أعجب بها وسره أنني وجدتُ لي صديقة. طلبتُ منها أن أرسمها فشعرت بالإطراء ووافقت. بقيت في إسطنبول لشهرٍ بكامله، وفي

أثنائه رسمتُ كل المنحاة، وكل خط من وجهها وجسدها. لم تخلع ثيابها أمامي لأرسمها عارية، ولكنني تخيلتُ ما تخفيه ثنايا القماش وانتابها الدهول أمام دقة خيالي.

ثم غادرت إلى فلورنسا. تواصلنا عبر الرسائل بانتظام. وصفت لي التلال المحيطة بمدينة فيزولي، وضوء السماء قبيل الغروب وبُعيد الشروق، وما كانت تقوم به من عمل وكم كانت تفتقد صحبتي. كتبت أنها رأَتْ لوحةً ما، وأخذت تتأملها وتدرسها لما يقرب من الساعة، وهي تحاول أن تكتشف كم من المرات غير الفنان الكبير رأيته، وكم من طبقات اللون استخدم. والتفتت إلى جانبها فجأة لتناقش الأمر معي وكم ضربها الحزن حينما اكتشفت أنني لستُ هناك ننظر إليها معاً. كثيراً ما اجتاحتني الرغبة الحارقة في أن أترك كل شيء هنا وأن ألحق بها في فلورنسا، ولكن ماريا جالفالفي نصحتني بالحذر وامثلتُ أمام خبرتها. وبدلاً من ذلك، كنتُ أختفي بصحبة دفتر الرسم وأستغرق في رسم راشيل كما تخيلتها في أماكن مختلفة من إسطنبول. عاشت في فلورنسا لثلاثة أعوام.

لقد عادت الآن إلى القاهرة وبدأ مصاصو الدماء يتجمعون حولها. كانت كل أم تتمنى أن تأخذ راشيل لابنها، وهو ما لم يكن أمراً مستغرباً. كان أبوها من أثرياء اليهود؛ وهي آية في الحسن. كان هذا المصير المحتوم لها يملؤني بالكآبة. لقد سئمتُ العيش بدونها، يا امرأة يا حجرية. سوف أعود إلى القاهرة بصحبة طفلي. ستحظى راشيل بأطفال هي أيضاً. وسوف تعزّي إحدانا الأخرى وترسمُ كل منا صاحبته، وسوف نعرث على استوديو في الإسكندرية من أجل شهور الصيف حينما تصير القاهرة غير محتملة.

وماذا عن خليل؟ سيعيش ويتجاوز الأمر. سوف يجد له امرأة أخرى،
امرأة سوف تحبه وتمنحه المتعة التي لم يحصل عليها مني قط. أعتقد أنني
أديتُ واجبي.

كم أودّ لو أن بوسعك رؤية ما رسمته الآن. لقد رسمتكَ كصخرة
عملاقة، يا امرأة يا حجرية، ولكن الآن فقط ألاحظ كم تشبه عينك عينيها،
عيني راشيل.)

(٢٣)

رسول يصل من نيويورك برسالة إلى سارة؛
ومحمد يخطط لترويج جو القبيح
لإحدى بنات كمال

"من ابن الحمار الذي يسبب هذا الضجيج؟"

ظننت أمينة أن هذا الكلام موجه لأورهان فأخذت تضحك، غير أنه لم يكن الطفلان هما من ألقى عمي. كان يوماً حاراً فقرر عمي محمد عن حكمة أن يأخذ قيلولة بعد الظهر بالخارج، في الجزء الظليل من الحديقة، حيث تطف أنسام البحر من حدة الحرارة. كنت جالسة على مقعد بجانبه أحاول أن أفهم شيئاً من أغوست كونت. كان الطفلان يلعبان لعبة غبية، بتصويب ثمار البندق النيء على أحدهما الآخر من بعيد.

ما أيقظ عمي محمد كان ضجة وصول عربة وأصوات غريبة تأتي من المدخل الأمامي. كان بستاني يقترب منا وفي أثره طيف إنسان. أشار البستاني نحوي ثم تراجع. قدم الطيف الغريب انحناءة مرتبكة قليلاً لي أنا ومحمد، ثم بدأ يتحدث بأسوأ فرنسية سمعتها في حياتي كلها.

" لقد وصلتُ من نيويورك إلى أوروبا قبل بضعة أسابيع . بجوزتي طرد لدام سارة ، زوجة إسكندر باشا ، وعندني أوامر مشددة أن أودعه بين يديها هي ولا أحد سواها . "

ظهر بتروشيان من الفراغ ، منزعجاً لأن غريباً قد اقتحم علينا خصوصيتنا هكذا . أخبرته أن يعدّ بعض المرطبات لضيفنا ، وقررتُ أن أستعين بأعقد وأرفع لكنة فرنسية ممكنة .

" سوف أبلغ أمي بوصولك ولنر إن كان بوسعها استقبالك الآن . ما اسمك ، يا مسيو؟ "

" إيسيه ، جوزيف سولون ، ولكن يكفي جو ، الجميع يناديني جو . "

" بتروشيان ، من فضلك اصحب مسيو جو إلى غرفة الاستقبال . "

بينما يتعدان ، قال محمد وهو يقهقه : " يسرني أنك ستجعلينه يسحّ عرقاً في غرفة العقاب . "

كان هذا هو الاسم الذي أطلقه البارون على غرفة الرقص بعد زيارة إيفيت وقد صارت مزحة متداولة في المنزل منذ ذلك الحين .

واصل عمي قائلاً : " لاحظت مقدار قبحه؟ أعني أنه قبيح حقاً . إنه الزوج المثالي لإحدى بنات عمك كمال . هيّا بنا يا نيلوفر نلعب دور الخاطبة ببعض الشيطنة . سوف نخبر زوجة كمال بأن سلطاناً جديداً ، سلطاناً بأمواله ، قد وصل من نيويورك واسمه جو القبيح . "

ضحكت . كان محمد قاسياً ، ولكنه على صواب . لم يكن الأمر فقط أن جو سولومون مرتبك وغير واثق في نفسه ، فالبدلة التي يرتديها كانت

أضيق مما يجب وتحت إبطيه منقوعين بالعرق، وهو ما كان غير مقبول في حد ذاته. ما زاد الأمر سوءاً أنه كان ضخماً وبيدياً، ذا وجه لحيم راكد ببشرة مجدورة، يُهمينُ عليه أنفٌ بصليّ الشكل، يذكرني بالخيار التالف الذي يتخلص منه بستاني الخضروات الخاص بنا ويرميه في البحر. تُرى هل كان جو القبيح بحاجة إلى عروس ذات بائنة محترمة؟ كان هذا هو سؤال اللحظة. وإذا كانت الإجابة هي نعم، فربما نعيده إلى نيويورك بصحبة عروسه.

للهولة الأولى ظننته جواهرىّ قد أحضر هديةً لأمي من العم كمال، الذي كان كثيراً ما يرسل لنا هدايا، غير أنني أدركتُ أن ثيابه كانت أسوأ من أن يكون رسولاً. وعندئذ عرفت، لا بدّ أنه ابن سليمان.

ماذا يوجد في تلك اللقافة؟ أُلقيتُ بكرامتي في البحر وهرعتُ للمنزل، في الوقت نفسه التي كانت فيه أمي تنزل الدرج بانزان ووقار. وقبل أن تتاح لي فرصة أن أحذرها من أن الزائر قد يكون أخي غير الشقيق، وجدت بتروشيان يفتح باباً غرفة العقاب ويذهلني بإعلانه بصوت فخيم وبلكنة فرنسية جيدة:

" مدام إسكندر باشا و مدام نيلوفر سليم باشا . "

ضحكنا لإعلانه الفخيم هذا، ولكننا جاريناه في روح الكوميديا هذه، وتأبطت كلٌ منا ذراع الأخرى، بينما اكتسحنا غرفة الرقص بمنتهى الأناقة. كان جو سولومون مبهوراً. لقد فهم بتروشيان عقليته بسرعة شديدة. انحنى جو القبيح أمام أمي.

" يسعدني أنك استطعت استقبالي، يا مدام. هذه غرفة خرافية الجمال. ما أعظم قصركم هذا! أنا جوزيف سولومون، يا مدام، ومعني طرد أمرني أبي الراحل بالأأسلمه إلا لحضرتك . "

شحب وجه أُمي بصورة ملحوظة . " أبوك الراحل؟ "

" نعم، يا سيدتي . سليمان الدمشقي ، كما كنت تعرفينه ذات يوم .
لم يتوقف قط عن الحديث عن كرم عائلتك معه . "

جلست أُمي على الأريكة وطلبت بعض الماء . نظرت إلى جو القبيح
بتفحص . كان واضحاً أن حضوره قد أغضبها .

" يؤسفني أن أسمع أن سليمان قد توفي . أنت لا تشبهه على الإطلاق . "

" وهو لم يتوقف قط عن تذكيري بذلك يا سيدتي . "

قامت وجلست بالقرب من النافذة بينما رسمتُ أو هن ابتسامتها .
ابتسم لي وفي هذه اللحظة شعرتُ بالتوعك . كان فمه منخوراً ومنقوراً ، وجميع
أسنانه ملوثة بلون أصفر داكن غريب وكل منها قد تفتت وتهشمت من أطرافها .
كان المنظر غير إنساني . استرحت عندما دخل أخي سلمان الغرفة ، بناء على
توصية عمي محمد له كما أخبرني فيما بعد ، حتى يرى بنفسه هذا الشخص .
اعتذرتُ منهما وذهبت لأرى أُمي الجالسة في الطرف الآخر من الغرفة .

كانت مولية ظهرها لجو القبيح وسلمان وأخذت تبكي في صمت . وضعتُ
ذراعيّ حولها . ودون أي كلام ناولتني الرسالة التي فرغت من قراءتها للتو .

سارة يا أعز الناس ،

إن مقدرتنا على خداع الذات لا حدود لها وقد عانيتُ طوال حياتي
نتيجةً لها . هذه رسالة للشرح والتفسير يا سارة . سأكتب الحقيقة ، فمن غير
المجدي لرجلٍ محتضر أن يفعل شيئاً سوى ذلك .

على مدى الأشهر الستة الماضية كنتُ أموت ببطء . ليس لدى الأطباء علاج لأنهم لا يعلمون شيئاً عن ذلك الوحش الذي يفترسني من الداخل . فات أوان الندم على أنني صرتُ رسّاماً بدلاً من أصبح طبيباً ، فمن يدري؟ ربما استطعت عندئذ أن أعالج نفسي . ربما ما يفترسني هو ندمي نفسه ، والذي لم يبارحني قط منذ ذلك الصباح المشؤوم الذي ركبتُ فيه سفينة متوجهة إلى ليفربول ونيويورك .

عندما تصلك هذه الرسالة سأكون قد متّ ودفنت . مضى الآن أكثر من ثلاثين عاماً منذ أن غادرت إسطنبول . هل تذكرين ما قلته لي حينما أخبرتك كم كنتُ أشعر بالغم والخواء؟ لقد ابتسمت لي ابتسامة باردة وبميتة وقلت : " إنك تتركني وقلبك مكسور يا سليمان ، ولكن معك صرة أموال ثقيلة . أنا واثقة أن أحد الأمرين سُنيسيك الآخر . " لم أنس تلك الكلمات طول عمري . كيف أمكنك أن تكوني قاسية للغاية هكذا ، يا سارة؟ ودقيقة للغاية أيضاً .

كان والدك سخياً ، وكنت غاضبة . عرفت أنك أردت مني أن أقول إنه لو كان ثمة خطر في أن ننجب أطفالاً حاملين لمرض مميت فإننا لن ننجب أي أطفال إذن ، ولكنني خشيتُ أنك قد تنقمين عليّ فيما بعد وتصيرين ممرورة لأنني حرمتك من أن تصبحي أمّاً . هذه الجملة الأخيرة لم تخطر لي إلا الآن فقط يا سارة ، إنها خلاف الحقيقة . ما إن يكتسب المرء عادة التحديث بخلاف الحقائق يصبح من العسير عليه أن يفعل غير ذلك ، حتى بالنسبة لرجلٍ محتضر ، ولكنني مصمم على أن أكسر هذه العادة هنا والآن .

بعد كل تلك السنين ما زلتُ أجد من الصعب عليّ تقبل أنني قد استسلمت بكل سهولة أمام كرم أبيك . لقد اهتمتني بالجبن وبالغدر لأنني خنتُ الحب الذي منحني إياه دون مقابل . ولم يكن حكمك خاطئاً .

لا أعتقد أن والديك قد اخترعا قصة ذلك المرض لكي يمنعا زواجنا . فإن أبي نفسه قد أكد لي إنها كانت مشكلة خطيرة، رغم أن أمي قد أصرتُ بالقدر نفسه على أنه لا شيء مؤكد وأن زيجات عديدة قد أثمرت أطفالاً معافين . ورغم ذلك فقد تقبلتُ أن في الأمر مجازفة .

ليس في هذا عزاء لأبي منا الآن، ولكنني أريدك أنني ظللتُ طيلة حياتي نادماً على مغادرة إسطنبول . أتمنى لو أنني أقدمتُ على المجازفة يا سارة . أتمنى . أتمنى . أخبرني عمك سفره أن لديك ابنة جميلة، يُشعرني هذا بسعادة خاصة . لم يكتب لي الحظ نفسه . أعرف أنك تفكرين قائلة إن القبح لا يلد غير القبح، في الشخصية كما في الملامح . كما سوف تلاحظين، فإن حامل هذه الرسالة قد يكون له بعض الخصال الحميدة، ولكنه بلا شك لا يسر الناظرين . لقد ورث ملامح أخواله الذين يتصفون بالخداع والجشع، وصاروا أثرياء بنهب أموال قومهم .

في دمشق وإسطنبول كنا ننزع إلى مساعدة بعضنا بعضاً، ولكن ليس في هذا الجحيم . عندما وصلتُ إلى هنا في البداية " بقلب مكسور وصرّة أموال ثقيلة " ، أوصاني البعض بالإقامة عند عائلة من يهود بولنده الذين فرّوا إلى هنا منذ عشر سنوات من المذابح التي يوجهها قومهم . تعاملتُ مع ما أبدته لي هذه العائلة من طيبة كما تبدو في ظاهرها . ظلّوا في غاية من اللطف معي بينما يحاولون أن يخففوا عني ثقل صرة نقودي ويداووا قلبي

الجريح . وراحوا يدفعونني للزواج من كبرى بناتهم، تامارا، وما إن استسلمت (كان الأمر ملائماً، لم يكن دافعي إلا اليأس والوحدة يا سارة، لا شيء أكثر، دون أن يمس هذا حبي لك)، حتى وجدتُ صُرتي تصبح أخف وأخف مع مرور كل يوم. استأجرتُ استوديو وبدأتُ أرسم بورتريهات. ذاع صيتي ببطء وحينما طلبني روكفلر لأرسمه، أدركتُ أنني سأنعم بالراحة لبقية حياتي . ولكن ما جدوى الراحة المادية يا سارة، إذا ما كانت خزانة المرء العاطفية والروحية خاوية تماماً؟

طيلة الوقت كنتُ أعاني من فكرة أنني فقدتُك، ولم أتمنَ لك سوى السعادة . المتع التي حظيتُ بها كانت عابرة، غالباً في أستوديو الرسم الخاص بي مع بعض النساء اللاتي أحبن أن يتخذن أمامي أوضاعاً لأرسمهن . لم أستطع مقاومة إغراء اللحم الفتى الغض .

اضطرتُ إلى العثور على مكان آخر حينما داهمتني زوجتي ومعها أشقاؤها ذات يوم وباغتتني وأنا بصحبة امرأة . لم يتعرضوا لي بأذى، لكنهم تركوا على الفتاة المسكينة وسماً سيدوم مدى الحياة حينما نحتوا وجنتها اليسرى بسكين . أتذكر أنني فكرت بك بعد وقوع تلك الحادثة وتساءلت تُرى بمَ ستفكرين لو رأيتِ إلى أي دركٍ قد انحطت .

إنني أكتب لك هذا كله فقط لتعرفي أن الحياة قد عاقبتني بما يكفي على الخطأ الذي اقترفته منذ ثلاثين عاماً . ستجدين في هذا الطرد الاستكشاث التي رسمتها لك في إسطنبول والتي ظللتُ محتفظاً بها في إعزاز واعتدتُ أن أتأملها سرّاً لكي أخفف من وطأة بؤسي وأتذكر أوقاتنا معاً . كانت فترة قصيرة، ولكنها كانت أسعد أيام حياتي . أتذكرين ذلك اليوم في مكتبة أبيك

حينما عثرنا على قصة النبي بلعام مع المؤابيين فأخذنا نضحك ونضحك؟
وذلك شيء آخر قد اختفى من حياتي: الضحك.

أرسلُ لك أيضاً بورتريه صغير للغاية بألوان الزيت رسمته لك من
الذاكرة. لعله يكون تذكراً منك لابتك ولأحفادك. تلك هداياي الأخيرة
لك يا سارة. أتمنى أنك ستغفرين لي.

سليمان.

نظرتُ إلى الاستكشاث وإلى البورتريه الزيتي لأمي. كانت الاستكشاث
في غاية الحيوية والمصدقية، بقدر كبير من الحركة وقد أظهر أحدها نهذاً
عاريًا. أما البورتريه المنمم فقد كان مرسومًا على خلفية من الأحمر القرمزي
وبدت عينا أمي فيه مفعمتين بالحزن. لا بدّ أنه هكذا رآها لآخر مرة وهكذا
لبثت ذكرها معه.

"اتركيها معي يا بُنتي. يمكنك أن تأخذها بعد أن أرحل. مسكين يا
سليمان! وقع في الفخ إلى الأبد. أشعرُ بالأسف والحزن من أجله حقًا،
ولكنه حطّم حياته وحياتي أيضًا."

"لقد فزتِ بي، يا ست سارة. أنا! فهل هذا لا شيء عندك؟"

ضممتني إليها في عناق حار. "بل كنت كل شيء عندي، يا صغيرتي.
كل شيء. فبدونك، أنا أيضًا، ربما كنت ميتة الآن. علينا ألا نخبر هؤلاء
الناس أبدًا أنك ابنته. مجرد فكرة أنك تتمين بصلة إلى هذا الولد البدين
تصيبني بالغثيان."

"مع ذلك فربما ينتهي به الأمر عضواً في أسرتنا. محمد وسلمان والبارون، كما أرى الآن، سيذلون جهدهم لتزويجه من إحدى بنات عمي كمال!"

ضحكت أمي حتى فقدت السيطرة على ضحكاتها ولم تستطع كبح زمام نفسها. ناولتها بعض الماء ولحقنا بالآخرين.

"مسيو جو، إنني أشكرك على إحضار هذه الحزمة المهمة طوال الطريق من نيويورك وحتى هنا. أليس لديك صورة فوتوغرافية لوالدتك وبقية عائلتك؟"

هزّ جو رأسه نائياً. "إنني أسافر بمتاع خفيف يا مدام، وخصوصاً في الصيف."

كانت كل نغمة في ضحك البارون زائفة. "منتهى الحكمة. كنتُ أقول لجو الشاب أنه لا بد، في طريق عودته إلى دمشق، أن يتوقف للقاء كمال باشا في إسطنبول. إن جو محامي، كما تعلمين يا سارة، ويمكنه أن يكون مفيداً للغاية عندما يبدأ كمال شركة سفن الشحن البخارية."

أوما جو بحماس. "إنني متخصص في إدارة الأعمال والشئون التجارية. يمكنني أن أقدم له عوناً كبيراً، وخصوصاً في فرع نيويورك. يسرني أن ألتقي كمال باشا عند عودتي. ليس بي رغبة حقيقية في زيارة دمشق. يقولون لي إنها مغبرة للغاية ومزعجة في فصل الصيف، ولكن عائلة أبي ما زالت هناك ولا بدّ لي من أن أقدم لهم احتراماتي."

قال سلمان: "آه طبعاً، وسوف تسرهم رؤيتك للغاية. ستكون مفاجأة حقيقية لهم، خصوصاً أنك لا تشبه أباك بالمرّة."

سأله محمد: "لماذا لا تبقى لتتناول العشاء معنا؟"

كانت هذه مبالغة واضحة فحدقنا فيه جميعاً، غير أن جو والحمد لله كان عنده خطط أخرى والحوذي الذي صحبه كان عليه أن يرجع إلى المدينة الليلة.

بعد أن انصرف انفجرنا جميعاً في الضحك. كانت أمي مصدومة قليلاً، ولكن ليس بقدر ما تخيلت. نظرت إلى شقيق زوجها.

"هل ستنجح يا محمد؟"

"إذا ساعدتموني جميعاً، أعتقد أنه أمر مقدور عليه. الفتى البدين غير متدين على الإطلاق، وهو أمر جيد. من السهل رشوته وإقناعه بالتحوّل إلى ديننا. ويمكننا أن ندفع لأي خصي حتى يرتدي زي السلطان وبصفته خليفتنا يمكنه أن يقوم شخصياً بإدخال جو القبيح إلى دين إبراهيم الخليل. هل نحن متفقون جميعاً؟ رائع. لا بدّ من كسب إسكندر إلى صفنا الليلة. لا بدّ أن يسعد كمال بخطتنا. سيرجع جو القبيح إلى إسطنبول في يناير. فلنوسم القرن الجديد بعلامة هذا الزفاف. ومن يدري فلعل المائة سنة التالية ستكون في صف أشخاص مثل جو القبيح. يسرني للغاية أننا متفقون. كان هذا يوماً مثمراً جداً بالنسبة لي، أيها البارون."

"يسعدني أن أسمع هذا يا محمد، فأحياناً ما يساورني القلق من أن ذكائك لا يلقى المحفزات الجديدة به."

عندما دخلتُ غرفة أمي في وقت لاحق من هذا اليوم، وجدتُها جالسةً على الأرض تتطلع إلى البورتريه الزيتي.

" هل تفضلين أن تكوني وحدك؟ "

" لا يا نيلوفر، لا يا أعلى الناس . بل أفضل أن أكون معك . "

تحدثت عن الحلم الذي جعلها تهرع نحو المرأة الحجرية . " كيف يمكن أن تحدث أمور مثل هذه، يا نيلوفر؟ أنا لا أؤمن بالخرافات، ولا أصدق في أكاذيب المنجمين والعرافات، ولكن هذا الأمر يدفعني للتساؤل . أيمكن أن تحدث لنا مثل هذه البصائر الغريزية بشأن شخص كنا أو ما زلنا قريبين منه؟ أحسب أن هذا هو التفسير الوحيد . الأمر الغريب أنني لم أكن قد فكرتُ في سليمان منذ فترة طويلة للغاية حينما اعترضَ هذا الحلم نومي . "

تناولت يديها وقبّلتها . " هل ساءك خبر موته إلى هذا الحد؟ "

" كلاً، " همست . " عرفتُ أنه يحضر منذ أن رأيتُ ذلك الحلم، ولأنني كنتُ متأهبة لموته بوسعي أن أتحمّم في عواظي . ما ساءني هي رسالته . لم أظن قط أنه سيقرّ بالحقيقة . كان يعرفني تمام المعرفة، ذلك الفتى . كان يعرف أنني سوف أواصل التساؤل عن الأسباب الحقيقية وراء قراره هجري . كان تفكيراً صائباً منه أن يكتب لي، رغم أنه كان من الرهيب أن أقرأ أن أبي قد اشترى رحيله بالمال . ياللمغفل ! "

" هل انتهى العذاب الآن، يا أمي؟ هل انتهى كل شيء؟ "

" نعم، يا ابنتي . أنا متصالحة مع نفسي . إن كان قد رآك وعرف أنك ابنته لكنتُ أسعد من ذلك حتى . مسكين يا سليمان . كان عاشقاً كبيراً للجمال، الناس الجميلة والأشياء الجميلة . لا بدّ أنه كان عذاباً بالنسبة له أن يرى جو القبيح في كل يوم من أيام حياته . لا يا نيلوفر، لا تعبسي . المشكلة

أن سمات شخصية هذا الشاب لا تختلف بالمرّة عن سمات صورته . جميعنا يعرف هذا بغريزته ، وهو ما عرفه أبوه أيضاً . "

"ماذا كانت تلك الحكاية عن بلعام التي جعلتكما تضحكان كل هذا الضحك؟"

ابتسمت وسارت بهمة إلى خزانة صغيرة في غرفة زينتها وعادت بنسخة من التلمود .

"في ديننا، يا نيلوفر، لا تأخذ الأحبار بخصومهم أي شفقة . كان هذا صحيحاً في الأزمنة القديمة كما هو الآن . وإذا اعتقدوا أن شخصاً ما قد خان اليهود، أو بتعبير آخر شيوخهم الكبار، فإنهم لا يبدون نحوه أي رحمة . وكان لا بدّ من الفتك بشخصية الضحية بكل طريقة ممكنة وأن يسودّ اسمه في أعين الجماعة كلها . وكان بلعام هو ذلك الشخص، وقد اتهم بممارسة السحر على عضوه . اقرأي الآن القصة . "

تناولت الكتاب منها وقرأت الصفحة التي أشارت إليها :

حديث بلعام مع الموابيين

وعندما سألوه لماذا لا يمتطي حصاناً، قال لهم :

"أمتطي حصاناً غالباً، لكنني اليوم أمتطي إتاناً . "

وعندئذ قالت لإتان لبلعام أمام الموابيين :

"ألست إتانك؟"

"فقط لحمل المتاع" ، هكذا قال بلعام محاولاً أن يسكت الإتان قبل أن

تتمادى في مخالفته .

"ولكنك تستطيع أن تركبني"، واصلت الإتان،
مخالفةً ادعاء بلعام بأنها ليست إلا دابة لحمل المتاع وليست للركوب.
"لا أمتطيك إلا لماماً"، قال بلعام، موحياً بأنه في الأحوال العادية لا
يركبها.

واصلت الإتان مخالفتها لمزاعم بلعام بأنه لا يركبها إلا لماماً: "بل طوال
حياتك وحتى يومنا هذا".

واصلت تقول: "ليس هذا وحسب، ولكن في الليل أكون لك كما
تكون المرأة لزوجها".

هكذا هزمت الأتان بلعام في مصارعتهما اللفظية.

كيف يمكن إذن لبلعام أن يزعم أنه "مطلع على نية الرب الأعلى"،
وأنه يعرف عقل الرب ويستطيع التحكم به بما يتيح له أن يسلط لعنته على
اليهود، بينما اتضح بالبرهان أنه غير قادر على الإطلاع على عقل دابة
والتحكم بها؟

كانت ضحكاتي ترصع القراءة والآن حان دور سارة، ولكن سرورها
قد خالطته ذكرى يوم رائع مضى قبل زمن طويل.

"ألا تتفقين معي أن هذا طفوليٌ للغاية يا أمي؟"

"لكل دين جانبه الطفولي، يا نيلوفر."

(٢٤)

القرن يتأهب لنزول مُستقره الأخير؛
سليم و خليل يناقشان المستقبل؛
دانتى وفيرلين؛
أورهان يطرح سؤالاً على إسكندر باشا

" هذا القرن يوشك على الموت " ، سمعت النبرات المضطربة لصوت
سليم . " وسينزل معه إلى القبر السلاطين والإمبراطورية لأن زمانهم قد
ولّى . ولكن متى يحين زماننا نحن ، يا أخي خليل ؟ متى يحين زماننا ؟ هل
علينا أن نموت نحن أيضاً ؟ أنا غير مسرورٍ بأخبارك . "

كان كلا الرجلين جالسين في المكتبة وحدهما عندما دخلت ، تطلعا
نحوي وابتسما .

" هل حدث شيءٌ ما ؟ "

لم يُجبني أيٌّ منهما .

" أهو سر عسكري ؟ "

تنهد خليل . " لا . قررت اللجنة بعد اجتماعات عديدة مع القصر . . . "

فقاطعه سليم: "ولقاءات أكثر مع القنصل الألماني . . . ،"

واصل خليل حديثه قائلاً: "قررنا تأجيل خطتنا للاستيلاء على السلطنة إلى أجلٍ غير مُسمى ."
"ولماذا؟"

"لأنهم وعدونا، يا نيلوفر، وعدونا بإجراء إصلاحات تبلغ من الضخامة والأهمية ما يجعل تحركنا لا ضرورة له. سيكون جرماً سفك الدماء بغير داع. وعلاوةً على ذلك، ارتضى الوزير بأن يتم في العام المقبل تعيين أعضاء قياديين من اللجنة في الحكومة بحيث يستطيعون الإشراف على الإصلاحات بأنفسهم."

"الله! هذه أخبار بديعة. لقد كسبنا دون إطلاق رصاصة واحدة."

فقال خليل: "نعم، ولكنهم يعلمون تمام العلم أنهم إن لم يتحركوا فسوف يُطلق الرصاص - وليس الرصاص فقط. إنهم يعلمون تماماً ما الذي حدث للخصي - الجنرال. لقد تقبلوا أمر اختفائه وحسب، لم يطرح علينا أحد أي أسئلة. وإن هذا التراخي عن اتخاذ اللازم يكشف الكثير عن حالتهم الذهنية."

كان سليم يبدو غير سعيد بالمرّة، قال: "يبدو لي أن كلاً منكما لديه درجة مدهشة من الثقة في قدرة الوزير على تحقيق كل ما وعدّ به. لعلّه يفكر قائلاً: ضع قادة الثورة في مواقع السلطنة وأفسدهم في الأثناء. اسمح بمرور بعض الإصلاحات ولكن قاوم أي محاولة لإزاحة السلطان أو إلغاء نفوذ رجال الدين."

قال خليل: "سليم، إذا حدث ذلك فسوف يُطلق الرصاص. إن أصدقاءنا الشبان في سالونيك يقاسمونك شكوكك وتلهفك. قد لا أكون ثورياً راديكالياً مثلك أو مثلهم، ولكني أعلم أمراً واحداً علم اليقين. إذا نحن أخفقنا في عملية التحديث خلال السنوات القليلة القادمة، فقد انتهينا، ولا أقصد الإمبراطورية حين أقول "نحن"، بل أقصد "نحن" كدولة جديدة حديثة. ولهذا السبب فإن أشخاصاً مثلي - ممن يتصفون باللين والاعتدال والحذر - سوف يصطفون مع المتهورين والمتحمسين من سالونيك للتأكد من أن الإصلاحات لن تفشل. لقد انتظرنا مائتي سنة، فلن يشكل اختلاقاً كبيراً لو انتظرنا بضعة أشهر أخرى أو حتى سنة كاملة."

اطمئن سليم قليلاً، وابتسم. سألت خليل عن التوأمين.

"هل عاد الولدان؟"

"نعم، والحمد لله. الاثنان بخير. عرضتُ عليهما أن أحضرهما إلى هنا، لكنهما كانا في غاية اللهفة لرؤية أصدقائهما في إسطنبول. وقد تركتهما مع زينب."

"وهل سيقومون معك بصفة مستديمة من الآن فصاعداً؟"

"نعم، وهو ما يجعلني في غاية السعادة. لقد أخبرتُ أمهما أن بوسعها رؤيتهما متى شاءت، ولكنني منحتها الطلاق الذي طلبته. الآن وقد منحنا القصر مهلة للراحة، قد أفعل شيئاً بخصوص العثور على أم جديدة للتوأمين. ألدريك أي أفكار لهذه المسألة الحرجة، يا نيلوفر؟ هل وقعت عينك على أي جميلات مؤخرًا؟"

"لطالما اعتقدتُ أنك أنت من يحمل معه دائماً قائمةً بهنّ مرتبة حسب الأولويات . "

شرح يضحك . لقد أدخلت عودةً ولديه على قلبه فرحاً هائلاً وكان من اللطيف أن أرى جيئنه خالياً من تقطيب العبوس ولو لمرة .

"توقفت عن إعداد القائمة منذ زمن طويل . لا تسخري من قائمة خطيباتي أيتها الفتاة الشقية . فأحياناً ما يمكنها أن تكون مثيراً فعلاً لاستدعاء ذكريات حلوة . "

"لا عَجَب في أن تجدك النساء شديد الرومانسية يا خليل ، فأنت حقاً تعرف كيف تلهب عواطفهن . "

ابتسم أخي . "ما إن يقع عليهن الاختيار ، أطلق شحنة هائلة من الغرام يفاجئهن مقدار عمقها في البداية ويسرهن فيما بعد . "

أنهينا حوارنا حينما تم اقتحام المكتبة من كل جانب . دخل إسكندر باشا وسارة ووراءهما طفلاي من جانب فيما سار البارون ومحمد آتين من الحديقة . تبع هؤلاء بعد دقائق معدودة سلمان ، وقد أضفت الشمس على وجهه سُمرة ، أبرزت بشدة بياض شعره . كان قد صار أكثر استرخاءً وبدت عليه أمارات السعادة . كان يحمل نسخةً من ديوان فيرلين ، الكتاب نفسه الذي رأيتُه يقرأه لأول مرة وأنا ابنة ثمانية أعوام فقط . كان غلافه الآن قد حالت ألوانه تماماً ربما بفعل شمس المتوسط ، وربما بفعل دموع صاحب الكتاب . سرّ الجميع لمراه ، وخصوصاً أورهان وأمينة ، اللذان صارا معتادين على تقلب مزاجه . يشعر الأطفال بمشكلاتنا بدرجة دقيقة للغاية أبعدهما نستطيع تخيُّله عنهم على الإطلاق .

كان البارون رائق المزاج، لكن دون أن يسمح له ذلك بالتراخي مع ميله للتنافس. "لم لا تقرأ علينا قصيدتك المفضلة لفيرلين ودعني أرى إن كنت أستطيع أن أضارها بإحدى قصائد شاعري المفضل؟"

وضع سلمان الكتاب على الطاولة.

"عنوان هذه القصيدة (حلمي المعهود) من ديوانه قصائد ساخرة، وقد ترجمتها بنفسني، رغم أنها مثل جميع القصائد، أفضل كثيراً في لغتها الأصلية. إليكم إذن قصيدة فيرلين حلمي المعهود.

كثيراً ما يزورني هذا الحلم، الغريب والنقّاذ
بامرأة مجهولة، أحبها وتحبني
امرأة لا تكون هي نفسها كل مرة
ولا تكون سواها، لكنها تحبني وتفهمني.

لأنها تفهمني، فإن قلبي يشفّ أمامها
لا مزيد من البأس، وبي! من أجلها وحدها
وجيئني الشاحب المحموم، من أجلها وحدها
لا يرطبه إلا دمعها، هي وحدها.

أهي سمراء، شقراء، صهباء؟ - لا علم لي.
واسمها؟ أذكر أنه ليّن وصاف
كأسماء الأحبة الذين انتزعتهم يدُ الأيام منا.

مُحدِّق نظرتها مثل أعين التماثيل ،
وصوتها ، ناء وهادئٍ وجليل
له تشني الأصوات العزيزة الغالية
التي صمتت .

حل الصمت . نظر خليل نحو أخيه نظرةً عطوفًا ، فلعلَّ فيرلين قد
داعب بضعة أوتار في صدر أخي الجنرال . كان أثر القصيدة حسنًا . نظر
سلمان إلى البارون .

" ضارعها إن استطعت ، أيها البارون . "

نهض البارون وسار حتى الرف الذي يضم الشعر اللاتيني والإيطالي ،
وهي المجموعة الأقل استخدامًا في مكتبتنا . صعد على السلم الخشبي صغير
الحجم ، وعثر في الحال على ما كان يبحث عنه ، فأطلق آهة ظفرٍ لنفسه ثم نزل .

" اكتسى بالغبار في موضعه هناك ، لا عجب إن كان قليلًا ما يُقرأ . فلا
أحد بينكم ، عدا محمد وسلمان ، يفهم هاتين اللغتين . طيّب إذن ، عن
نفسي لن أقرأ ترجمة . فلن تكون إلا محاكاة مضحكة للأصل ، ولا توجد بعد
ترجمة جيدة في الألمانية أو الفرنسية . إن التيرزا ربما^(١) يحيرهم جميعًا . إنها
الأنشودة الخامسة من الكوميديا الإلهية ، حينما يلتقي شاعرنا بالعاشقين
فرانشسكا وباولو في الدائرة الثانية من الجحيم . أنصت جيدًا يا سلمان ، ثم
اصدقني القول إن كانت الأبيات الحزيرية لمحبوبك فيرلين يمكنها أن تضارع
الفلورنسي ابن عصر النهضة :

وعند سماعي حديث هاتين النفسين المهيضتين ، حنيت رأسي ،
ومكثتُ مطرَقًا طويلًا ، حتى قال لي الشاعر : " فيمَ تفكر؟ "

وعندما أجبْتُ ، بدأتُ : " واحسرتاه ،
أية خواطر عذبة ، وأية رغبة عميقة ،
أدتُ بهذين إلى الطريق الأليم ! "

ثم اتجهت إليهما ، وتكلمت ، وبدأتُ :
" يا فرانثيسكا ، إن عذابك يستقطر مني الدمع
حزنًا وخشوعًا .

ولكن أخبريني : في وقت التنهدات العذبة ،
كيف وبأي دليل أتاح لكما الحب ،
أن تتعرفا على رغباتكما التي يحوطها الشك؟ "

أجابتنني : " ليس من ألم أشد ،
من تذكر العهد السعيد وقت البؤس ،
وهذا ما يعرفه أستاذك .

لكن إذا كانت تحدوك رغبة عميقة ،
في أن تعرف أصل حبنا ،
فسأفعل كمن يبكي ويتكلم ،

كنا ذات يوم نقرأ للمتعة، عن لانتشلوٲو،
وكيف تيمه الحب :
وكنا وحيدين، لا يخامرنا شك .

وجعلتُ تلك القراءة عيوننا تتلاقى عدة مرات،
وأشحبتُ لون وجهينا،
ولكن أمراً واحداً كان ذلك الذي غلبنا .

حينما قرأنا أن البسمة المرتقبة،
قد قبلها مثل ذلك العاشق
طبعَ هذا - الذي لن ينفصل عني أبداً -

طبعَ على ثغري قبلة، وهو يرتجف كله .
كان الكتاب وكاتبه هما جاليوتو :
ولم نقرأ فيه ذلك اليوم مزيداً " .

وبينما كانت إحدى الروحين تنطق بهذه الكلمات،
بكت الأخرى بمرارة،
حتى تهالكتُ من الأسى كأني أموت .

وهويتُ كما يهوي جسمٌ ميّت . (٢)

الأداء المسرحي المتكلف للبارون أرهقه فاستراح سائداً ظهره على المقعد، ويده تلمس طريقها باحثةً عن كأس شمبانيا غير موجود أمامه. وبما أنني لم أفهم ولا كلمة واحدة تطلعتُ في وجوه مَنْ يفهمونها، وبينما ظلّ سلمان منتبهاً يقظاً، فقد كست الرقة ملامح عمي محمد طوال القراءة. خاطب صديقه بصوت لَيِّن .

"أذكر حينما قرأتُ عليك هذه القطعة أول مرة يا جاكوب؟ في فينيسيا؟" كانت هذه هي المرة الأولى التي يخاطب فيها أي شخص من عائلتنا البارون باسمه الأول مجرداً.

استجمع البارون شتات نفسه. لم يكن يجب قط إظهار العواطف تحت أنظار الآخرين فتجاهل سؤال العم محمد.

"وإذن يا سلمان؟"

نظر أخي إلى العجوز البروسي ورفع حاجباً.

"عزيزي البارون، لا شك أن ستفق معي أنه سيكون تطاولاً من كلينا لو قارننا بين هذين الشاعرين. لقد كتب كلٌّ منهما في زمانه، وبالتالي فلكلٍ منهما سماته الخاصة. هل يمكنك أن تقارن ميكافيلي بهيجل؟"

"فكرة تافهة ."

"بالضبط، فلا جدوى ترجى منها. وهكذا الحال مع دانتي وفيرلين ."

"أختلف معك"، كان البارون قد بدأ بيدي علامات الضيق والتحفز.

"كان الفلورنسي شاعراً عبقرياً. أما الفرنسي فكان شاعراً مجيداً وحسب ."

بدأ سلمان يغتاض الآن. هز منكبيه بلا مبالاة، لكنه احتفظ بصمته.
كنا قد بدأنا نتساءل إن كان حوارهما قد انتهى حينما تحدث سلمان.

"شيء واحد يجيرني أيها البارون. إنني أعرف المقتطف الذي قرأته من الأنشودة الخامسة، وما كان يجيرني على الدوام لماذا كان على دانتي أن يُفسد أثر قطعة ذات عمق عاطفي غائر هكذا بإصراره على ذكر الكتاب الذي كانا يقرأه، وهو قصة لانسيلوت، مجرد أسطورة عادة ما تجذب العقول الخفيفة. أتظن أنه تعمّد هذا؟ كوسيلة لتحذير قارئه، ربما، من أن الحب قد يسلب المرء قدرته على التمييز؟"

شحب البارون غضباً. "إن السؤال الذي تطرحه في غاية العمق بحيث أنه سيكون عليّ أن أتأمله الليلة وأعطيك جواباً غداً."

شرعنا أنا وسلمان في الضحك، حتى قاطعنا أبي.

"كفانا شعراً لهذا اليوم. لقد طرح أورهان عليّ اليوم سؤالاً لم تكن عندي إجابة له. وقلت له اسأل سليم و خليل بنفسك. تعال هنا يا أورهان."

تحرك أورهان إلى حيث كان إسكندر باشا جالساً.

"سألتُ جدي: عندما يرحل السلطان وعندما يستولي على السلطة خالي خليل وسليم والرجال الذين أتوا لزيارة منزلنا، فهل سيُعاقب الهمج الذين قتلوا أبي؟"

غطى سليم وجهه بكفيه. بدا خليل متفكراً ولم يفعل أكثر من الإيماء إجابةً للسؤال. كان سلمان هو الشخص الذي أجاب.

" كلاهما يودان لو يقولان لك "نعم" يا أورهان ، ذلك لأنهما يجبانك كل الحب ، ولكنهما يجبانك بحيث لا يريدان أن يكذبا عليك . بعض الرجال الذين قتلوا أباك لأنه يوناني هم أنفسهم من بين الأشخاص الذين يريدون إزاحة السلطان . إذن فالإجابة هي "لا" ، يا أورهان . الأغلب أنه لن تتم معاقبتهم أبداً . "

اغرورقت عينا أورهان وتطلعت أمينة من النافذة . أخذهما والداي خارج الغرفة دون كلمة أخرى . ونهض محمد أيضاً كما لو كان يتأهب للمغادرة .

" لا بدّ أن نتأكد من حزم جميع أمتعتنا أيها البارون . سنرحل مبكراً صباح الغد . "

لم أكن أعلم أن رحيلهما وشيك لهذا الحد . " ستتخليان عنا في أمس حاجتنا إليكما أيها البارون . "

" الإمبراطوريات القديمة تسقط وتحل محلها أخرى جديدة ، يا نيلوفر . وأنت محظوظة ، لأنه سيكون عندك أصدقاء على الجانبين . "

جلس محمد من جديد . " أتقصد برلين كقلب إمبراطورية جديدة ، أيها البارون؟ لا أحسبُ أن الإنجليز والفرنسيين والروس سوف يسمحون بمولد هذه الإمبراطورية . "

" إنهم غير محصنين من الهزيمة يا محمد . "

" سوف نرى "

" دعني أعبر عن الأمر بطريقة أخرى يا محمد . أي قوة ستكون ذات بأس كافٍ لهزيمة ألمانيا سوف تحكم العالم ذات يوم . "

" وبهذه النعمة الفاجنرية الصوفية يا بارون، أظن أن علينا أن نأوي للفراش. "

قال البارون " جيد، ولكن ليس قبل أن ندعو سلمان ونيلوفر وسليم إلى حفل رأس السنة الراقص لعائلتنا في برلين. سيكون في غاية الفخامة هذه السنة. إذا وددتَ يا سليم، يمكنني أن أطلب من صديقي إرننج أن يحصل على تذكرتين لكما لحضور الحفل الراقص الذي ينظمه الديمقراطيون الاشتراكيون الألمان. إنهم يقومون بتخطيط كل شيء مسبقاً على خير وجه. هذه هي طبيعتهم. "

أجاب سليم: " سيكون في هذا تشجيعاً كبيراً لي على زيارة برلين. "

" رائع. اتفقنا، ولكنكما ستنزلان في ضيافتي. "

صحبهما سليم إلى خارج الغرفة، وتركني بمفردي مع سلمان.

" هل تتطلع إلى العمل مع العم كمال من جديد؟ "

نظر نحوي ومسّد وجنتي برفق.

" نعم يا نيلوفر. إنني مستعد لشيء جديد. ضجرتُ من الشرق وقد

خذلني. أود أن أزور أمريكا وأن أرى شيكاجو ونيويورك. إنها بلاد كبيرة

بحيث يمكن للمرء أن يضيّع نفسه في شساعتها. إنني أتطلع للتيه من جديد.

سوف تحتاج شركة السفن البخارية إلى تأسيس جيد على جميع السواحل. "

" سوف يفتقدك أبي كثيراً. أتعلم ذلك؟ أعتقد أنه من بيننا جميعاً يشعر

بأنك الأقرب إليه. كان عليك أن ترى نظرته إلى وجهك بينما تقرأ فيرلين.

إنه يجبك لأقصى درجة يا سلمان. ونحن أطفال كرهناه لأنه عاقبك، ولكنه أحبك عندئذ بنفس القدر. كنا أصغر من أن ندرك الأمر في ذلك الحين. "

" هذا صحيح، وأنا أيضاً أشعر بالقرب الشديد منه، وهو ما لم أكن أشعر به قط حينما نشأت هنا. لا تقلقي. لم أكن أنتوي أن أرحل بهذه السرعة يا أختاه، سوف أقضي وقتاً كثيراً مع أبنينا. "

كنتُ في الفراش أنتظر سليم ليخلع ثيابه وينضم إليّ. الجميع يتأهبون للرحيل الآن، ولكنه سيبقى على الدوام معي، بنظراته الغريبة والعنود هذه، وبكبريائه أيضاً. ظهر لي من العدم فأغاثني من الوحلة حينما كنتُ تسعة وكانت حياتي مع ديميتري قد بلغت منتهاها. لم أرغب في التفكير في الحب أو الغرام أو الخيانة.

دخل سليم الفراش ورنّا إليّ باسمًا.

قال: " لا أود الليلة أن نتحدّث عن حبنا لبعضنا البعض، لا أريد أن أعرف إن كان يزداد نمواً وعمقاً أو من منا يحب الآخر أكثر. ليس الليلة. "

غلبني الضحك. " لماذا نفعل هذا دائماً، يا سليم؟ " على كل حال، ما أريد مناقشته ليس حبنا، ولكن ضعفنا. إن تعرّف كل منا على نقاط ضعف الآخر هو ما ينشأ عنه ما قد يُسميه سعادة البارون التكافؤ العاطفي. "

بدأ يعركُ جسدي بجسده.

" لا كلمات هذه الليلة، يا أميرتي. فقط غرام. غرام. غرام.

غرام. "

البدر يغييب والشمس الجديدة تبزغ

استيقظتُ مبكراً للغاية هذا الصباح . أردتُ أن أكون بمفردي تماماً .
ارتديتُ ثيابي في هدوء وغادرتُ المنزل من باب جانبي . كانت الباحة
بالخارج لا تزال تستحم بنور بدر التمام .

سرتُ حتى أعلى تلة صغيرة تنهض خلف المرأة الحجرية تماماً ، غير بعيد
عن موضع دفن حسن بابا . فعلتُ نفس فعلي هذا ذات مرة من قبل ، حين كان
عمري ستة عشر عاماً وأحلم بالأمير الذي سيظهر من العدم ذات يوم ، ويرفعني
عن الأرض ، ليضعني أمامه على متن جوداه ويهرب بي بعيداً إلى الأبد .

ها هو أمامي ، بدر التمام . لم أره منذ سنوات معلقاً فوق البحر وكبيراً
هكذا وقريباً هكذا . من موضعي على هذا التل عانقته فتدفقت إلى داخل
جسدي قوة سحرية غامضة .

أتيتُ لأراه ينحدر في الغرب بينما تنهض شمس اليوم الجديد من
الشرق . كان قمرًا ضحماً ومتوائماً كأنه يتكاسل ، أشرتُ له إشارة وداعٍ

كلها عاطفة من هذا التل وراء المنزل الصيفي ليوسف باشا . كم من الأحلام
وُلدت هنا ، وكم من أحلام سواها قد استودعها أصحابها هنا خلال مئات
الأصيف المباركة ، ليستردوها فيما بعد .

استدرتُ جهة الشرق . على وجه الأفق توزعت بضع سحابات رقيقة
مثل خصلات ناعمة . أضاءتها الشمس الخفية أول الأمر بألق وردي جليل ،
والذي أخذ يتحول إلى الحمرة ببطء . كان حُسناً غضاً صيباً ، لا يُرى إلا
لبرهة وجيزة . عرفتُ أن الشمس في أي لحظة ستخترق السحب وتحرق
عيني ، فأشحتُ وجهي في اللحظة المناسبة تماماً وبينما كنت أهبط التل رأيتُ
شيئاً كثيراً ما تحدثوا عنه ، دون أن يراه أيُّ منا قط .

إذ ارتطمت الأشعة الأولى لنور الشمس بالمرأة الحجرية ، خلقتُ ظلاً
على شكل حوت عملاق من كائنات ما قبل التاريخ . لم يستمر الظل إلا
دقيقة واحدة ، فمأ كدتُ أجد الوقت لأشهب من الدهشة والروعة حتى زال
وتبدد . توقفت لأرنو إلى الصخرة التي كانت امرأتنا الحجرية وهمستُ له
بتحية الوداع ، تماماً كما اعتدنا أن نفعل ونحن أطفال .

في الأسابيع الماضية امتلأ ثدياي بالحنان الطري وهذا هو الشهر الثاني
على التوالي الذي لا أحيض فيه . إنني حُبلى من جديد . سوف يولد طفل
سليم بعد سبعة أشهر من الآن ، سيكون عمره من عمر القرن الجديد .

انقضى الصيف . غداً نرجع إلى إسطنبول .

الهوامش

الفصل الأول :

١ . الفيريون، أو يونانيون الفنار: أبناء عائلات يونانية أرستقراطية كانت تسكن حي الفنار في اسطنبول، وكان لهم نفوذ سياسي في الدولة العثمانية .

الفصل الثاني:

٢ . مساوية لرتبة جنرال أو لواء، وسوف يُشار إليه بالجنرال تخفيفاً خلال بقية النص .

الفصل الثالث:

١ . (قابوس نامه) أو (مركبا الأمل)، من تأليف الأمير كيكافوس بن اسكندر، وضعه لابنه كيلانشاه، وهو يعد من كتب نصائح الملوك التي تنقل الخبرة في أمور السياسة من الأب إلى ابنه، وكان له أثره في الأدبيات السياسية لعالم الشرق القديم، منذ وضعه عام ٤٧٥ هجرياً .

٢ . أرطغرل، يُلقب دائماً باسم الغازي، وهو والد عثمان الأول مؤسس الدولة العثمانية، وحين وصل بفرسانه الأربعمئة لمساعدة السلاجقة الروم في حروبهم ضد البيزنطيين كان بذلك قد مهد لوضع الأساس للإمبراطورية العثمانية .

الفصل الخامس:

١ . هو السلطان سليم الثاني، (٢٨ مايو ١٥٢٤ - ١٥ ديسمبر ١٥٧٤)، ولقب بسليم السكر في الغرب، وعرف أيضاً بسليم الأشقر في الشرق .

٢ . (حضرة السيدة) . .

الفصل السادس:

١ . الكلمة بالتركية في الأصل، Devshirme، الدوشيرمة أو الدفشيرمة، طريقة كانت تتبعها الإمبراطورية العثمانية في تجنيد أولاداً من عائلات مسيحية، يتم تحويلهم فيما بعد إلى الإسلام، ويُدربون كجنود انكشارية، بغرض إنشاء طبقة عليا من المحاربين

تكون موالية للسلطان فقط، وليس للنبلأ العثمانيين. وكان يتم تعيين قسم من هؤلاء للعمل في الوظائف الإدارية للإمبراطورية.

الفصل السابع:

١. أبو عمران موسى بن ميمون بن عبيد الله القرطبي، توفي عام ١٢٠٤، انتقلت عائلته من الأندلس ثم إلى المغرب ثم فلسطين حتى استقرت في مصر، حيث عاش حتى وفاته. كان نقيب الطائفة اليهودية في مصر والطبيب الخاص لبلط الوزير الفاضل والسلطان صلاح الدين.

الفصل الثامن:

١. البكتاشية: طريقة صوفية تركية تُنسب إلى الحاج بكتاش وكبي (القرن السابع الهجري) انتشرت في الأناضول، ثم في ألبانية. تعاليمها مُستمدة من تعاليم الشيعة الاثني عشرية وتعاليم الطرق القلندرية والحيدرية، ومن معتقدات اجتماعية تسلت لهم من خلال الديانات القديمة التي دخل فيها الترك قبل إسلامهم كالسامية والماتوية.

٢. سباهية أو صباهية (والفرد سباهي، نسبة إلى سباه جند)، هم جنود فرسان عثمانيون على درجات كانوا مقيمين في الدبالات (المزارع) في الأراضي التي أقطعوا عُشرها وبدل محصولها ورسوم فراغها وانتقالها بصفتهم غزاة، وكانوا يعفون من كل التكاليف.

الفصل الثاني عشر

١. باللاتينية في الأصل: Reductio ad absurdum «أي: برهنة أساسها إثبات صحة المطلوب بإبطال نقيضه أو فساد المطلوب بإثبات نقيضه»

٢. بارسيفال: عنوان أوبرا من أعمال فاجنر، وهو أيضاً اسم بطلها النبيل الأسطوري.

الفصل الرابع والعشرين:

١. Terza Rima: بالإيطالية في الأصل، وتعني الإيقاع الثالث أو الثلاثي، وهو شكل شعري لقطعة من ثلاث سطور. وأول استخدام معروف له كان في الكوميديا الإلهية لدانتي.

٢. وردَ النصّ بالإيطالية في الأصل مع ملحق له باللغة الإنجليزية، والترجمة العربية للأستاذ حَسَنَ عثمان، من ترجمته للكوميديا الإلهية الصادرة عن الهيئة العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ٢٠١٣، المجلد الأول: الجحيم.

الكتب خان للنشر والتوزيع®

١٣ شارع ٢٥٤ - دجلة - المعادي - القاهرة.

تليفون: +٢٠٢٢٥١٩٦٥٦٩ - +٢٠٢٢٥١٧٠٦٧٨

بريد إلكتروني: info@kotobkhan.com

موقع إلكتروني: www.kotobkhan.com



أسرة إسكندر باشا، والممثل الصيفي الكبير على ضفاف بحر مرمره، لحظة سقوط الخلع العثماني، الإمبراطورية عام ١٨٩٩. الأب السفير السابق يصاب بجلطة تمنعه النطق، فتلتف الأسرة لأول مرة حوله لتحكي، وطارق علي بسرديته ذات الطراز الفخم، ينسج اختلاج هوية مهددة تغشاها كل ألوان الانفعال تحت مد التغيير القادم، وأوروبا تطرق الإمبراطورية بالحدائث، والقالب الملحمي لرواية الجيل، مضفر بولع القرن الواحد والعشرين، التفاصيل والحسية، الحب والهجران، الجنس وأزمة أمة كاملة، العمل السري والطبقية، وامرأة حجرية، تمثل بضعة الباشا، تسمع في ثباتها كل الاعترافات، والتحول يحدث حولها في سياسة العالم، والكل يلوم، ثم يبحث عن السبب. الثورة حتمية، ووعود السلطان ترجئها، المعارك العسكرية لم تبد في الصورة، لكن الوجه التي تحتها طارق علي تمتد ملامحها حتى نحس ارتعاشة نبض أسرة الباشا وهي تواجه العاصفة الشخصية، السياسية والاجتماعية، حتى نسمع المرأة الحجرية يروي لها كل شيء.

طارق علي كاتب بريطاني من أصول باكستانية، صحافي وصانع أفلام وعضو اللجنة التحريرية لمجريدة *New Left Review* ويكتب للمجارديان. من أهم أعماله "صراع الأصوليات"، و"قراصنة الكاربي"، و"أوياما سيندروم"، و"سنوات حرب الشوارع"، و"حماسية الإسلام".

محمد عبد النبي، مواليد القاهرة، روائي و مترجم، صدر له "رجوع الشيخ"، "شبح أنطون تشيخوف"، وله العديد من المقالات الأدبية والنقدية في المجلات والصحف العربية.

الكتاب
الشرقية

ISBN 978-977-803-001-3



9 789778 030013 >